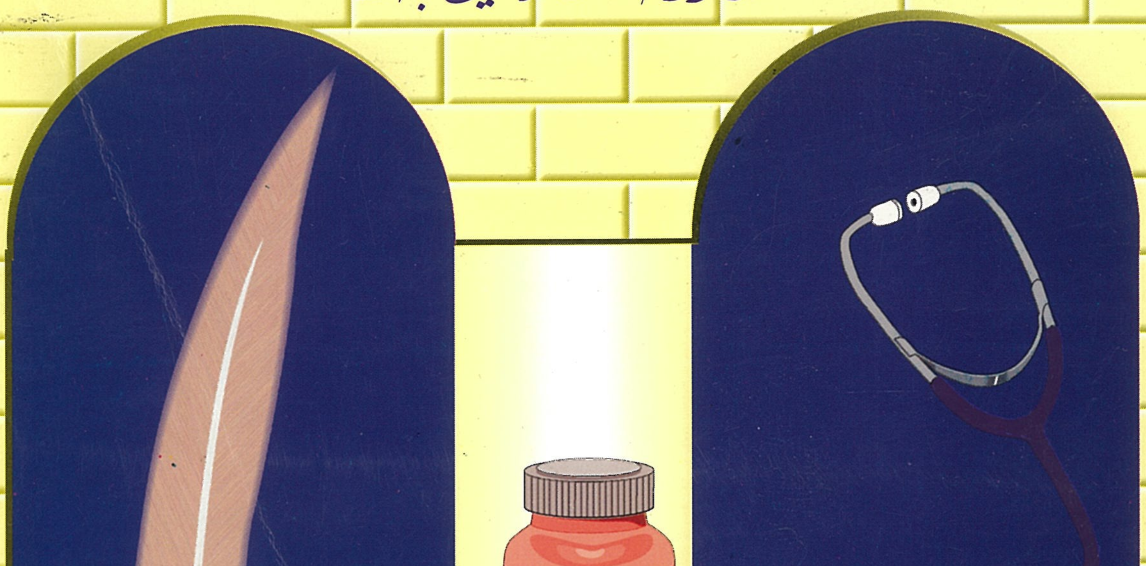
الدَّاءُ.. والدَّواءُ

بَيْنَ الأَطِبَّاءِ.. والأُدبَاءِ

تأليف

الدكتور حسّان شمسي باشا



دار القلم
دمشق

الدَّاءُ.. والدَّوَاءُ

بَيْنَ الأَطِبَّاءِ.. والأُدَبَاءِ

تأليف

الدكتور حسّان شمسي باشا

استشاري أمراض القلب
في مستشفى الملك فهد للقوات المسلحة بجدة
زميل الكليات الملكية للأطباء الداخليين في لندن
زميل الكلية الملكية للأطباء الداخليين في ايرلندا
زميل الكلية الملكية للأطباء الداخليين في غلاسجو
زميل الكلية الأمريكية لأطباء القلب

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

هتاف السَّحَر

ساءلتُ روحيَ يوماً أين غايتها   قالت: إلى جنَّة الرحمن أطَّلعُ
قالتْ: فأيَّ سبيلٍ سوف تسلكُهُ   فقلتُ: هل غيرَ دربِ الحقِ أتَّبعُ
إليك ربِّي بسطتُ الكفَّ مُبْتهلاً   فأنتَ وحدك تعطيني.. فأقتنعُ
ما احتجْتُ إلاَّكَ مِعواناً ألوذُ به   يامَنْ أناديك في سِرِّي فتستمعُ
يا ربِّ لستُ أرجِّي اليوم منزلةً   إلا رضاكَ .. به أسمو وأرتفعُ
يا ربِّ فاحفظ بفضلٍ منك عائلةً   بها ألوذُ.. إذا ما انفضَّت الشيَعُ
يا رب واحفظ أحبَّائي الذين بهم   تحلو الحياةُ.. فيشتدوا ويرتفعوا
يا ربِّ.. لستُ أسمِّي منهمُ أحداً   يكفيهمُ الفخر أنْ صلَّوا وأنْ ركعوا

حسّان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

عشقتُ الأدب قبل أن أتخذ الطبَّ خليلاً. وتفيأتُ ظلالَه قبل أن يتملَّكني سلطانُ الطب، ويستبدَّ بي حبُّ العلم والعلماء.

أحببتُ الأدب مذ كنتُ في الثانية عشرة من عمري، فقرأتُ أمهات الكتب، ثم أصبحت القراءة لي ديدناً ومنهاج حياة.

فهمت بعضاً مما قرأت، وعَسُرَ عليَّ فهم بعضٍ آخر. ولكنَّ حُبّي للقراءة تغلغل في أعماقي، وملك عليَّ جوارحي ووجداني.

قرأت في الأدب والتفسير والحديث والفقه والفلك والتاريخ، ولم أفارق الكتابَ في ليلٍ ولا نهار.

كيف لا؟ وقد هزَّني قول جبريل لرسول الإنسانية عليه أفضل الصلاة والسلام: «اِقرأ». فكانت أولُ كلمة في القرآن أمراً بالقراءة إلى يوم يبعثون.

وزاد من لوعتي أن أُمَّةَ «اِقرأ» لا يقرأ من أبنائها إلا النزر القليل.. هجر الكثير منهم «الكتاب»، وآثروا أن يتنقَّلوا بين «القنوات»!!.

ومرَّت الأيام.. وغدا من هام بالأدب طبيباً.. وما انطفأت في قلبه شعلة الأدب، ولا سكن أوراها.

كتبتُ أكثر من خمسة وعشرين كتاباً، هي بالنسبة لي فلذات كبدي، وقطعٌ مني، تنبض بما يخفق به قلبي.

ولكن لهذا الكتاب نكهةً فريدة، ومذاقاً خاصاً، إذ ألّفت فيه بين الطب والأدب؛ بل. . معاذ الله، فما كان الطب والأدب يوماً على خلاف!.

ففي لحظة من لحظات الضعف الإنساني نجد الطبيب يرصد أصدق مشاعر مريضه الذي يبوح له بأعمق الأحاسيس، ويُسلم إليه القياد، ويصدقه القول، حتى ولو لم يعرف الصدق إلى قلبه من قبل سبيلاً.

وفي الوقت ذاته، فإن الأديب مرآة لما يختلج في القلوب، وما تفيض به النفوس. . يترجم ويعكس بصدق كل ما يعتمل في صدور الآخرين.

وقد يظن بعض الناس أن الطبيب بعيد عن أمور الإحساس والشعور، وأنه مفروضٌ عليه ألاّ يقرأ إلاّ بحثاً في مرض أو مقالاً في علاج. . . ولبعض الناس العُذْر في هذا، فما أكثر ما يصادفون من أطباء لا يعرفون إلا أحاديث الداء والدواء، يتلونها على الناس وكأنها بابٌ في الطب مفتوح على مصراعيه!!.

كنت أحاور مرة صديقاً غربياً قبل عدد من السنين، فعرفتُ أنه يعرف عن ديننا وتاريخنا أكثر مما كنت أعرف. وقد ابتدرني قائلاً: أيتوجه الطبيب منكم إلى ربه في طبه وعمله؟. قلت: بلى، فالكلمة الطيبة يلقيها الطبيب في وجه مريض بائس صَدَقة وأي صدقة، وإن استطعتَ أن ترسم على وجه مريض يائس بَسْمة أمل، كنتَ على ثغر من ثغور الإسلام؛ ولأن تخلص لله عملك، فأنت في أعلىٰ مراتب الإيمان.

فأَكْبَـرَ ذلك في ديننا وازداد به إعجاباً.

* * *

وعودة إلى المرض والشعراء، فقد ألّف أستاذ الجراحة السويسري «فيليب ساندبلوم» كتاباً بعنوان «الإبداع والمرض»، ذكر فيه أسماء العديد من الأدباء والفنانين الذين ساهم المرضُ عندهم في إبداعهم. ولاحظ

وجود علاقة قوية بين آلام الأدباء وإبداعاتهم. وربما كانت تلك المعاناة جوهر الإبداع. ومن هؤلاء شعراء كبار مثل «نوفاليس» الذي سُمي بشاعر الموت، فقد مات في الثامنة والعشرين من عمره بسبب إصابته بالسُّلِّ.

ومنهم الفيلسوف نيتشه الذي يقول: «لم أشعر مطلقاً بأنني أكثر سعادة إلا في فترات حياتي الأشد مرضاً. . . فترات الألم العظيم».

ومن الأدباء والفنانين الغربيين من أصابه المرض العضال، فهذا فلوبير قد أصيب بالصَّرَع، ومارسيل بروست أصيب بالربو المزمن، وكان موزارت مصاباً بالفشل الكلوي، كما أصيب موليير بالسُّلِّ، ودستويفسكي بالصَّرَع.

وفي عالمنا العربي نرى عدداً من الشعراء جعلهم المرض يبدعون في أشعارهم من أمثال «أبو القاسم الشابي» و«عبد السلام حافظ» و«عبد الباسط الصوفي» وغيرهم.

* * *

ومن الطرائف أن بعض الشعراء شبَّهوا أنفسهم بالدواء أو المرض والموت. فقد اجتمع يوماً جرير والفرزدق والأخطل في مجلس عبد الملك، فقال لهم: ليقل كل منكم بيتاً في مدح نفسه، فأيكم غلب فله هذا الكيس، وكان به خمسمئة دينار، فقال الفرزدق:

أنا القَطِرانُ والشعراء جَرْبىٰ ... وفي القطِران للجربَى شفاءُ

وقال الأخطل:

فإن تكُ زقَّ زاملة فإني ... أنا الطاعونُ ليس له دواء

وقال جرير:

أنا الموت الذي آتي عليكم ... فليس لهاربٍ منِّي نجاءُ

فقال له عبد الملك: خذ الكيس، فلعمري إن الموت يأتي على كل شيء.

ومن بدائع لغة العرب أن كثيراً من الأدواء والأوجاع تأتي على صيغة «فُعال»: كالصُّداع، والسُّعال، والزُّكام، والبُحاح، والدُّوار، والهُلاس، والهُيام، والزحار، والصُّفَار، والكزاز، والفُواق، والخُناق.. إلخ.

ومن المعروف أن الداء اسم جامع لكل مرض وعلَّة ظاهرة أو باطنة، حتى يقال: داء الشيخ أشدُّ الأدواء. ولكن هنالك تفريعات طريفة في ذلك فإن الداء إذا أعيا الأطباء فهو عَيَاءُ.

وإذا زاد على الأيام فهو عُضال..

وإذا كان لادواء له فهو عَقَّام..

وإذا عتق وأتت عليه الأزمنة فهو مزمن..

وإذا لم يُعلم به حتى يظهر منه شرٌّ وعرٌّ فهو الداء الدفين[1].

* * *

وفي معرض حديث الشعر والأدباء عن الداء والدواء، أيمكن أن يكون بعض الشعراء قد تنبأ بإمكانية إجراء عمليات نقل الأعضاء قبل حدوثها بنيِّف وألف عام؟.. فهذا عبد الله بن الدَّمَيْنة يسأل عمن يبدله كبداً سليمة بكبد مريضة فيقول:

ولي كبدٌ مقروحةٌ مَنْ يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروحِ
أباها عليَّ الناس لا يشترونها ... ومَنْ يَشْتري ذا عِلَّةٍ بصحيح

وهذا الطغرائي يقول وكأنه يبشِّر بإمكانيه إجراء عملية نقل القلب[2]:

أراني بائعاً قلبي بقلبٍ ... ومَنْ ذا يشتري القلب الجريحا

وهذا العباس بن الأحنف يتمنىٰ أن يجد من يعيره عينه ليبكي بها بعد أن ذهبت عيناه الاثنتان بالبكاء:

مَنْ ذا يعيرك عينه تبكي بها ... أرأيتَ عيناً للبكاء تُعارُ

---

(١) فقه اللغة للثعالبي ص ١٢٠ ـ ١٢٢ بتصرف.

(٢) «المرض والشفاء في أغاني الشعراء» للدكتور محمد أحمد الغرباوي.

وهذا عبيد الله المسعودي يقول وكأنه ينظر إلى زمن سيأتي ـ وقد جاء ـ:

شققـت القلـب ثـم ذررتُ فيـه هـواكِ فَلِيـمَ والتـأمَ[1] الفُطُـور[2]

وإذا كان من حق العلم أن يجعلنا نفترض ونتصور، أيمكن أن نعدَّ ما ورد في كتب السيرة من خبر شق جبريل عليه السلام لصدر سيدنا محمد ﷺ وغسله بالماء والثلج ـ وهو ما يفعله جرَّاح القلب الآن ـ أول عملية قلب مفتوح في التاريخ؟! تلك العملية التي هيأ الله تعالى بها قلب نبيه المصطفى لاحتواء الإنسانية بأسمى معانيها!!.

* * *

وعودة أخرى إلى قصة هذا الكتاب، فقد عشتُ في كنف الإعداد له زهاء عامَيْن، أبحث هنا وهناك عن دُررٍ تُبهجُ القلب، أو أزهارٍ تُمتعُ النفس.

عدتُ إلى أمهات كتب الأدب، ودواوين الشعر، والمختارات من أشعار العرب. واقتبستُ من كتب المعنيين بهذا الموضوع ما جعلني أعيش في بحر من أدبيات الداء والدواء.

ورغم وجود عدد من المقالات تجمع بين الطب والأدب، إلا أنه ليس هناك ـ كما يغلب على ظني ـ كتاب ينحو هذا النحو.

وليس من أهدافي في هذا الكتاب تقييم الشعر أو الشعراء، أو تبيان ما صلح أو فسد من أعمالهم، كما أنني لم أقصد إلى أن أُقحم الطب بالأدب إقحاماً، إنما هو مسعى متواضع لأن أجعل القارىء يسير متنقلاً بين رياض الأدب وهموم الطب والأطباء في وقت معاً.

---

(١) ليمَ والتأم: بمعنى واحد.

(٢) الفُطُور: جمع فَطْر: وهو الصدع.

وبالطبع لا يمكن أن نعدَّ هذا الكتاب جامعاً لكل ما قيل في الموضوعات التي وردت فيه، ولا محيطاً بكل أطراف الموضوع وأركانه، فربما غابت عن هذا الكتاب أشعارٌ لشعراء كبار، وقصائد أكثر جمالاً وتعبيراً. وربما وُجدت بين ثناياه أشعار لا ترقى إلى مستوى الجودة من الشعر، ولكن حسبي من هذا العمل أن يكون مجرد بداية.

أما موضوع «العين» فقد خصصنا لها كتاباً بعنوان «العين بين الطب والأدب والدين».

وإني لأتقدم سلفاً بجزيل شكري وامتناني إلى كل من يرشدني إلى قصيدة مناسبة أو أبيات معبِّرة، فستجد طريقها في طبعة تالية لهذا الكتاب إن شاء الله.

ولا يسعني في هذا المجال إلا أن أسدي تحية شكر وعرفان لكل من أسهم في إخراج هذا الكتاب وساعد في تصحيحه وتدقيقه، وأخص بالشكر الأخ الأكبر والصديق الوفي الأستاذ نور الدين شمسي باشا الذي تفضَّل مشكوراً بمراجعة الكتاب، وأسدى إليَّ النصائح الثمينة، والملاحظات القيمة فجزاه الله عني خير جزاء.

* * *

بدأتُ الكتاب بفصل ذكرت فيه ما قاله الشعراء في مرضهم أو مرض أبنائهم، ثم كان هناك فصلٌ طويل ضمَّنتُه ما يدور بين المريض وطبيبه من يأس ورجاء، أو لومٍ وثناء.

وتتتابع الفصول فتحكي قصة القلب المعذَّب، والسواك الذي يَغار منه الشعراء، وتروي حكاية الأسنان والرضاب، وما يتصل بذلك من أعذب الأحاديث.

ثم تنقلك إلى مجالس القهوة والشاي، وتحذِّر من المدامة ومن الإيدزطاعون العصر. وترصد بمقياس الجمال البدينين والنحفاء، ثم

تجول بك في عالم الأسرة والزواج والعقم، وقضية شَبَهِ الوليد بأبيه. ثم تعرِّج على مخاوف الشعراء من نقل الدم، ونظرتهم إلى الحِجامة والفِصادة.

وتتلاحق الفصول لتسرح بك في عالم النوم، والأرق، والأحلام؛ ولتعود بك بعدها إلى الجلد تلك الخيمة الواقية؛ ومن الجلد إلى الشيب والصَّلع وما تُنكره الحِسان.

وتتوالى سنوات العمر لتوصلنا إلى هموم الشيخوخة وأعبائها، وما تأتي به من تنكُّس المفاصل؛ ومن ثم نُعَرِّج على العرجان، وما جاء فيهم من أشعار؛ ثم نوغل في عالم المرض، فنذكر الحمَّى وما قيل فيها من شعر؛ ونلمُّ بالتدرُّن الرئوي، وما نظم فيه من قصيد؛ ثم نرى ما صنع الزكام بإمام الأطباء!.

ومن الغصص بالماء إلى الكبد المقروحة وما عاناه الشعراء من آلام.

ونقرأ كيف اتُّهم اليهود موسى بأنه «آدر»، ونعجب من كلمة عربية فصيحة هجرتها المعاجم الطبية!.

ثم نعود ثانية إلى أمراض الجلد، وتوهُّم الناس أن البَـرَص يُعْدي، فالجرب أشد منه سراية وعَدْوى.

ولا ننسى البراغيث وما فعلته بالشعراء؛ كما نلمُّ إلمامات خاطفة بالحصبة والجدري والجذام والكَلَب.

ثم نزور المريض في بيته ونسمعه يشكو إلينا هجران الأصدقاء، وقلة العائدين.

ونقترب من النهاية، والنهاية حتمٌ لكل إنسان، فنرى كيف واجه الشعراء الموت، وكيف مات بعضهم في ريعان الشباب.

وفي نهاية المطاف نقف في واحة الرضا بما قدَّر الله، نستظل بها ونستريح فيها من رحلة العناء بين من ابتلاهم الله فصبروا وسلَّموا الأمر

لرب العالمين، يحكم ما يشاء، ويختار ما يريد، حيث لا يبقى آخر الأمر إلا الأمل بكرمه وإحسانه.

اللهم إن كنتُ وُفِّقْتُ في عملي هذا فلك الحمد على ما أنعمت، وإن كنتُ أخطأت فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة.

اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت. لك أسلمتُ وجهي فلا تردَّني خائباً، ولا تكلني إلى أحد سواك.

جدة

٢٨/ ١١/ ١٤١٧هـ = ٦/ ٤/ ١٩٩٧م

الدكتور حسان شمسي باشا

الشِّعر والمرض

الشعراء مثل كل المخلوقات، ألمّ المرض بهم أو بأقربائهم، فمنهم من تلقَّاه بالصبر ورحابة الصدر، ومنهم من حزن وسالت دموعه، ومنهم من سخر من المرض وتصدَّى له.

وفي كل هذا ذاك أوحى المرض إليهم شعراً، وفاضت أنفسهم بشعر نَضَحت حروفه بالحزن والمرارة.

وهذا أبو العتاهية في مرضه الأخير، وقد أحس بدنو الأجل، ينظم قصيدة تصور حاله وهو يرجو عفو ربه، حزيناً على عمره، نادماً على ما أسرف من عمل في دنياه:

إلهي لا تعذبْني فإنّي ... مقرٌّ بالذي قد كان منّي
فما لي حيلة إلا رجائي ... لعفوك فاحططِ الأوزار عنّي
وكم من زلة لي في الخطايا ... وأنت عليَّ ذو فضل ومَنٍّ
إذا فكرت في نَدَمي عليها ... عضضت أناملي وقرعتُ سنِّي

ومن الشعراء مَنْ سخط على المرض، ونقم عليه... فهذا أبو القاسم الشابي وقد أصبح جل شعره مسطراً بالمرض؛ فقد ألَمَّ به الداء وراح ينخر في صدره، وصار شبحاً لا يفارقه، يستسلم له حيناً، ويغالبه حيناً آخر. وهذه قصيدة قالها قبل وفاته وهو في سن الخامسة والعشرين بقليل نراه فيها متمرداً ساخطاً على المرض، يقول:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
أدنو إلى الشمس المضيئة هازئاً بالسحب والأمطار والأنواء
لا ألمح الظل الكئيب ولا أرى ما في قرار الهوّة السوداء

فالمرض تسلل إلى ألفاظه ومعانيه: الداء والأعداء، والسحب والأمطار والأنواء، والظل الكئيب والهوة السوداء... كلها معان لاصقت نفسه ومشاعره، بقسوة، وهو يحاول التخلص منها فلا يستطيع وعندئذ يتحول إلى متمرد على قدره وبلائه، فيقول:

فاصدمْ فؤادي ما استطعتَ فإنه سيكون مثل الصخرة الصماءِ
لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا وضراعة الأطفال والضعفاء

ويحاول أبو القاسم أن ينعم بالصحة والسعادة، والحرية المطلقة، فيقوم بمحاولاته الكلامية كحلم اليقظان، ويصرح بحلم الخلاص حين يقول:

وأسير في دنيا المشاعر حالماً غَرِداً، وتلك طبيعة الشعراء
أشدو بموسيقى الحياة ووحيها وأُذيب روح الكون في إنشائي

ويتظاهر شاعرنا بالتمسك بالجَلَد عَلَّه يشرع في استجداد الأمل، ولكنه يبدو بحلمه ضعيفاً أمام الداء، إذ يقول:

أما إذا خمدت حياتي وانقضى عمري وأخرست المنية نائي
وخبا لهيب الكون في قلبي الذي قد عاش مثل الشعلة الحمراء
فأنا السعيد بأنني متحولٌ عن عالم الآثام والبغضاء

ولكن هل حقاً هي السعادة التي يرجوها أم أنها سعادة وهمية حاكها الداء، واصطفاها المرض؟!!(١)

وقد أصيب الشاعر عبد السلام حافظ بمرض في أحد صِمَامات القلب فأثر ذلك فيه أشدَّ تأثير، وطبع شعره بمسحة من الحزن. وظاهرة الحزن

---

(١) «شعرٌ سطَّره المرض»، موسى إسماعيل الفقي. مجلة الكويت، العدد ٣٦، أغسطس ١٩٨٥.

عنده لها عدة أسباب، فإضافة إلى مرض القلب فإنه قد عاش يتيم الأب، فقد توفي والده وهو لم يكمل عامه الأول. كما أنه عاش الوحدة في سنينه المبكرة، فتركت أثراً في حياته؛ يقول:

دعني وقلبي وأحلامي ووجداني　　أعيذك اليوم من أسباب أحزاني
منذ الطفولةِ والأشواك في طرقي　　تُدمي خطايَ وتأتيني بعدوان
حتى كبرتُ وزاد القلب مضطربي　　أواه من علة دهياء تلحاني

ولكن الشاعر يثور مرة أخرى ويقول:

أنا لستُ وحدي في الحياة أعذَّبُ　　كلُّ الوجود تألم وتغرُّبُ

وكأن الشاعر يتفق مع الجميع بأن من يرى مصائب الآخرين تهون مصيبته. وهو يحمل بذلك إيماناً قوياً، ونظرة بعيدة تتجاوز تلك النظرة السوداوية التي تغلف نفس الشاعر، متمثلةً في إصابته بمرض القلب في سِنٍّ مبكرة من عمره:

أوَّاه للقلب عانى بالقلاب صباً　　وجاءه الألم المجنون يخترمُ
أصاب صِمَامه ضيقٌ يغلغله　　ويرهب الجسم يا للنفس تنهدمُ

وقد كتب الأستاذ عبد السلام قصيدة يعاند فيها مرضه في ديوانه «راهب الفكر» قائلاً:

أنا لوعةٌ شوهاءُ يهواها النواح　　أنا ليل أحزانٍ تجاهله الصباح

* * *

أنا عالم ضلت بمركبه الحياة　　فغدا يصارع موجها العاتي الرهيب
قلبي المجرَّح لا يُجابُ على نداه　　والهمُّ يأكلُ فيه ألحانَ اللهيب
أحيا بآلامي الكئيبة في متاه　　شطُّ السلامة من جحيمي لا أراه
سأعيش رغم الليل والألم العميق　　بالرغم من دائي وما يفنى مداه

* * *

سأعيش بالحرمان أعتصرُ الرحيق　　من كرمة الأوهام والأمل الخصيب

ويرافق هذه العزيمة إدراكه التام أن الإنسان ليس له ملجأ إلا الله عز وجل في كل حالاته، ونجده يؤمن بذلك ولا يشكو إلا لله، وذلك في قصيدة بعنوان «إلى الله» حيث يقول فيها:

أشكو لك الدهر أم حظي وأوهامي ... أم لوعة الروح أم سقمي وآلامي
رباه هذي شكاة الكل يا أملي ... البؤس والزمن الداجي وأسقامي
إني بُليتُ بداء القلب يحرمني ... من متعة العيش والذكرى وأحلامي
حيران، والفكر في دوامةٍ قلقاً ... أشتاقُ للراحة الأخرى.. لأنغامي
عَـوَّدتنـا يـا إلهـي منـك مكـرمـةً ... تزهو بفضلك في بذلٍ وإعظامِ
أدعـوكَ يـا رب تفـريجـاً لكـربتنـا ... فجودك الخالد المحمود إلهامي
من منحك العادل المرجو لضائقتي ... فأنت كلُّ الرجا يا ريَّة الظامي(١)

* * *

ومن الشعراء الذين أقعدهم المرض لشهور عديدة: الشاعر البكري حسام الدين، فثارت عواطفه عندما رأى عصفوراً صغيراً يتنقل بين الأغصان.. فأخذ يخاطب ذلك العصفور ويقول:

وهنـــاك غــــرَّد فـــوق بـــاسقـــةٍ صغيـــر
يتخيـــــر الأفنـــــان وثبــــاً أو يطيــــر
ويتيـــه فـــي تحـــويمـــه شـــأن النســـور
طرْ يا صغير
ما يمنعنك أن تطير
لا الصقـر.. لا العقبـان.. لا حتـى النسـور
لا الـرعـد. لا الإعصـار. لا المطـر الغـزيـر
ما يمنعنـك أن تطير
ما أنت مثلي في قيودك يا صغير

---

(١) «ظاهرة الحزن في شعر عبد السلام حافظ»، عبد الله السحيمي، المنهل، العدد (٥١٧)، (ص٢٤ ـ ٢٨) بتصرف.

فـاهنـأ بعـشٍّ أنـت صـانعـه على مـر الـدهـور
لا يخـــدعنـــك مـــا تطـــاول مـــن قصـــور
هـــا أنـــت تبصـــر مـــا أعـــانـــي يـــا صغيـــر
يـــا ســـريـــري . . قـــد مللتـــك يـــا ســـريـــر[1]

شاعرة تصف مرض ابنتها التي ماتت وهي عروس :

كان للشاعرة الأديبة عائشة التيمورية[2] بنت اسمها «توحيدة»، جمع الله لها جمال الخَلْق وسمو الخُلُق، بلغت ثماني عشرة سنة وتزوجت، فما مرَّ على عرسها شهر حتى أصابها مرض مفاجىء فماتت.

وروَّعت عائشةَ الصدمةُ وشدهتها، ولم تستطع التصبّر، ونسيت كل شيء إلا ابنتها، قالت فيها قصائد تُبكي الصخر وتحرك الجماد. وأثَّر طول البكاء في عينيها، فلم تعُد تُبصر، ثم ألهمها الله الصبر بعد سبع سنين، وشُفي بصرها، ولكنها لم تنس ابنتها أبداً. ومن أروع ما قالت هذه القصيدة :

بدأت القصيدة تصف روعة الخطب ولوعة الحزن فقالت :

إن سال من غرب العيون بحورُ   فـالـدهـرُ بـاغٍ والـزمـانُ غـدورُ
فلكـل عيـنٍ حـقٌّ مِـدرارِ الـدِّمـا   ولكـلِّ قلـبٍ لـوعـةٌ وثبـورُ
ومضى الذي أهوى وجرَّعني الأسى   وغَـدَتْ بقلبـي جـذوةٌ وسعيـرُ

ثم أخذت تصف كيف بدأ بها المرض في رمضان سَحَراً على الرغم من صغر سنها، فلما أصبحوا جاؤوا بالطبيب فكتب لها الدواء وبشرها بالشفاء :

طافت بشهر الصوم كاساتُ الردى   سَحَـراً وأكـوابُ الـدمـوع تـدورُ

(١) «شعر سطره المرض»، موسى إسماعيل الفقي. مجلة الكويت، اغسطس ١٩٨٥ .
(٢) عائشة التيمورية : هي أخت العلامة المحقق أحمد تيمور وعمة رائد الأقصوصة العربية ابنه محمد تيمور وأخيه الكاتب الشهير محمود تيمور.

فتناولت منها ابنتي فتغيَّرتْ وجناتُ خدٍّ شانها التغييرُ
لبست ثياب السَّقم في صغرٍ وقد ذاقتْ شراب الموت وهو مريرُ
جاء الطبيب ضُحىً وبشَّر بالشّفا إن الطبيب بطبِّه مغرورُ
وصفَ التجرُّع وهو يزعمُ أنه بالبُرء من كل السقام بشير

واسمعوا كيف استبشرت الفتاة بدواء الطبيب، وسألته التعجيل بشفائها لأجل شبابها، بل من أجل والدتها التي حرَّمت على نفسها طيب المنام:

فتنفَّستْ للحزن قائلةً له عجِّلْ بِبُرئي حيث أنت خبيرُ
وارحمْ شبابي إن والدتي غدت ثكلى يُشير لها الجوى وتُشيرُ
وارأفْ بعينٍ حُرِمتْ طِيبَ الكرى تشكو السهادَ وفي الجفون فتورُ

واسمعوا الآن البنت وقد رأت عجز الطبيب فداخَلَ قلبها اليأس، وتصورت الموت، وانطلقت تودع أمها.. واسمعوا هذا المقطع الذي بَلَغت فيه الشاعرة الذروة:

لمَّا رأتْ يأس الطبيبِ وعجزهِ قالتْ ودمعُ المقلتين غزيرُ
أماه قد كَلَّ الطبيبُ وفاتني مما أؤمِّلُ في الحياة نصيرُ
لو جاء عرَّافُ اليمامة يبتغي بُرئي لردَّ الطَّرفَ وهو حسيرُ
يا روْعَ روحي حلَّها نزع الضّنى عما قليل وُرقُها ستطير
أماه قد عزَّ اللقاء وفي غدٍ سترين نعشي كالعروس يسير
وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي هو منزلي وله الجموع تصيرُ
قولي لربِّ اللحد رفقاً بابنتي جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلَّدي بإزاء لحدي بُرهةً فتراك روحٌ راعها المقدورُ

وتصوروا الأم وهي تعود إلى الدار فلا تلقى ابنتها، وترى جهاز العرس ما زال باقياً، ولكن العروس قد أُودعتْ حفرة باردة، وأهيل عليها التراب، ويرنُّ في أذنها صوت هذه العروس تقول لها:

صوني جهاز العرس تذكاراً فلي قد كان منه إلى الزفاف سرور

جَرَّتْ مصائب فرقتي لكِ بعد ذا ... لبسَ السَّواد ونُفِّذ المسطور
والقبر صار لغصن قدي روضةً ... ريحانُها عند المزار زُهور
أماه لا تنسَيْ بحق بُنوّتي ... قبري لئلا يحزن المقبورُ

وهاكم جواب الأم:

فأجبتها والدَّمع يحبسُ مَنطقي ... والدَّهرُ من بُعد الجوارِ يجورُ:
بنتاه يا كبدي ولوعة مهجتي ... قد زال صفوٌ شأنه التكديرُ
لا توصي ثكلى قد أذاب فؤادها ... حزنٌ عليكِ وحسرةٌ وزفيرُ
قسماً بغضِّ نواظري وتلهُّفي ... مُذ غاب إنسانٌ وفارق نور
وبقبلتي ثغراً تقضَّى نَحبُه ... فحرمت طيب شذاه وهو عطير
والله لا أسلو التِّلاوة والدُّعا ... ما غرَّدت فوق الغصونِ طيور
كلا ولا أنسى زفير توجعي ... والقدُّ منكِ لدى الثرى مدثورُ
إني ألفتُ الحزنَ حتى أنني ... لو غاب عني ساءني التأخير
قد كنتُ لا أرضى التباعدَ بُرهةً ... كيف التَّصبُّر والبعادُ دهور
أبكيكِ حتى نلتقي في جنةٍ ... برياض خلدٍ زيَّنَتْها الحور[١]

شاعر.. في مرض ابنه:

لا شك أن الشاعر يزداد ألماً ولَوْعة حين يمرض ابنه، ولا يستطيع شراء الدواء له. فهذا الشاعر «كامل أمين» وقد مرض ولده، ولم يستطعْ ـ وهو الموظف ـ شراء دواء له، فيسطر في مرض ابنه ملحمة طويلة من الشعر الوجداني الحزين ويصور حال ابنه وقد أنهكه المرض فيقول:

لا يستطيع إذا بكى إرسال أنفاس العويل
فارتاع من ولدي الطبيبُ وقال: أسرع للمصَحَّة
أمعاؤه تَلِفَتْ وأخشى أن تكون هناك قرحه
سيعالجون الطفل مجاناً فقلت له بفرحه

---

(١) عن «رجال من التاريخ» للعلامة الشيخ علي الطنطاوي بتصرف.

أترى به أملاً؟ فقال: أظن إن داويتَ جرحه
اذهب به ولسوف يمتعه العلاج غداً بصحه
أما وقد نصح الطبيب فإنّني قدَّرت نصحه
وفهمت من هذي النَّصيحةِ أنه يدري بحالي
فالطفل تنهشه المواجع والدواء اليوم غالي
ورأى أباه موظفاً أَعْرى من الدِّمَنِ البوالي

ويموت ابن الشاعر أخيراً، وتسكن آلامه، ويترك ذلك في قلب الأب جراحاً لا تندمل.

* * *

وكتب الشاعر السوداني الأستاذ زكي مكي إسماعيل ملحمة حزينة يودِّع فيها ابنته الصغيرة (إرهاف) التي فجَّر فقدها في أعماقه ينابيع الحزن والشعر، خاصة وأنها ماتت في ظروف مفجعة. ولقد نالت هذه القصيدة الجائزة الأولى في المسابقة التي نظمها تلفزيون الشرق الأوسط من بين ٣٥٠٠ قصيدة لشعراء من مختلف أنحاء العالم العربي. ونقتبس منها هنا بعض المقاطع

إرهاف ترقد في السرير
إرهاف ترقص للطبيب وبين ساحات المكان
أطفال عنبرها الصغار يصفقون
إرهاف ترقص للجميع
وطبيبها أيضاً يصفق في حنان
عجبي لهم
أشباح أطفال تموت ويرقصون
يحلمون
يا وحشتي
هي رقصة المذبوح من وجع الزمان

هي رقصة الطير المرفرف للنعيم
وللجنان

* * *

إرهـــاف تــرقــد بـــالســريــر عليلــة
«مــامــا» تشـــاهــدهـــا فتنهمــر الـــدمـــوع
إرهـــاف تمنـــع أمهـــا سيـــل الـــدمـــوع
«أمـــاه لا تبكـــي علـــيَّ.. ســأمـــوت إن
تبكـــي علـــيَّ» غـــداً ستنطفـــىء الشمـــوع
إرهـــاف أكبـــر مـــن مـــدارك طفلـــة
فـــاقـــت حصـــافتهـــا الجمـــوع
والأم تمســـح دمعهـــا وتقـــول:
«هيـــا اضحكـــي حتـــى أكفكـــف ذي الـــدمـــوع»
عجبي لها!!
إرهـــاف رغـــم قســـاوة الـــوجـــع المـــؤجـــج
في الضلوع
إرهـــاف تختـــزن الـــدمـــوع وتبتســـم!
إرهاف تختزن الدموع!
إرهـــاف لـــم تفـــرح صبـــاح العيـــد مثـــل
الآخرين!
حـــزنـــاً عليـــكِ صغيـــرتـــي لـــو تعلميـــن!
إرهـاف لـم نـذبـح صبـاح العيـد مثـل الآخـريـن
هـــي سُنَّـــة لله نـــذبحهـــا علـــى مـــر السنيـــن
واليـــوم نتـــركهـــا فـــداك حبيبتـــي
لا حلـــم لا حلـــوى ولا فستـــان
أبتـــاه يـــا إرهـــاف يعجـــز عـــن شـــراء
البنسلين!

أين الدراهم تفتديك حبيبتي
لتوفر الترياق للداء المكين؟

* * *

إرهاف جاء البنسلين
إرهاف نأمل في الشَّفاء
والكلُّ يرفع.. بالأكفِّ إلى السَّماء
إرهاف ترتشف الدَّواء
لكنه مسخ يؤرقها وداء
غشُّوا الدواء.. غلَّفوا الأوهام
بالكرتون باعوها دواء

* * *

عجبي لهم «مافيا» تتاجر في
حياة العالمين
وتدَّعي صنع الدواء
قتلوكِ يا إرهاف أعداء الدواء
إرهاف تصرخ تستغيث
إرهاف تجهش بالبكاء
وتُمزقُ الأكبادَ من هولِ النِّداء
فالله كان المستجيب حبيبتي
واختار قربك دوننا
طوبى لروحك في السماء

* * *

إرهاف عفواً عن غيابي عن مقامك
ليلة الحدث الحزين
ما كنتُ قربكِ يا فتاتي لحظة الألم
اللعين

الوحش يعصر جسمك المنهوك
وأنت ترددين
«أماه.. بابا.. أماه ليتك تسمعين»
والأم قربك تستحيل إلى شبح
قد أذهب الحدثُ العظيم ثباتها
لله من فقد السنين
أماه تؤمن باليقين.. أماه يا
إرهاف تؤمن باليقين
وأنا كسارية الجبل.. الصوت
أسمعه فيعصرني الألم
لكنني مكتوف يا إرهاف من حبل
متين
والصوت ملء مسامعي
وأجيب عفواً إنني ما غبت عنك
تعمداً..
لكنه قدري أعذَّب من ورائك كل
حين

* * *

إرهاف لم أبخل بشيء
فلتمضِ أشيائي الثمينة للدواء
إرهاف تثقلني الديون قرضتها..
أملي أعجِّل للأميرة بالشفاء
أماه (صيغتها) فِداكِ حبيبتي.. يا
خير من يفدى ويجزل بالعطاء
إرهاف نطمع أن نراك طليقة
ندعو ونرفع بالأكفِّ إلى السماء

والحمد لله العظيم بما قضى
ونرضى بالقضاء
والقلـــب يحـــزن درتـــي.. يهتـــز بـــالألـــم
الدفين
والقـــول مـــا يـــرضـــي الإلـــه.. والله
يجزي الصابرين

* * *

بين الطبيب ومريضه

مهنة الطب من أشرف المهن، بيد أن ذلك رهين بشرطين، أولهما أن تمارس بكل إتقان وإخلاص «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» [رواه البيهقي]. وثانيهما أن يراعي الطبيب في سلوكه وتصرفاته الخُلقُ الكريم.

يقول أخي وصديقي الأستاذ الدكتور زهير السباعي «كثيراً ما يقف الطبيب إلى جانب الإنسان في لحظتين من أدق لحظات حياته وأحرجها عند ولادته وهو يستقبل الدنيا، وعند وفاته ساعة انطلاق الروح مغادرةً الجسد، لحظات فاصلة في حياة الإنسان تصل الطبيب بأدقِّ معاني الحياة والموت.

وحين الضَّرورة قد يكشف الطبيب عورة المرأة.

وقد يطلع على أسرارٍ ما يود صاحبها أن يكشفها لأحد، بيد أنه يكشفها لطبيبه لحظة اشتداد المرض الجسدي أو النفسي.

والطبيب عادةً موضع ثُقةِ المريض وأهله وذويه والمجتمع، يملك ـ إذا أراد ـ أن ينشر المعرفة والعلم، ليس في أمور الصحة فحسبْ، ولكن في غيرها من شؤون الحياة، وهو في موضع يستطيع فيه أن يساعد الناس على أن يساعدوا أنفسهم.. ألا يكفي هذا شرفاً لمهنة الطب والمنتسبين إليها»[1].

---

(١) «الطبيب أدبه وفقهه» للأستاذ الدكتور زهير السباعي والأستاذ الدكتور محمد علي البار. ص٣٩.

ولاشك أن الطبيب يُستَدعىٰ فـي أحلـك الأوقـات وأقساهـا، يقول أبو العتاهية:

اليــومَ حــاجتنــا إليــكَ وإنَّمــا يُدعى الطبيبُ لساعةِ الأوْصابِ

أدب الطبيب:

كتب الرُّهاوي في كتابه «أدب الطبيب» عدداً من الوصايا نصح بها مرضاه، ومما جاء في هذا الكتاب:

(أن على المريض أن يأخذ بالتدابير الطبية التي ينصحه بها طبيبه المعالج من دواء وغذاء، وسوى ذلك، وأن يمتنع عما ينهاه عنه.

وأن على الإنسان العاقل سواء أكان في حالات المرض أم في حالة الصحة أن يقدِّر الأطباء ويُجلَّهم ويوقّرَهم.

وأن يتجنَّب المريض الكتمان عن طبيبه، يقول المتنبي:

لا تكتمــــــنَّ داءكَ الطبيــــــبَ ولا الصـديـقَ سِـرَّكَ المحجـوبـا

ولا بأس في أن يستوثق من مدى علمه إن أحبَّ، وعليه أن يبرَّه ويحسنَ إليه ـ متى تيقَّن أنه من أهل العلم على الحقيقة ـ في أيام مرضه حتى آخر العمر، فإن الطبيب بذلك ـ كما يقول الرُّهاوي في كتابه ـ «تصفو نفسه، وتصحُّ أفكاره، ويتوفّرُ على درس علم الطب، ويواظب على خدمتك بصحتك ومرضك»)[١].

يقول أبو العلاء المعري في تكريم الأطباء والمعلِّمين:

أكـرمْ طبيبـكَ إن أردتَ عِـلاجـهُ واعـطِ المعلِّـم إن أردت تعلُّمـا

إن المعلــم والطبيــب كليهمــا لا ينصحـان إذا همـا لـم يُكـرَمـا

فاصبر لدائك إن جفوتَ طبيبه واصبر لجهلك إن جفوتَ معلِّما

ويذكر عبد الملك بن زهر في كتابه «التيسير في المداواة والتدبير» خبر

---

(١) أدب الطبيب للرهاوي.

مريض ـ سمَّاه «علي بن بدونيا» ـ لم يكن يطيع الأطباء في التحفظ من الأغذية، وكانت سنُّه شباباً متناهياً، وكان أكله وتخليطه عظيماً، وقد أصابه ضعف في جسمه، واضمحلالٌ في لحمه، وكان يأكل مع ذلك أكله المعتاد، حتى سقط في المرض»(١).

نصائح الطبيب:

ومن الناس من لا يستمع لنصائح الطبيب فينغمس في شهواته من طعام وشراب؛ وإذا السقام يقف له بالمرصاد. يقول الشاعر خلف بن فرج الشهير بالسُّمَيْر ـ وهو من شعراء الأندلس ـ:

يا آكلاً كُلَّ ما اشتهاه ... وشاتِمَ الطِبِّ والطبيبِ
ثِمارَ ما قد غَرَسْتَ تجني ... فانتظرِ السُّقم مِنْ قريبِ

وقال حاتم الطائي في شهوة الفم والفرج:

فإنك إن أعطيْتَ بَطنَك سُؤلَهُ ... وفرجَكَ نالا مُنتهى الذمِّ أجْمَعاً

وقال ابن الرومي:

فإن الداء أكثرُ ما تراهُ ... من الأشياء تحلو في الحُلوقِ

ويسخر المتنبي من الطبيب الذي يرجع مرضه للشراب والطعام، ولا يدري أن تحديد الإقامة الذي فرض عليه هو الذي أضرَّ بجسمه وأوهنه:

يقول لي الطَّبيب أكلتَ شيئاً ... وداؤكَ في شرابك والطَّعام
وما في طبه أنِّي جوادٌ ... أضرَّ بجسمه طول الجمام

المرض في لذيذ الطعام!

قال الشريف الرضي:

فواعجباً للمرء والداء خلفهُ ... ومن حوله الأقدارُ والموتُ أمّهُ
يُسَرُّ بماضي يومه وهو حتفهُ ... ويلتذُّ ما يُغْذىٰ به وهو سُمُّهُ

---

(١) «كتاب التيسير في المداواة والتدبير» تحقيق الدكتور ميشيل الخوري. دار الفكر ـ دمشق.

وقال صفي الدين الحليّ:

لا تأمننَّ إلى الخريف وإن غدا عـذبَ الهـواء يَلَـذُّ لـلأجسـامِ
واحـذر تـوصُّلَـهُ إليـك بِلـذَّةٍ فـالـدَّاء يحـدُثُ مـن ألـذِّ طعـامِ

والحقيقة أن ألذَّ الطعام من لحوم وحلويات ومقبلات، غنية بالدهون والكولسترول؛ فالإفراط فيها يزيد من كولسترول الدم، وقد يؤدي إلى تصلُّب الشرايين، وتضيُّق شرايين القلب التاجية.

وصايا طبيـة:

قال أبو الفتح البستي:

كُـلْ قليـلاً تعِـشْ طـويـلاً وتسْلـمْ مـن عـوادي الأسقـامِ والأدواءِ

وقال الشبلي البغدادي يصف أسباب المرض:

صحـةُ المـرء للسقـام طـريـقُ وطـريـقُ الفنـاء هـذا البقـاءُ
بـالـذي نغتـذي نمـوتُ ونحيـا أَقْتَـلُ الـدّاء للنفـوس الـدواءُ

وقال أحدهم:

وأُعْـرِضُ عـن مطـاعـمَ قـد أراهـا وأتـركهـا وفـي بطنـي انطِـواءُ

وقال ابن الرومي يصف أسباب المرض:

فـإنَّ الـدّاءَ أكثـرَ مـا تـراهُ يكـونُ مـن الطّعـامِ أو الشّـرابِ

وهذا عين الحقيقة، فإن أكثر الأمراض انتشاراً الآن سببها الطعام والشراب، فكثرة الطّعام والشّراب سببٌ للبدانة، والبدانةُ سببٌ لكثيرٍ من الأمراض كارتفاع ضغط الدم، والسكري وغيرها. كما أن كثيراً من التهابات المعدة والأمعاء التي تحدث يومياً عند ملايين الناس في العالم - سببه عادة تلوثٌ في الطّعام أو الشّراب.

وقال صفي الدين الحليّ مبيناً الأسس الصحيحة للطعام والشراب:

لا يحفـظ الصحـةَ أكـلُ الفتـى طعـامَـهُ بين شرابيـنِ
وإنمـا الحكمـةُ فـي شُـرْبـهِ شـرابَـهُ بيـن طعـاميـنِ

وقال الإمام علي بن أبي طالب :

توقَّى مدى الأيام إدخالَ مطعمٍ على مطعمٍ من قبلِ هضمِ المطاعمِ
وكلُّ طعامٍ يعجز السِّنُّ مضغَهُ فلا تقربنَّه فهو شرٌّ لطاعمِ

وقال أحدهم ينصح بالتوقي من برد الخريف :

خذ بالتدثر في الخريف فإنَّهُ مستوبَلٌ، ونسيمهُ خطَّافُ
يجري مع الأيام جَرْيَ نِفاقها لصديقها، ومِنَ الصَّديقِ يُخاف

ويضع ابن سينا وصية طبية موجزة يقول فيها :

اسمع بُنيَّ وصيتي واعمل بها فالطِّب معقودٌ بنصٍّ كلامي
لا تشربنَّ عقيب أكلٍ عاجلاً فتقود نفسك للأذى بزمامِ
واجعل غذاءك كل يومٍ مرَّة واحذر طعاماً قبلْ هضم طعامَ
واحفظ منيّك لا تُرقه فإنه ماء الحياة يُصَب في الأرحامَ

ولكن البعض يرفض الامتثال لأوامر الطبيب ونصائحه بالامتناع عن بعض أنواع الطعام؛ يقول أبو طالب المأموني وقد أصابه الاستسقاء :

فاحجبوا عنّي الطبيبَ وقولوا أنا بالطبِّ والطبيبِ كفورُ
هاتِ أين الكبابُ؟ أين القلايا أين رخْصُ[1] الشواء أين القديرُ[2]
أنا لا أتركُ التديخ[3] ولا البـ ـطيخَ والتين أو يكون النُّشورُ

وللأسف فقد مات هذا الشاعر قبل أن يبلغ الأربعين من العمر كما يذكر الزركلي في الأعلام[4].

مصارحـة الطبيب :

وسواء كان المريض مصاباً بمرض في جسده، أو بهموم في نفسه، فلابدَّ أن يشرح ذلك للطبيب :

---

(١) الرخص : اللين الناعم.
(٢) القدير : المطبوخ بالقدر.
(٣) التديخ : نوع من الطعام.
(٤) الأعلام (٤/ ٥).

يقول أبو تمام:

إن قلبي لكم لكالكبدِ الحَرَّ ىٰ وقلبي لغيركُمُ كالقلوبِ
لستُ أُدلِي بحُرْمةٍ مستزيداً في ودادٍ منكُمْ ولا في نصيبِ
غير أن العليلَ ليس بمذمو مٍ على شرْحِ ما به للطبيبِ

ولعلَّ البعض يفضل أن يبث شكواه إلى من أوقد النار في كبده. يقول الشاعر:

يا موقد النار إلهاباً على كبدي إليك أشكو الذي بي لا إلى أَحَدِ

فهو الذي كان سبب الداء وهو المُرجى للشفاء.

اتكال الطبيب على الله:

يقول التاج السبكي وهو يلخص آداب الطبيب:

«ويجب على الطبيب أن يعتقد أن طبّه لا يردُّ قضاء ولا قدراً، وأنه إنما يفعل امتثالاً لأمر الشرع، وأن الله تعالى أنزل الداء والدواء».

ويؤكد أبو بكر الرازي هذه النقطة فيقول:

«وليتَّكل الطبيب في علاجه على الله تعالى ويتوقّع البرء منه، ولا يحسب قوته وعمله، ويعتمد في كل أموره عليه، فإن عمل بضدِّ ذلك ونظر إلى نفسه وقوّته في الصناعة وحذقه حرمه الله من البرء».

والطبيب اللّبيب يسعى جاهداً لشفاء مريضه. يقول ابن الرومي:

والطبيبُ اللّبيبُ من يُتْبعِ الدَّا ءَ دواءً يشفيه لا الداءَ داءَ

الطبيب وعلم الغيب:

على الطبيب أن يدرك أنه مهما بلغ علمه، فإن أسرار الجسم البشري لا يزال أكثرها مغلقاً، وما زال الطب عاجزاً عن إدراكِ العديد من تلك الأسرار، ويعبِّر عن ذلك عنترة العبسي بقوله:

يقول لك الطبيبُ دواك عندي إذا ما جسَّ كفَّك والذراعا
ولو عرف الطبيبُ دواءَ داءٍ يردُّ الموتَ ما قاسى النزاعا

ولا يستطيع الطبيب، مهما أوتي من علم وخبرة، أن يدفع أمر الله إذا حلَّ بالمريض. وكثير منا يعرف حالاتٍ مات فيها الطبيب قبل مريضه بل ربما مات بنفس المرض الذي كان يعالج مريضه منه.

وفي ذلك يقول الشاعر:

إن الطبيب بطِّبهِ ودوائه لا يستطيع دفاع أمرٍ قد أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرىء منهُ فيما قد مضى
مات المداوي والمُداوىٰ والذي جلبَ الدواء وباعه ومن اشترى

أعرف طبيباً كتب في ملفِّ مريضه أن مرضه خطير وأنه ربما لا يعيش أكثر من أشهر معدودات. ولم تكد تمضي تلك الأشهر المعدودات حتى مات الطبيب بسرطان انتشر في جسمه، ومرَّت سنوات وذاك المريض بخير وعافية. تأمَّلت فيما كتب ذلك الطبيب وقلت: يا سبحان الله!! وتذكرت قول الشاعر:

وكم من مريض نعاهُ الطبيبُ إلى نَفسه وتولَّى كئيباً
فماتَ الطبيبُ وعاشَ المريض فأضحى إلى الناس ينعي الطبيبا

وتذكرت قول علي بن الجهم:

كم من عليلٍ قد تخطَّاه الردى فنجا وماتَ طبيبه والعُوَّدُ

والأعمار كلها بيد الله، ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾. ولا تعرف من يسبق إلى الموت: الطبيب أم المريض!!.

ويقول الخليل بن أحمد الفراهيدي:

وقبلك داوى الطبيبُ المريضَ فعاش المريضُ ومات الطبيبُ
وكن مستعداً لدار الفناء فإنَّ الذي هو آتٍ قريبُ

فإذا ما سمع مريض من طبيبه أن حياته غدت قصيرة، وأن أيامه أصبحت معدودات، فلا ييأسنَّ ولا يقنط من رحمةِ الله. فما اطّلعَ الطبيبُ على غَيبٍ، ولا عَلِمَ أن أحداً يموت غداً، إنما هو تخمينُ الطبيبِ حسبَ المعطيات العلمية المتوفرة لديه.

قال الشاعر:

كم مريضٍ قد عاشَ من بعد يأسٍ   بعد موتِ الطَّبيبِ والعُوَّادِ
قد يُصادُ القَطَا فينجو سليماً   ويَحلُّ القضاءُ بالصيَّادِ

الشفاء بيد الله:

ويذكر ابن نباته السعدي أن تناول الدواء لا يمنع قضاء الله، فالشفاء بيد الله وحده:

نُعللُ بالدواء إذا مَرِضنا   وهل يشفي من الموتِ الدواءُ؟
ونختارُ الطبيبَ وهل طبيبٌ   يُؤخِّرُ ما يقدمه القضاءُ
وما أنفاسنا إلا حسابٌ   ولا حركاتُنا إلا فناءُ

ويقول ابن مقلة:

يمنيني الطبيبُ شِفاءَ عيني   وهل غيرُ الإلهِ لها طبيب

وقد أعجبني مَثَلٌ بلجيكي يقول: «الله يشفي والطبيبُ يُؤجَر».

يقول الفرزدق وهو يشير إلى أن الشفاء بيد الله وحده.

يا طالبَ الطبِّ من داءٍ تخوّفه[1]   إن الطبيبَ الذي أبلاكَ[2] بالداءِ
فهو الطبيب الذي يُرْجَى لعافيةٍ   لا من يُذيب لك الترياقَ بالماءِ

ويلجأ الإنسان في ساعات اليأس والشدائد إلى الله وحده. يقول الربيع ابن خيثم:

---

(١) تخوفه: تخاف منه وتخشاه.
(٢) أبلاك: أصابك بالبلاء أو المرض.

فأصبحتُ لا أدعو طبيباً لطبِّهِ ولكنني أدعوكَ يا مُنزلَ القَطْرِ

ولا بدَّ هنا من الإشارة إلى أن على الطبيب أن يمنحْ المريض إحساساً بالأمل والرجاء، وأن يبعث في نفسه الطمأنينة فإن ذلك يساعده على سرعةِ البرء من مرضه، فالطّمأنينةُ والسَّكِينة تشدُّ من عزيمة المريض، وترفع معنوياته، وتقوّي جهازَ المناعة في جسمه.

والأطباء كما يقول أخي وصديقي الدكتور زهير السباعي يختلفون في تعاملهم مع المريض بمرضٍ ميؤوسٍ من شفائهِ..

فهناك من يُطمئن المريضَ، ويفتحُ له طاقاتِ الأمل ويرجّيه بالشّفاء، وقد يكذب عليه أحياناً.

وهناك من يواجه مريضه بالحقيقة سافرة، ويترك المريض يتفاعل مع الحدث، على أمل أن يتغلب على المشكلة ويواجهها.

وهناك من يداري ويواري ويتملص من الموقف.

يقول أبو العلاء، وهو يسأل أحد الأطباء أن يتريث فلا يخبر المريض بقرب موته، عسى الله أن يشفيه ويعافيه:

نعى[١] الطبيب إلى مضنىً[٢] حُشاشتَهُ[٣] مهلاً طبيبُ فإن الله شافيه

الإيمـان.. والعلاج:

تذكر كتب التاريخ قصةَ عملية جراحية مثيرة تمت قبل ألفٍ وثلاثمئة سنة. فقد أصيب عروة بن الزبير ـ وكان من أجلِّ علماء المسلمين ـ بمرض في رجله، وكان وقتها ضيف الخليفة الوليد بن عبد الملك. فجمع الخليفة له الأطباء، وفحصوه، وخرجوا جميعاً بنتيجة مفادها أنّه لابدَّ من قطع رجْلِه.

---

(١) نعى فلاناً: أعلن خبر موته.
(٢) مضنىً: المريض أهزله المرض الشديد.
(٣) حشاشته: بقية الروح في المريض.

عرضوا عليه الخمر ليسكروه، فلا يحس بألم القطع فأبى، وقال: لا أستعين على قَدَر الله بمعصية الله. فأرادوه أن يشرب المُرَقِّد (البِنْج) فقال: لا. فإني ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي، وأنا لا أجد ألم ذلك لأحتسبه عند الله.

وسمع الأطباء عجباً، فكيف يحتمل هذا الشيخ قطع رِجْلِه، وهو صاحٍ واعٍ؟ ولم يدروا أن عنده ما هو أشد أثراً من المسكر ومن المرقد، لديه شيء يستطيع أن يغيب به عن الدنيا كلها، وينساها ولا يعود إلى التفكير فيها.. وعرضه عليهم فدهشوا.

قال: إني سأدخل في ذكر الله، فإذا رأيتموني استغرقت فيه فشأنكم بها.. وذَكَرَ الله، لا كما نذكره نحن، حين نذكر بألسنتنا، وقلوبنا في غفلةٍ عن الذكر، ولكن ذِكْرَ اللسان والقلب والجوارح.

فلما رأوه استغرق، بدأت العملية، قطعوا اللحم بالسِّكين المحمى بالنار (للتعقيم) حتى إذا بلغوا العظم نشروه بالمنشار، وهو يهلل ويكبر، وقد جلَّله العرق، ثم عمدوا إلى طريقة التعقيم، التي كانوا لا يعرفون غيرها، فحموا الزيت في مغارف الحديد، حتى إذا غلى كووه بها فأغمي عليه.

ولما أفاق الشيخ من غشيته، رأى القدم في أيديهم، فأخذها يقلبها.. قدمه التي كانت بضعة منه، فصارت قطعة من لحم وعظم.. وأدركه الضعف البشري، فقال: أما والذي حملني عليك، إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط[1].

الأطبـــاء والإيمان:

يقول الطبيب الشاعر عزت شندي موسى في ديوانه «مع الله ورسوله»:

إن آمـن العلمـاء كـان طبيبهـم هــو أســرع العلمــاء لــلإيمــان

---

(١) رجال من التاريخ، لفضيلة الشيخ علي الطنطاوي، ص ٦٥.

فلقد رأى الإعجاز في الخلق الذي   قد صوَّر الخلَّاق في الحيوان
فالكبد يقظى حين أنك نائمٌ   وتبيتُ في عملٍ مع المصران
والدم يجري في العروق مُسيَّراً   والقلبُ لا ينفكُّ في الخفقان
والعين تبصر في نظامٍ معجزٍ   والمخ يعقل ما ترى العينان
والأُذن تسمع في اتساقٍ مذهلٍ   والعقل يفهم ما تَعِي الأذنان
وإذا مشيتَ فدون وعي قد سعتْ   قدماك.. كيف سعت بك القدمان؟
قادتهما الأعصاب دون تنبُّهٍ   أمرُ الإله القاهر اليقظان
هذا هو الإعجاز وهو جميعه   قد أنزل العلَّام في القرآن
هل لا يحيط بخلْقهِ من قد برا   وهو الخبيرُ وصانعُ الأبدان
فلتؤمنوا بالله ملء قلوبكم   هل بعد هذا الكشف من برهان؟[1]

* * *

ويَعْجَب أبو العلاء المعري من إلحاد بعض الأطباء فيقول:

عجبي للطبيب يُلْحدُ في الخا   لقِ من بعد درسهِ التشريحا

غلط الطبيب:

يرى بعض الفقهاء أن لا يحاسب الطبيب على الخطأ إلا أن يكون فاحشاً لا يجوز أن يقع من الطبيب أبداً. والمهم أن يثبت الخطأ باليقين لا بالظن. والأفضل استشارة ذوي الخبرة.

قال ابن الرومي:

غلِطَ الطبيبُ عليَّ غلطة مَوْردٍ[2]   عَجَزَتْ مواردُهُ عن الإصدارِ[3]
والناس يلْحَوْنَ[4] الطبيب، وإنما   غَلَطُ الطبيبِ إصابةُ الأقدارِ

وقال أحد الشعراء في نفس المعنى:

---

(١) ديوان «مع الله ورسوله» ص١٢٩-١٣٠. الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ١٩٨٧.
(٢) المورد: المنهل والطريق.
(٣) الإصدار عن الشي: الرجوع عنه.
(٤) لا حاه: نازعه وخاصمه.

وإذا القضـاء جـرى بـأمـرٍ نـافـذٍ غلَـطَ الطبيـبُ وأخطـأ التـدبيـرُ

وقال صردر يوصي بأن لا يلام الطبيب إذا ما أدى واجبه، فالموت داء لا دواء له:

نلـومُ الطبيـبَ ومـا جُـرْمُـهُ وداءُ المنيـةِ داءٌ عقـام[1]

وحدوث الاختلاطات الجراحية أمرٌ معروفٌ في فن الجراحة. وهناك نسب محددة لكل اختلاط من الاختلاطات؛ كالتهاب الجرح، وعدم التحام الكسر، وحدوث النزف بعد العملية وغير ذلك. ولكن البحتري يرى أن خياطة الجرح دون تنظيف أو تعقيم تفريط من الطبيب:

إذا مـا الجُـرحُ رُمَّ[2] علـى فسـادٍ تبيَّـنَ فيـه تفـريـطُ الطبيـبِ

* * *

ذُكر أن الأحنف بن قيس وُلِدَ «مُرتتقَ حتار الاسْت» أي مختوم الشرج وذكر الجاحظ في كتابه «البرصان والعرجان والعميان والحولان» بأن الرتْق قد «فُتق وعولج».. إذ بدونها لما عاش الأحنف.. ولما صار مشهوراً. وهذا يعني أنه لو لم يُعالَج جراحياً وطبِّياً معاً لما عاش عيشة طبيعية حافلة بالأمجاد.

ويدرك جميع الأطباء (وبالأخص الجراحين منهم) أهمية فتحة الشرج، لا بالنسبة لوظيفتها فحسب، وإنما بالنسبة لتركيباتها التشريحية الهامة.

ولولا وجود الجراحين لحظة ولادة الأحنف بن قيس لما كان هناك علاج ولا شفاء ولا حياة لذاك الرجل.

ومن هذه القصة يتأكد وجود عمليات جراحية دقيقة في تلك الأيام، ووجود أيدٍ ماهرة من الجراحين.

ويتساءل الدكتور يوسف عبد الله الحميدان: «تُرى.. لو أن عملية

---

(١) داء عقام: داء لاشفاء منه.

(٢) رمَّ الشيء: أصلحه وقد فسد بعضه.

الفتْق والرتْق للأحنف بن قيس قد حصل لها أي خلل أو اعتداء من الجرَّاح. . هل كان الجاحظ سيسكت عليها دون إشارة؟ أبداً. . بل على العكس من ذلك.

وهذا ـ بحد ذاته ـ دليل واضح على دقة العمليات الجراحية في أيامهم، وعلى حذق الجراحين الذين كانوا دقيقين في مهنتهم من البداية إلى النهاية[1].

وكثيراً ما أدى غلط العلماء وسوء تصرفهم في حضرة الملوك إلى هلاكهم. فقد دخل دانيال المتطبب يوماً إلى مُعِزّ الدولة، فقال له: يا دانيال. فقال: لبيك أيها الأمير. قال: أليس عندكم أن السفرجل إذا أُكل قبل الطعام أمسك الطبع، وإذا أُكل بعد الطعام أسهلَ؟ قال: بلى.

قال: فأنا أكلته بعد الطعام وعصمني. قال دانيال: ليس هذا الطبع للناس، فلكمه مُعِزّ الدولة بيده في صدره وقال له: قم تعلَّم أدب خدمة الملوك وتعال. فخرج من بين يديه ونفثَ الدم[2]، ولم يزل كذلك مدة حتى مات[3].

تـأنَّ ولا تعجـل بلومك الطبيب!

كتب الدكتور محمد العتيق مقالاً في مجلَّة «الأسرة» بعنوان (عبر السمَّاعة) يروي فيه كلمات يسمعها كثيراً عندما يدور الحديث عن الأطباء وعن تجارب بعض الناس معهم، ومثال ذلك قول أحدهم «لقد ذهبت فزعاً بابني إلى الطبيب وكان يتقيأ منذ البارحة، وقد ارتفعت درجة حرارته وكان في حالة يُرثى لها، ثم لما قابلت الطبيب وشرحت له الأمر قال:

---

(١) الأمراض العضوية للدكتور يوسف عبد الله الحميدان، المجلة الطبية السعودية، العدد ٧١. بتصرف.

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٣٢٠.

(٣) نفث الدم: أي بصقَ دماً.

سأراه بعد ما أنتهي من عملي. إن الأطباء قساةُ قلوبٍ لا يقدِّرون مشاعر النَّاس».

ويعلِّق على ذلك الدكتور العتيق ـ ولا أعتقد أنه طبيب يدافع عن الأطباء ـ فيقول:

«إنك عزيزي المراجع لست المريض الوحيد الذي يعالجه الطبيب، وبالتالي فهو مسؤول عنك وعن غيرك، وأنت أولى منهم فقط إن كانت حالتك إسعافية.

إنك أخي المريض تطالب الطبيب أن يتفاعل عاطفياً معك كما لو كان هو المريض أو مرافقه، وهذا متعذَّر، بل ومانع له من إتقان عمله.

إن مرضك قد يحدث مرةً في سنواتٍ، أما الطبيب فهو يرى يومياً عشرات المرضى، فهل سيجمع عواطف أولئك كلهم ويتفاعل معهم بنفس القدر؟

وكثير من الأعراض تبدو مفزعة ويظهر لمن يراها أن المريض على شفا الهلاك، غير أنها لاتشغل الطبيب عن جوهر المرض والبحث عنه.

وكل ذلك لا يعذر الطبيب في جمود عاطفته، بل عليه مشاركة المصابين، فذلك خُلُقٌ إسلاميٌّ قبل أن يكون واجباً طبياً.

وكثيراً ما نعتب على الأطباء إذا لم يُلبُّوا رغباتنا في إجراء فحص معيّن أو صرف دواء، أو الإحالة إلى قسم معين. ولاشك أن تلك أمور هي من مهمة الطبيب، وهو أَعْرَف بما يناسب المرضىٰ حقاً، وهو متى ما علم حاجة المريض إلى الإحالة فلن يتوانى عن ذلك؛ إذ أن ذلك واجبٌ شرعيٌّ يسأله عنه الله عز وجل»[1].

مـدح الأطباء:

قال الأبشيهي يمدح طبيب الإنسانية جمعاء رسول الله ﷺ:

---

(١) مجلة الأسرة، رمضان ١٤١٥هـ ـ فبراير ١٩٩٥م، ص٦٤.

وشفيتَ ذا العاهات من أمراضِهِ ... وملأتَ كُلَّ الأرض من جدواكا[١]
ورددتَ عينَ قتادة[٢] بعد العَمَى ... وابن الحصين[٣] شفيته بشفاكا
وكذا حبيب[٤] وابن عفرا[٥] عندما ... جُرحا شفيتهما بلمس يداكا
وعليٌّ[٦] من رمدٍ به دوايتَهُ ... في خيبر فشُفي بطيب لماكا

ويشكر الناس الطبيب عادة عندما يُمنُّ الله عليهم بالشفاء، فهذا حافظ إبراهيم يثني على الدكتور علي باشا إبراهيم فيقول:

هل رأيتم موفَّقاً (كعليٍّ) ... في الأطباء يستحقُّ الثناءَ
أودعَ الله صدرَهُ حكمة العلـ ... ـم وأجرى على يديه الشفاءَ
فأرانا (لُقمانَ) في مِصرَ حيَّاً ... وحبانا لكل داءٍ دواءَ
حفظ الله مبضعاً في يديه ... قد أمات الأسى وأحيا الرجاءَ

ويمدح حافظ إبراهيم أيضاً طبيبةً اسمها «لونا» وُلدتْ على يدها طفلة لصديقه محمد بك بدر:

«للُونا» شهرةٌ في الطب تاهتْ ... بها مِصرُ وتاهَ بها مديحي
ومن عجبٍ تدين بدين «موسى» ... وتأتينا بمعجزة (المسيح)[٧]

وقال العقاد يمدح طبيب العيون الدكتور نصر فريد:

قل لآسي العيون نصر فريد ... قد عرفناكَ هاديَ الهاديينِ[٨]
رُبَّ عينٍ هديتَها لضياءٍ ... وضياءٌ تهديه طوعاً لعينِ

وفي قصيدة للشاعر أحمد رامي يمدح فيها الطبيب الحكيم محمد الظواهري أستاذ الأمراض الجلدية في جامعة القاهرة، يقول:

أنِستُ إلى ظل الطبيب الظواهري ... فبدَّد أوهامي وطيَّب خاطري
وساءلني ماذا لقيت من الضنى ... وماذا دهاني من صروف المقادرِ

---

(١) الجدوى: المطر العام أو العطية.
(٢) و(٣) و(٤) و(٥) و(٦) أسماء صحابة رسول الله ﷺ الذين شفوا بيديه الكريمتين.
(٧) يقصد المسيح عيسى عليه السلام.
(٨) الهاديين: يقصد العينين.

فأعربتُ عن دائي وعما أصابني ... من الوهم في ليلٍ بغير مُسامرِ
فما زال يصغي لي وفي نظراته ... بريقُ الأماني في ظلام الدياجرِ
ألا أيها الموهوب من قبس السنا ... ذكاء كلمح النجم في عين ساهر
رُزقتَ من الرأي السديد فطانةً ... تدب إلى الداء الدفين المخامرِ

وقال السري الرفاء في طبيب يذكر براعته:

بـرَّز إبـراهيـم فـي علمـه ... فـراح يُـدعـى وارث العلـمِ
كـأنـه مـن لطـف أفكـاره ... يجـول بيـن الـدم واللحـمِ
لـو غضبـتْ روحٌ علـى نفسهـا ... أصلـح بيـن الـروح والجسـمِ

هجـاء الأطباء:

كان ببغداد طبيبٌ اسمه نعمان لا يشفى مريضٌ على يديه، فقال فيه بعض الشعراء:

أقـول لنعمـانٍ وقـد سـاق طبَّـه ... نفوساً نفيساتٍ إلى داخل الأرض
أبـا منـذرٍ أفنيـتَ فـاستبقِ بعضنـا ... حنانيك بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

وهذا صفي الدين الحِلِّي يسخر من طبيب يدعى «إسحاق»:

مباضِعُ(١) إسحاق الطبيب كأنَّها ... لهـا بفنـاء(٢) العـالميـن كفيـلُ
مُعَـوَّدَةٌ ألاَّ تُسَـلَّ(٣) نِصـالُهـا ... فَتُغْمَـدُ حتـى يُستبـاح قتيـلُ

وقال صفي الدين الحلّي يهجو طبيباً سيئاً يدعى «عيسى»:

أرى فيك يا عيسى الطبيبَ فضيلةً ... هي الضدُّ من أفعال عيسى بن مريمِ
تُميتُ لنا الأحياءَ من غير عِلَّةٍ ... وتُضني وتفني باليدين وبالفمِ
فما أنتَ إلا خبطَ عشواء من تُصبْ ... تُمِتْهُ ومن تُخطىء يُعمَّرْ فيهرَمِ

---

(١) مباضع: جمع مبضع وهو المشرط، وهو آلة الجرح.
(٢) فناء: هلاك.
(٣) سلَّ سيفه: أخرجه من غمده.

وقال أحد ظرفاء الأندلسيين في طبيب:

قلْ للوبَا: أنتَ وابنُ زُهْرٍ قد جُزْتُما الحدَّ والنهايةْ
ترفَّقا بالورى قليلاً في واحدٍ منكما كِفايةْ

رثاء الأطباء:

قال أحمد شوقي يرثي الدكتور أحمد فؤاد:

ماتَ الجوادُ بطبِّهِ وبأجْرِهِ ولربما بذلَ الدواء مُعينا
وتَجسُّ راحتُهُ العليلَ وتارةً تكسو الفقير وتطعِمُ المسكينا
أمُداويَ الأرواحِ قبل جُسومِها قُمْ داوِ فيك فؤادي المحزونا
داويتَ كلَّ مُحطَّمٍ فشفيتَهُ ونسيت داءً في الضلوعِ دفينا

وقال العقاد يرثي طبيبه وصديقه الدكتور «حسين هِمَّتْ»:

جَلَّ في العارفينَ خطْبُ «حُسَيْنٍ» رجلُ الفضلِ والنهيِ والسدادِ
ما استبدَّ السِّقامُ إلا شفاهُ باجتهادٍ من طبِّه واقتصادِ
كيف يعدو عليه عادي المنايا وهو يثني من عزمها كلَّ عادِ

أجرة الطبيب:

يستحق الطبيب ـ وكل صاحب مهنة ـ أجرة على عمله وخدماته. وقد حلَّ الإسلام مسألة أجرة الطبيب حلاً عادلاً عظيماً. قال تعالى في سورة الشعراء على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾. فالشفاء بيد الله لا بيد الطبيب، ولذلك فإن أجرة الطبيب على أساس ما يبذل من جهد لا على الشفاء، لأن الشفاء خارجٌ عن قدرته. ولو جعل الله الشفاء بيد الطبيب لما استطاع إنسان أن يوفي للطبيب أجره، بل لما استطاعت الحكومات ذلك، لأنّ الإنسان لايُقدَّر بثمن. ولا يحق للطبيب أن يمنَّ عل المريض بالشفاء، وفي ذلك رفع لكرامة المريض[1].

(١) الطبيب المسلم، د. وجيه زين العابدين، ص١٠٣ بتصرف.

قال ابن غسَّان الطبيب يخاطب أبا مُضرَ عامِلَ الأهواز، بعد أن عالجه من مرضٍ فلم يعطه أجره:

هبِ الشعراء تعطيهم رِقاعاً[1] مُزوَّرةً كلاماً عن كلامِ
فلِمْ صِلَةُ[2] الطبيبِ تكون زوراً وقد أهدى الشفاء من السِّقامِ

ويقول أبو العلاء المعري في تكريم الأطباء:

أكرِم طبيبك إن أردتَ علاجَهُ واعط المعلِّم إن أردتَ تعلُّما

جوائز الأطباء:

أبو نصر المسيحي طبيب (توفي عام ٦٠٨ هـ)، عالج الخليفة الناصر لدين الله العباسي من مرض الحصىٰ في المثانة، فشَفِيَ فكافأه بأن طلب إليه أن يدخل إلى دار الضرب، ويحمل من الذهب ما يقدر عليه[3].

الشيخ السديد طبيب خدم خلفاء مصر الفاطميين وتوفي عام ٥٩٢ هـ. يروى أنه نال أكثر من خمسين ألف دينار لدى ختانه ولدي الحافظ لدين الله[4].

وبالمقابل فهناك من الأطباء من جازاهم الحكام لعدم قدرتهم على شفائهم ومنهم سعيد بن توفيل. فقدعمل طبيباً في خدمة ابن طولون (صاحب مصر)، وكان يصحبه في السفر والإقامة إلا أنه عجز عن شفائه من ألم في معدته، حيث أمر له بالسفرجل فلم تصلح حاله. فدعا أحمد بن طولون السيَّاط فضربه مئتي سوط، وطاف به على جمل، فنهب الأولياء منزله، ومات بعد يومين سنة ٢٦٩ هـ بمصر[5].

ويروى أن ابن طولون هذا أكثر من استعمال لبن الجواميس في

(١) الرقاع: جمع رقعة. وهي قطعة من الورق أو الجلد يكتب عليها.
(٢) الصلة: العطية أو الجائزة.
(٣) الوافي بالوفيات للصفدي.
(٤) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٥٧٢.
(٥) موسوعة علماء الطب، ص١٦٢.

أنطاكية، فأصيب بإسهال لم ينفع معه طب ابن توفيل، فعاد إلى مصر ساخطاً على ابن توفيل، ولما دخل الفسطاط أحضر طبيباً آخر هو الحسن ابن زيرك لمعالجته، وهدده إن استمرَّ الإسهال بضربِ عنقه. فخرج ابن زيرك من عنده خائفاً، وامتنع عن الأكل والنوم، واعتراه إسهال سريع، واستولى الغمُّ عليه، فكان يهذي بعلَّة أحمد بن طولون حتى مات في غد ذلك اليوم[١].

جشع بعض الأطبـــاء:

وليس من الأدب الطبي أن يحصل الطبيب على المال لقاء عمولة لترويج دواء معين أو أن يتفق مع الصيدلي لتصريف أدوية كاسدة عنده وغير نافعة على حساب صحة المريض، فهذا غش وخيانة، والمال حرام.

ويذكر الدكتور زهير السباعي في كتاب «الطبيب أدبه وفقهه» قصصاً من جشع بعض الأطباء، فيذكر طبيباً يصرُّ على أن يجعل الحقنة إحدى مكونات العلاج في أي وصفة طبية لأي مريض كان، حتى إنه لا يتورع عن أن يزرق مريضة بحقنة ماء مقطَّر ليقبض الثمن. ويذكر آخر يوهم مريضه بأنه في حاجة إلى عمليةٍ جراحية، ويجري له عملية من غير داع ليقبض الثمن[٢].

وقال ابن الرومي يحسد طبيباً، وما ندري أكان صادقاً فيما يقول أم غير صادق:

إذا مــا رأيــت الـدهــرَ بستــانَ مشمــشٍ فــأيقــن يقينــاً أنــه لطبيــبِ
يَغِــلُّ لــه، مــا لا يَغِــلُّ لغيــرهِ يَغِـلّ مـريضـاً حِيـلَ كـلِّ قضِيـبِ

من طرائف الأطبـــاء:

رُوي أن سيف الدولة كان إذا أكل الطعام، أحضر على مائدته أربعة

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٣.
(٢) «الطبيب أدبه وفقهه» للدكتور زهير السباعي والدكتور محمد علي البار.

وعشرين طبيباً، وكان فيهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم، وكان منهم التفليسي الذي كان يتقاضى أربعة أرزاق: رزق بسبب الطب، ورزق بسبب النقل، ورزقين بسبب علمين آخرين[١].

ويروى أن مؤيد الدين الحارثي ـ المتوفى عام ٥٩٩ هـ ـ كان يُعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة وشهرته بها، قبل أن يتحلى بمعرفة الطب. وُلِدَ ونشأ بدمشق، وفيها اشتغل بنحت الحجارة، وبالنجارة حتى أن أكثر أبواب البيمارستان الكبير هي من نجارته!!.

ابن الهيثم: مهندس، طبيب، حكيم ـ توفي عام ٤٣٠ هـ ـ. نقل إلى الحاكم الفاطمي بمصر قول ابن الهيثم «لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل بهِ النفع في حالتي زيادته ونقصه»، فدعاه الحاكم إليه، وبالغ في إكرامه، ثم طالبه بما وعد من أمر النيل.

وبعد المعاينة والدراسة أدرك ابن الهيثم أنه تسرَّع فاعتذر من الحاكم. فولاّه بعض الدواوين، ولكنه تولاّها خائفاً، وأظهر الجنون، فضبط الحاكم ماله ومتاعه، وقُيِّد وتُرِكَ فَي منزلِهِ حتى وفاة الحاكم، فأظهر العقل وأُعيد إليه ماله.

شمس الدين القُويضي الصالحي: طبيب ابن طبيب، ابن العلامة زين الدين القويضي. ولد بصالحية دمشق سنة ٨٩٠ هـ. وتخرج في الطب على والده الطبيب، ولكنه اقتصر في علاجه على الحكام والأكابر، وترك الفقراء، وذلك على العكس تماماً مما كان يفعل والده الطبيب[٢].

ويروي فضيلة الشيخ علي الطنطاوي في كتابه «صور وخواطر» كيف أن العلامة المؤرخ الشيخ الخضري، قد أصيب في أواخر عمره بتوهم أن

---

(١) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة، ص ٦٠٩.
(٢) موسوعة علماء الطب، ص١٧٥.

في أمعائه ثعباناً، فراجع الأطباء، وسأل الحكماء، فكانوا يدارون الضحك حياء منه، ويخبرونه أن الأمعاء قد يسكنها الدود، ولكن لا تقطنها الثعابين. . فلا يصدِّق.

حتى وصل إلى طبيب حاذق بالطب، بصير بالنفسيات، قد سمع بقصته، فسقاه مسهلاً وأدخله المستراح، وكان وضع له ثعباناً فلما رآه أشرق وجهه، ونشط جسمه، وأحس بالعافية، ونزل يقفز قفزاً، وكان قد صعد متحاملاً على نفسه يلهث إعياءً، ويَئِنُّ ويتوجع، ولم يمرض بعد ذلك أبداً.

ما شفي الشيخ لأن ثعباناً كان في بطنه ونزل، بل لأن ثعباناً كان في رأسه وطار[1].

ويُروى أن الحجاج بن عبد الله الصريمي ضرب معاوية بن أبي سفيان وهو يصلي، فأصاب فخذه وقطع له شرياناً تهدَّده بالموت. ولما جاء الطبيب نظر إلى الضربة، فقال: إن السيف مسموم، فاختر إما أن أحمي لك حديدة فأجعلها في الضربة، وإما أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلك!!. .

فقال: أما النار فلا أطيقها، وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ما تقرُّ به عيني، وحسبي بهما؛ فسقاه الدواء، فعوفي وعالج جرحه حتى التأم، ولم يولد لمعاوية بعد ذلك ولد.

ويروى أن الإمام جلال الدين السيوطي ـ والذي ألَّف أكثر من ٦٠٠ كتاب، ومنها كتاب المنهج السوي في الطب النبوي ـ كان يلقب بابن الكتب، وذلك لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب، ففاجأها المخاض، فولدته وهي بين الكتب[2].

---

(١) «صور وخواطر» للشيخ علي الطنطاوي، ص١٥.
(٢) الأعلام، للزركلي (٣/ ٣٠١).

كيف استقبل أشهر الأطباء الموت؟

لعل من المفارقات الطريفة أن يرفض العلاج مشاهير الأطباء، ويستقبلوا الموت بشجاعة وهدوء.

فابن سينا رفض أن يتناول الدواء، وباع كل ما يملك ووزع ثمنه على الفقراء وانقطع إلى العبادة[1].

ورفض الرازي أن يعالج عينيه عندما عمي في آخر أيامه، قائلاً: إنه رأى من العالم ما يكفيه!![2].

كما رفض ابن زهر إسعافه، وقال لولده الذي يقوم بخدمته إنه اكتفى من الحياة[3].

البعض يفضلون العيون الزرقاء:

روى الجاحظ عن طبيب يدعى أسد بن جاني وقدحلَّ بطبه الكساد. فقال له قائل: إن السَّنَة وَبِئَةٌ والأمراض فاشية، وأنت عالم ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين أتى هذا الكساد؟

قال: أما واحدة، فإني عندهم مُسلمٌ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، لا بل قبل أن أخلق، أن المسلمين لا يفلحون في الطب.
واسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون صليباً وجبرائيل ويوحنا وبيرا؛ وكنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن يكون ردائي حريراً أسود.

ولفظي لفظ عربي، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جندسابور[4].
والغريب أنه ما زال هناك الكثير ممن يعتقد بذلك حتى الآن!!.

* * *

---

(١) الطب العربي، خير الله، ص٢١٦ ـ ٢١٧.
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٤٢٠.
(٣) المصدر السابق، ص ٥٢٠ ـ ٥٢١.
(٤) «البخلاء» للجاحظ، ص١٠٢.

وكثيراً ما يهاجر الأطباء من أوطانهم إلى بلاد أخرى. وفي قول الطبيب البغدادي عندما سأله أحدهم عن سبب هجرته عن بغداد ما يشير إلى أحد الأسباب:

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم وترمي النوى بالمعسرين المراميا

وقال في موضع آخر:

ظللتُ حيرانَ أمشي في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق

طبيب لا يعرف من الطب قبيلاً من دبير:

تروي حكاية فرنسية أن فتاة زوَّجها أبوها الفارس فلاحاً كان يضربها بدون سبب، فيشغلها بالبكاء، كي لا تفكر برجلٍ غيره، فقررت الانتقام منه.. زعمت هذه الزوجة لمندوبيْن للملك كانا يفتّشان بالمملكة عن طبيب يداوي ابنة الملك التي احتبس عظم سمكة في حلقها، ولم يفلح أطباء باريس كافة في العثور على وسيلة يخرجون هذا العظم من حلقها... زعمت لهما أن زوجها الفلاح طبيبٌ ماهر، لكنه غريب الأطوار، فلا يقرُّ بمعرفته وقدراته الطبية ما لم يُشبَع ضرباً. فأمر الملك بضربه ضرباً مبرحاً، فلما ألفى نفسه في هذا المأزق تفتَّقت قريحته عن حيلة تمكَّن بها من إضحاك الجارية ضحكاً شديداً أدى إلى خروج العظم من حلقها.

ولما أُجبر الفلاح فيما بعد أيضاً على مداواة عدد من المرضى أتوْهُ للعلاج، قال لهم: إن سبيل شفائهم واحد لا ثاني له، وهو أن يُحرَق أحدُهم، وليكن أشدَّهم داءً، ليلتهم الباقون رماد رفاته. ففي الحال أنكر كل واحد منهم أن يكون شاكياً من أية علة، وخرج الجميع يسيرون وكأنما نشطوا من عقال!![1].

---

(١) «حكايتان شعبيتان قديمتان»، د. محمد سليمان السديس؛ الفيصل، العدد ٢٢٩، ص٥٦ ـ ٥٩.

مرض الأطبـــاء:

الأطباء يمرضون كما يمرض الآخرون، رغم أن البعض يتساءل أحياناً «أتمرض وأنت طبيب؟».

والحقيقة أن المرض كثيراً ما يكون أشد وطأة على الطبيب، فهو أعلم بمصائر الأمراض، وما تؤول إليه الأمور. فتساوره الهواجس والشكوك، ويرسل على طبيبه سيلاً من التساؤلات والأوهام.

بل إن بعض الأطباء يهمل علاج نفسه، رغم أنه أدرى بعواقب الإهمال، وترك الدواء.

وقد لا يحتمل البعض الألم البسيط. فهذا الرئيس ابن سينا، وقد أصيب بالزكام، وهو في عُرف الأطباء من الأمراض البسيطة، ومع ذلك تراه يشكو الأمرَّين، حتى كتب في ذلك شعراً قال فيه:

ونزلةٍ كنت أحمي وجه موردها … ففاجأتني على ضربٍ من الحمر
سدَّت عليَّ طريق الروح مُنتَشقاً … وأسلمتني لأيدي الروْع والحَذَرِ
ففي شؤوني حريقٌ من تلهُّبهِ … وفي الخياشيمِ ضيقٌ مُحصدِ المَرَرِ

وهنا يعجز «إمام الأطباء» في علاج هذا المرض البسيط، فلا يفيد في ذلك دواء. يقول:

لا الفصد يغني ولا ماء الشعير ولا … طول احتماءٍ إذ ما همَّ بالدِّررِ

وأخيراً يسلِّمُ أمره لله، ويحمده أنه لم يُصَبْ بما هو أشد منه:

فالحمد لله حمداً لا كفاءَ له … على السلامةِ وقَّاها من الغير

الأطباء يريدون أبناءهم أطبـــاء:

كثيراً ما نرى الطبيب يُنشىء ابنه على حبّ الطّب، فيصبح طبيباً يخلف أباه. ولكن من النادر أن ترى أسرة يتسلسل فيها الأطباء العظام على عدة أجيال متعاقبة. ويذكر الأستاذ «فاضل السباعي» من هذه الأسر أسرةَ زُهر الأندلسية التي تنتمي بأصولها إلى قبيلة إياد العدنانية في الجزيرة العربية.

هذ الأسرة أنجبت من الأطباء العظام الطبيب الأندلسيّ المشهور أبا مروان عبد الملك بن زهر - صاحب كتاب «التَّيسير في المداواة والتَّدْبير» والمتوفّى سنة ٥٥٧ هـ/ ١١٦٢ م - وأباه الطبيب «زُهراً»، وجدَّه سَميّهُ «عبد الملك».

وليس هذا فحسب بل إن عبد الملك بن زهر قد أنجب بدوره طبيباً هو «أبو بكر محمد» - شاعر الموشحات الأندلسية الأشهر - ولهذا ابنٌ طبيبٌ هو «عبد الله» الذي خلَّف آخر الأطباء الزُّهريين: «أبا العلاء محمداً»، وذلك فضلاً عن طبيبتين هما «أم عمرو» ابنة طبيبنا عبد الملك والأخرى ابنتها!![1].

أما كتاب « Guiness Book of Records» فيذكر في طبعة ١٩٩٧ أن عيادة عائلة الدكتور«Barcia » قد تعاقب عليها سبعة أجيال من الأطباء من أحفاده وأحفاد أحفاده وذلك منذ عام ١٧٩٢م وحتى الآن[2].

كما ذكر الكتاب أن أكبر عدد من الأطباء في أسرة واحدة كان ثمانية أخوة وأختين من أبناء الدكتور «والدرون» من إيرلندا، وكلُّهم تخرجوا أطباء من جامعة «غالوي» ما بين عام ١٩٧٦ و١٩٩٠.

* * *

(١) أدب العليل عند الطبيب الأندلسي عبد الملك بن زهر. الفيصلُ العدد ٢٣٤.

(٢) Guiness book of records 1997.

القلب . .

ذلك الخافق المعذَّب

عندما يعزف القلب أغنية الحياة، يغزل المحبّون والشعراء والفنانون أنسجة القصائد على تداعيات هذه الألحان.

والقلب كتلة من اللحم، وزنها في الإنسان الكهل ٢٨٠ ـ ٣٤٠ غ. وسمِّي قلباً لكونه في وسط البدن تقريباً، فقلْبُ كل شيء وسطُه ولبُّه، وقال بعضهم: سُمي قلباً لأن وضعه مقلوب في البدن، فَقِمَّتُه في الأسفل وقاعدتُه في الأعلى. وقال الشاعر:

ما سُمِّيَ القلبُ إلا من تقلُّبِهِ والرأي يصرِفُ بالإنسانِ أطوارا

وهو أميرُ البدن بلا منازع، كل عضو في البدن، وكل خلية فيه بحاجة إليه، حتى الدماغ إذا قَطَعَ القلبُ الدم عنه مات بعد ٣ ـ ٤ دقائق. أما هو فمستقلٌّ بنفسه، يضخُّ دمه إلى خلاياه عبر شرايينه التاجية. وإذا قطع الدماغ عنه سيَّالته العصبية، أَمَرَ العقدَ العصبية المنبثَّة في عضلته فقامت بوظيفة الدماغ واستغنى عنه.

وفي كل دقيقة ينبض القلب وسطياً ٧٠ مرة، ويضخ (٥) لترات من الدم. وفي كل يوم ينبض ١٠٠٠٠٠ نبضة تقريباً، ويدفع ٧٢٠٠ لتراً من الدم، بمعدل إجمالي يصل إلى بذل ٣ مليارات نبضة وضخ ٢٠٠ مليون لتر من الدم طوال مدة الحياة لإنسان يبلغ من العمر ٧٠ عاماً.

والقلب هو العضلة الوحيدة التي لا تتوقف عن العمل طوال حياة الإنسان؛ طوله لا يزيد على ١٢ سم، وعرضه ٨ سم، وسمكه ٩ سم،

ومع ذلك فهو عضلة قوية جداً يدفع الدم خلال شبكة من الأوعية الدموية يصل طولها إلى ١٠٠,٠٠٠ كيلو متر.

ويتكون القلب من أربع حجرات: الأذين الأيمن والبطين الأيمن، والأذين الأيسر والبطين الأيسر. أي أن هناك جانباً أيمن وجانباً أيسر من القلب؛ ويفصل بينهما حاجز يمنع اختلاط الدم المتدفق في حجرات القلب.

القلب يبصر ويتكلم:

ويؤكد أديب العلماء الشيخ علي الطنطاوي أن القلب يتلفت، ويبصر ويتكلم في عالم الشعر، فيقول: «والقلب يتلفت، نعم يتلفت، فلا تصدقوا أخبار العواذل من الأطباء الذين يُرْجِفُون بأنه ليس إلا عضلة ملساء...

ولقد مررت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهبُ
فوقفتُ حتى لجَّ من لَغَبٍ نِضْوى ولجَّ بعذلي الركب
وتلفَّتتْ عيني فمذ خفيتْ عني الطلول تلفَّتَ القلبُ

يتلفت ليرى المنازل وأهلها، ثم يبعد الركب فلا يرى إلا هياكلها، ثمَّ يبعد الركب أكثر فلا يرى إلا دخانها، ثم ترمي بالركب المرامي فلا يرى شيئاً، عندئذٍ يبصرها القلب بعينه التي لا يحجبها النأي ولا الليل ولا المنام.

تَلَفتُّ حتى لم يبنْ من بلادكم دخانٌ ولا من نارهنَّ وقودُ
وإن التفاتَ القلب من بعدِ طرفهِ طَوالَ الليالي نحوَكم ليزيدُ

والهوى يتجسم في عالم الشريف الرضي إنساناً، ويزور الشاعر فينصحه ألاّ يفارق أحبابه، فإذا لم يسمع نصح الهوى، جاء القلب فكلَّمه وضرب له الأمثال:

ولما تدانى البين قال لي الهوى رويداً، وقال القلب: أين تريدُ؟

أتطمع أن تسلو على البعد والنوى   وأنتَ على قرب المزار عميد؟[1]

ويؤكِّد بشار بن برد أن القلب في موطن الهوى يبصر قبل العين ويسمع قبل الأذن فيقول:

فقلتُ: دعوا قلبي وما اختارَ وارتضى   فبالقلب لا بالعين يُبصِرُ ذو اللُّبِّ
وما تُبصرُ العينان في موضع الهوى   ولا تسمعُ الأذنان إلا من القلبِ

والعينُ هي الطريق الموصل إلى القلب. يقول البحتري:

وما كان حظَّ العين في ذاكَ مذهبي   ولكنْ رأيتُ العينَ باباً إلى القلب

كما أن دموع العاشقين هي الألسنة التي تنطق بها القلوب. يقول ديك الجن الحمصي:

دموع العاشقين إذا توالتْ   بظهر الغيبِ ألسنةُ القلوبِ

سقم القلوب:

وسقمُ الأحبة عذاب وسقام للقلوب. يقول سعيد بن محمد بن فرج:

سُقْمُ الأحبَّةِ للقلوبِ سقامُ   وإذا القلوبُ سَقَمْنَ فهو حِمامُ

وكم تقلَّبت القلوب بين النعيم والعذاب. يقول الشريف الرضي:

أنتِ النعيمُ لقلبي والعذابُ له   فما أَمَرَّكِ في قلبي وأحلاكِ
هامتْ بكِ العين لم تتبع سواكِ هوىً   مَنْ علَّمَ البيْنَ أن القلبَ يهواك

وجرَّاح القلب يشق بمبضعه الجلد، ثم يقصُّ عظم القص بمنشار خاص قبل أن يصل إلى القلب ليجري عليه عملية جراحية. ولكن سهام «البدور» عند المتنبي تصل إلى القلوب قبل الجلود!!

عَمرَكَ اللهُ هل رأيتَ بدوراً   طلعتْ في براقعٍ وعقودِ؟
رامياتٍ بأسهمٍ ريشها الهُدْبُ   تشقُّ القلوبَ قبلَ الجلودِ

وفي المعنىٰ نفسه يقول كثير عزة:

---

(١) «رجال من التاريخ»، ص١٧٨.

رمتني بسهمٍ ريشُهُ الهُدْب لم يَضِرْ ظواهِرَ جلدي وهو في القلب جارحُ

وكثيراً ما تحدَّث الشعراء عن جروح القلب، فلا مباضع ولا سهام، بل مجرد تذكُّر الحبيب كافٍ لأن يُحدث جرحاً في القلوب. قال ذو الرمَّة:

إذا خطَرتْ من ذكرِ ميَّةَ خطْرةٌ على القلب كادت في فؤادك تجرحُ

ولعلَّ نظرة من نظرات الحبيب لا تجرح القلب فحسب، بل تودي بالحياة!! قال ابن الرومي:

نظرتْ فأقصدتِ الفؤادَ بلحظها ثم انثنتْ عنه فظلَّ يهيم
فالموتُ إن نظرتْ وإنْ هي أعرضَتْ وقْعُ السِّهامِ ونزعُهنَّ أليمُ

ومسكينٌ ذلك القلب المجروح، فحتى شهادته لا تُقْبَل عند الخصام. يقول الطبيب الشاعر شاكر الخوري:

وسألتُها هل بالأكيد تُحبّني قالت: فؤادك شاهدٌ يا روحي
فأجبتها أهل الهوى لن يقبلوا أبداً شهادة شاهدٍ مجروحِ

وإذا كانت أكثر أمراض القلب العضوية تتحسن بالعلاج، فإن من أدواء القلب ما يزداد نكساً بالدواء!! قال الفاضل اليماني:

للهِ داءٌ في الفؤاد أُجِنُّهُ يزدادُ نكساً كلما داويتُه

ولاشك أن الضغوط النفسية الشديدة والمصائب العظام تؤثر سلباً على القلب، فكم رأينا من حالات جلطة القلب، ساهم في إحداثها تعرُّض المريض لضغط نفسي شديد. قال الشاعر:

احرص على حفظِ القلوبِ من الأسى فصفاؤها بعد التكدر يعْسُرُ

وإذا كان القلب يبدو واضحاً على شاشة جهاز تصوير القلب بالأشعة فوق الصوتية (الإيكو)، فنرى ما فيه من صِماماتٍ، وضعفٍ أو توسع في عضلة القلب، في انقباضه وانبساطه، فإن الأطباء يعجزون عن إدراك ما في القلب من أحاسيس ومشاعر:

ويأبى الذي في القلب إلا تبيُّناً وكلُّ إناءٍ بالذي فيه يرشَحُ

وعضلة القلب قد تصاب بالتضخم والقساوة (Stiffness) وخاصة عند المسنين أو عند المصابين بارتفاع ضغط الدم الشديد... ولكنه قد يكون قاسياً عند المحبوب فلا يحنُّ ولا يلين، يقول صريع الغواني مُسلم ابن الوليد:

أُحِبُّ من حُبِّكمْ مَنْ كان يُشبهكمْ   حتى لقد كدتُ أهوى الشمسَ والقمرا
أَمُرُّ بالحَجَر القاسي فألثمُهُ   لأنَّ قلبكِ قاسٍ يشبه الحجرا

القلوب.. في الأدب:

يقال في الأدب إنَّ أحنَّ القلوب هو قلب الأم.. وأكثرها صفاء.. قلب الطفل.. وأشدها غلظة.. قلب الجاحد. والقلب المريض.. قلب الكافر، والضعيف.. قلب المتردد، والخفيف.. قلب الجبان، والقلب الأسود.. الذي يختزن الضغينة والإساءة، والقلب البارد.. قلب فاقد الحماس. ويقال فلان قلبه ميت؛ أي لا يشعر بالخوف وفلان سقط قلبه في أقدامه.. من شدة الفزع. وفلان بلا قلب.. لفاقد الإحساس. والقلب الأبيض.. قلب المتسامح. وصاحب القلب الثقيل.. هو المجازف. والقلب الجامد.. مدح للشجاع بمعنى صلابة القلب، وذم لصاحب القلب الذي لا يتأثر بآلام الناس.

قلب شاعر في غرفة العمليات:

وقد نظم الشاعر إحسان البني قصيدة قبيل دخوله غرفة العمليات لإجراء عملية وصل شرايين القلب وتبديل أحد صمامات قلبه. وكنت أحد المشرفين على علاجه:

قلب شاعر

١) ـ هل أقولُ لكمْ وداعاً؟...
أم أقول إلى لقاءْ؟...
ومصيري المجهول يبدو غامضاً جهم الضباب...

بيـــن اليقيـــن وبيـــن أوهـــام الســـراب. . .
وأسِـرَّةٌ بيضـاء تبـدو لا مبـاليـةً بـآهـات العنـاءْ
والسقـــف والجـــدران حتـــى والهـــواءْ
غـــرقـــى مشبَّعـــةً بـــرائحـــة الـــدواءْ
٢) ـ ومُقنَّعُـونَ تـدافعـوا يتـراكضـون بغـرفتـي. . .
يتعجلـونَ وبيـن أيـديهـم تـروغ سـريعـة نقـالتـي
فـــي الممـــراتِ المضيئـــةِ تنحنـــي. . .
عجلـى إلـى قسـم الجـراحـة رحلتـي. . .
مـــاذا أقـــول لأســـرتـــي؟
هــل ستمهلنــي الحيـاة لكـي أخـطّ وصيتـي؟
٣) ـ في الغرفة البيضاءِ أحنى رأسهُ فوقي وقال كبيرهمْ. . .
لا تخـشَ شيئـاً أيهـا البطـلُ الهُمـامْ
سنـــزيـــل عنـك الآن أسبـاب السِّقـامْ. . .
اليـوم نفتـح يـا صـديقـي قلـب شـاعـرْ. . .
لنبدّل الصمَّامَ حتى يستقيم النبض في دفء المشاعر. .
كـلُّ شـيء سـوف يمضـي يـا صـديقـي فـي سـلامْ
ولسـوفَ تغـدو فـي المسـاءِ علـى أتـم مـا يـرامْ
فـأجبـتُ يـا جَـرَّاحَ قلبـي إن فتحـتَ لـي الفـؤادْ
ووجـــدتَ فيـــه حبيبتـــي أمَّ العيـــالْ
ووجـوه أولادي وأحبـابـي وصفـوةَ أصـدقـاءْ. .
أرجـــوك لا تستـــأصلـــنَّ وجـــودهـــم. .
فهـــم الـــذيـــن بكـــوا لحـــالـــي. . .
عندما ضاقت شراييني وأنفاسي بعتمات الليالي
عنـدمـا تـاهـت دروبـي والأمـانـي. . .
مـــن محطّـــاتِ الحيـــاةِ. . .
وتحشرجت روحي بحلقي في العشيات الطوالِ. . .

وهم الذين تَحَلَّقوا حولي يمدُّوني بدفء قلوبهم. . .
حبـــــــاً وسيـــــــلاً مـــــــن ودادٍ. . .
حباً يُعيدُ إلى فؤادي نبضه الواني على درب اعتلالي. .
أرجـــوك ألاّ تـــأخـــذ الأحبـــاب منـــي. . .
لو عشت سوف أظلُّ أحيا في محبتهم على دفء الوفاءِ
أومــتُّ أتـرك هـذه الـدنيـا وفـي طيـات قلبـي. . .
بـــــــاقـــــــةٌ مـــــــن أوفيـــــــاءِ

الخفقــان:

هو الشعور بضربات القلب.. أو الإحساس بوجود ضربات سريعة وقوية في القلب.

ويحدث الخفقان عادة إثر القيام بجهد عنيف، أو عند الانفعال الشديد، أو لدى التعرض لخوف مفاجىء.

وقد ينجم الخفقان عن اضطرابٍ في نظم القلب[1]، كحدوث تسرُّع في القلب وفيه يبدأ القلب بالتّسرّع فجأة، ويخفق بضربات سريعة وكأنه يركض، ويشعر المريض بهذا التسرّع إذا ما ازدادت ضربات قلبه عن (١٠٠) ضربة في الدقيقة، وأكثر أسبابه شيوعاً هو القلق والخوف، وأمراض أخرى غير أمراض القلب كالحمى أو فرط نشاط الغدة الدرقية وغيرها. ولكن يجب التأكد من عدم وجود مرض في القلب. وقد تصل سرعة ضربات القلب إلى (٢٠٠) ضربة في الدقيقة وتسمى الحالة (التسرع ما فوق البطيني Supraventricular Tachycardia [2]).

وهذا عمران بن حطّان يُعيِّر الحجاج بن يوسف الثقفي لأنه نكص عن

---

(١) نظم القلب الطبيعي هو أن يضرب القلب ٦٠ ـ ١٠٠ ضربة في الدقيقة، وكلّ تحوّل عن هذا يعبَّر عنه باضطراب في نظم القلب.

(٢) عن كتاب Braunwald لأمراض القلب طبعة ١٩٩٦.

ملاقاة «غزالة» زوجة شبيب بن فريد الشيباني ومنازلتها في إحدى الوقائع، واتَّهمه بأن قلبه ارتجف خوفاً وهلعاً من ملاقاة «غزالة» فقال:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ ... فتخاءُ[1] تنفر من صفير الصافرِ
هلاَّ برزْتَ إلى غزالةَ في الوغى ... بل كان قلبكَ في جناحيْ طائرِ
صدعتْ غزالةُ قلبَهُ بفوارسٍ ... تركتْ مدابرَهُ كأمْسِ الدابرِ

وكثيراً ما عبَّرَ الشعراء عن إحساسهم بالخفقان لدى رؤية المحبوب أو البعد عنه، فهذا الشريف الرضي يصف خفقان قلبه يوم فارق محبوبه، فصار قلبه يعدو كالحصان السريع حتى يكاد يطير:

أشكو إلى الله قلباً لا قرار له ... قامتْ قيامَتهُ والناس أحياءُ
إن نالَ منكم وصالاً زادهُ سقماً ... كأنَّ كلَّ دواءٍ عندكم داءُ
كأنَّ قلبي يوم البينِ طارَ به ... من الرقاع[2] نجيبُ السَّاق عدَّاءُ

وقال ابن المعتز يصف ما أحدث الفراق في قلبه وجسمه:

ومتيَّمٌ جَرَحَ الفراقُ فؤادهُ ... فالدَّمعُ من أجفانه يتدفَّقُ
بهَرَتْهُ ساعةُ فرقةٍ فكأنما ... في كل عضوٍ منه قلبٌ يخفق

أما ابن زيدون فيدعو على قلبه أن لا يسكن ولا يهدأ من الخفقان فيقول:

إني ذكرتُكِ بالزهراءِ مشتاقاً ... والأفقُ طلْقٌ ومرأى الأرضِ قد راقا
لا سكَّنَ اللهُ قلباً عنَّ ذِكْرَكُم ... فلم يَطِرْ بجناح الشوق خفَّاقاً

ويصف علي بن الحسين الخفقان السريع الذي ينتابه، وكأنه الطائر الذي تخفق أجنحته في صدره وهو يفتّش عن طريق للفرار، ولكن الجوانح تطبق عليه، وكثيراً ما يشعر المريض أيضاً أثناء الخفقان بضيق في صدره، وانقباض في جوانحه:

كأنَّ فؤادي طائرٌ بين أضلعي ... يريدُ فِراراً والجوانحُ تطبقُ

---

(١) فتخاء: العُقَابُ اللينة الجناحين.

(٢) الرقاع: السير السريع.

كــأنَّ عــذابــي حــولَــه شَــرَكٌ لــه   تنشَّــبَ فيـه فهـو للخـوفِ يخفـق

وهذا عروة بن حزام يصف ما انتابه من خفقانٍ من حبّ عفراء، ويدعو على عمه ـ والد عفراء ـ أن يبتليه الله بمثل ما ابتلي به، وأن يصبح قلبه مقسوماً بكل مكان:

على كبدي من حبِّ عفراء قرحةٌ   وعينـان مـن وجـدي بهـا تكفـانِ
كـأنَّ قطـاةً عُلِّقـتْ بجنـاحهـا   علـى كبـدي مـن شـدة الخفقـان
فيا عمّ ياذا الغدر لا زلتَ مبتلىً   حليفـــاً لهـــمٍّ لازمٍ وهـــوانِ
ولا زلتَ في شوقٍ إلى من هويته   وقلبُـك مقسـومـاً بكُـلِّ مكـان
غدرتَ وكان الغدرُ منك سجيَّةً   وألـزمـتَ قلبـي دائـمَ الخفقـانِ
وأورثتنـي غمّـاً وكـرْبـاً وحسـرةً   وأورثـتَ عينـي دائـمَ الهمـلانِ

«وعروة بن حزام هذا شاعر من بني عذرة، أحبَّ ابنة عمه عفراء التي رُبِّي معها، وكانت له ترباً، وكان أبوها يقول له: أبشر فإن عفراء امرأتك ـ إن شاء الله تعالى ـ، حتى إذا جاء أوان طلب يدها، طلبت أمها مهراً معجزاً يفوق قدرته، فرحل إلى ابن عمٍّ له باليمن يطلب عونه، ثم عاد بالمهر المطلوب، فإذا هي قد زُوِّجت بأموي في الشام، فلحق بها إلى الشام. وسأل عن الرجل ودُلَّ عليه، فأكرمه وأحسن ضيافته، فمكث أياماً، ثم قال لجارية لهم: تدفعين خاتمي هذا إلى مولاتك. فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم فعرفته فشهقت، وأعلمتها جاريتها بالخبر. فلما جاء زوجها قالت له: أتدري من ضيفك هذا؟ إنه عروة بن حزام ابن عمي، وقد كتمك نفسه حياءً منك. فبعث إليه ورحَّب به، وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان، وأوصى خادماً له بالاستماع إليهما، وإعادة ما تسمَّعه منهما عليه.

فلما خلوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق. ثم أتته بشراب، فقال: والله ما دخل في جوفي حرام قط، ولو استحللتُ حراماً لكنتُ قد استحللته منك.. وعزم عل الرحيل.

فلما جاء زوجها عرض عليه أن يطلِّقها من أجله، فأبى عروة وانصرف.

فلما رحل عنهم أصابه غشيٌ وخفقان، فكان كلما أُغمي عليه ألقى على وجهه خماراً لعفراء زوَّدته إياه فيفيق[١].

ويقال إن عرَّافاً حاول أن يداويه مما به، لكنه مات ودفن قرب المدينة. ويقال إن عفراء لما بلغها نبأ موته ماتت حزناً عليه بعد أيام ثلاثة. وقيل كانت وفاته سنة ثلاثين من الهجرة.

موت الفجـــاءة:

قال أبو العباس أحمد بن يحيى:

وإنـي لأخشـى أن أمـوتَ فُجـاءةً   وفي النفس حاجاتٌ إليك كما هيا

ويقول رسول الله ﷺ «من اقتراب الساعة موت الفجاءة»[٢] وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «موتُ الفجاءة راحة للمؤمن وَأَخْذَةُ أسفٍ للفاجر»[٣]، ومعنى «راحة للمؤمن» أي للمتأهب للموت المراقب له، بخلاف من هو على غير استعداد له. وهو أخذةُ أسفٍ للكافر أو الفاسق. أي أخذة غضبٍ، وفي رواية «أخذةُ آسف» أي أخذةُ غضبان، وهو من آثار غضب الله تعالى فإنه لم يتركه ليتوب ويستعد للآخرة، ولم يُمرضه ليكون المرض كفارة لذنوبه، كأخذة من مضى من العصاة المردة، كما قال تعالى: ﴿أخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾. وهذا وارد في حق الكفار والفجّار، لا في المؤمنين الأتقياء. وقال ابن السكن: «مات إبراهيم الخليل وداود وسليمان عليهم السلام فجأة، قال: وكذلك الصالحون، وهو تخفيف عن المؤمن»[٤].

---

(١) «قصص العرب»: (٤/ ١٢١) بتصرف.

(٢) رواه ابن أبي شيبة.

(٣) رواه أحمد والبيهقي.

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٦/ ٢٤٦).

وأكثر أسباب موت الفجاءة في البالغين هو توقف القلب. وقد وجد الباحثون ـ بتشريح الجثث ـ علامات حدوث جلطة في القلب عند حوالي ٢٥٪ من الحالات. وكثيراً ما يكون حدوث اضطراب شديد في نظم القلب (رجفان بطيني أو تسرع بطيني) سبباً للموت المفاجىء.

والمعروف أن واحداً من كلِّ أربعةٍ يصابون بجلطة في القلب يلقى حَتْفَه فجأة قبل وصوله إلى المستشفى.

أمّا أهم أسباب جلطة القلب فهو: التدخين، وارتفاع كولسترول الدم، وارتفاع ضغط الدم، وقلة الحركة، والبدانة، والضغوط النفسية وغيرها[١].

* * *

(١) وقد فصَّلنا ذلك في كتابنا «كيف تقي نفسك من أمراض القلب» والذي نشرته دار القلم بدمشق ودار البشير بجدة.

السِّواك

بين غَيْرة الشعراء واكتشافات الأطباء

يُروى أن عَلِيّاً كَرَّم اللهوجهه دخل على سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ فرآها تستاك، فأنشد قائلاً:

هُنِّيتَ يا عودَ الأراكِ بثغرها ... ما خِفْتَ مني يا أراكُ أراكا
لو كان غيركَ يا سواكُ قتلتُهُ ... ما فاز منِّي يا سواكُ سواكا

وقال بشار بن برد في محبوبته:

يا أطيبَ الناس ثغراً غير مختَبَرٍ ... إلاّ شهادة أطرافِ المساويكِ
قد زُرْتِنا مرَّةً في الدهر واحدةً ... ثَنِّي ولا تجعليها بيضة الديكِ

فمحبوبته طاهرة مطهَّرة، وهي أطيب الناس ثغراً، ويشهد لها بذلك أطراف المساويك، إذ لم يَمَسّ شفتيها أحدٌ غير المساويك، ثم يطلب من حبيبتهِ النقيَّة أن تزوره مرة أخرى ولا تجعل تلك الزيارة بيضة الديك، لأنهم يزعمون أن الديك يبيضُ في الدهر مرة واحدة فقط!!![1].

وكثيراً ما غار الشعراء من عود الأراك تستاك به الحبيبة، قال ابن المعتز:

أغارُ عليكِ من قلبي إذا ما ... رآكِ، وقد نأيتِ وما أراكِ
ومن عين الرسولِ ومِنْ كتابٍ ... إذا ما فُضَّ مسَّتْهُ يداكِ
ومن طرَفِ القضيبِ مِنَ الأراكِ ... إذا أعطيتِهِ، ياسُرَّ، فاكِ

وقال صفي الدين الحليّ:

غارتْ وقد قلتُ لمسواكها ... أراكَ تجني ريقَها يا أراكْ

---

(١) عن كتاب «السواك» للدكتور محمد علي البار، ص٢٠.

قــالــتْ: تمنيــتَ جنــى ريقتــي وفــاز بــالتــرشــاف منهــا سِــواكْ

وقال الشاعر وهو يتحدث إلى محبوبته:

يا سيدي إن جُزتَ وادي الأراكْ وقبّلَــتْ أعــوادُهُ الخْضــرُ فــاكْ
اِبعــثْ إلـى المملـوكِ من بعضِـهِ فــإننــي والله مــالــي ســواكْ

وهو هنا يخاطب المحبوب، ويطلب منه أن يبعث له بالسواك (أو بعضه) الذي استخدمه، والذي حَظِيَ بثغر المحبوب وقَبَّلَـهُ، ويقسم بأنه «ليس له سواك»: أي ليس له أحد غير المحبوب، أو ليس له سواك يستاك به.. وهو من تداخل المعاني اللطيفة.

ويقول دوقلة المنبجي في «دعديته» وهو يصف ثغراً حوى الّلآلىء والدرر، ورضاباً كأنه العسل حلاوةً وعذوبةً:

وتُجيــل مســواك الآراك علــى رتــلٍ كــأنَّ رضــابَــهُ الشهــدُ

ويقول الحسين بن مطير الأسدي:

وثغـرٍ إذا المسـواكُ مَـسَّ غـروبَـهُ تعسَّلَ واحْلَوْلىٰ فطابتْ مكاسره

ويتغزل الشاعر بمحبوبته ذات الثّنايا الغُرّ واللثة الداكنة، وما سبب صحة أسنانها ولثّتها وجمالها إلا استخدامها سواك الإسحل:

أغرَّ[1] الثّنـايـا[2] أحـمَّ[3] اللثـا ت تمنحــه ســوكُ الإسحــلِ

والإسحل نبات تستخدم أعواده في تنظيف الأسنان.

ويعدّدُ الشعراء فوائد السّواك، فيقول أحدهم:

إن السَّــواك يُستَحــبُّ لسنَّــةٍ ولأنــه ممــا يطيــب لــه الفــمُ
لـم تخـشَ مـن حَفَـرٍ إذا أدمنْتَـهُ وبــه يُســالُ مــن اللهــاةِ البلغـم

---

(١) الأغرّ: هو الأبيض الناصع.
(٢) الثنايا: الأسنان الأمامية، وهي القواطع.
(٣) الأحمّ: المائل إلى السواد، وحمرة اللثة الضاربة إلىٰ السواد من آيات الجمال عند العرب.

وقد ذكر الشاعر من فوائد السواك أربعاً: فهو سنَّةٌ ثابتة عن المصطفى ﷺ، فقد أخرج الشيخان من حديث رسول الله ﷺ: «لولا أن أشقَّ على أمَّتي لأمرتهم بالسِّواك عند كلِّ صلاة».

وقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم مرضاة للرب»[١]. وهو يطيِّب نكهة الفم، ويحسِّن صحته، ويقي من داء الحفر (وهو التهاب ما حول السن) وينزع البلغم. وأكَّد الطب الحديث فوائد السواك، فقد جاء في بحث للدكتور طارق الخوري والمنشور في مجلة طب الأسنان الوقائي الإكلينكي Clinical Preventive Dentistry عام ١٩٨٣: أن أغصان الأراك تحتوي على: مادة الكلور والتي تفيد في إزالة الصبغة والتلوين على الأسنان، ومادة السيلكا وهي مادة تبيّض الأسنان، ومادة صمغية Resins وتعمل على تغطية المينا وحمايته من التسوس. ومادة ثلاثي المثيل أمين وتعمل على التئام جروح اللثة، ومواد قلوية تعمل على منع التسوس.

وقد استعرض الأخ الأستاذ الدكتور محمد علي البار في كتابه القيِّم «السواك» آخر الأبحاث العلمية التي نُشرت حول موضوع السواك. ومنها بحث للدكتور عبد الرحيم محمد (من الرياض) والدكتور جيمس ترند (من الولايات المتحدة) أكدا وجود مواد قاتلة للجراثيم ومواد مضادة للالتهاب ومضادة للتسوُّس في أعواد الأراك[٢].

والقَلَح أحد المظاهر الرئيسية لعدم تنظيف الأسنان، فهو عبارة عن رواسب عضوية وغير عضوية وفضلات الأكل والبكتريا.. وبمرور الزمن تتصلب، وخاصة إذا أهمل الشخص تنظيف أسنانه.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «مالي أراكم قلحاً؟ استاكوا»[٣].

---

(١) أخرجه البيهقي وأحمد.

(٢) «السواك»: للدكتور محمد علي البار، ص١٥٦ ـ ١٥٧.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٣١٤).

وقال الأعشى يذمّ قوماً:

قـد بنـى اللُّـؤمُ عليهـم بيتَـهُ   وفشـا فيهـمْ مـن اللُّـؤمِ القَلَـحْ

* * *

وعودة إلى الشعراء والمساويك. فهذا ابن زيدون يجد في بقية مسواك الحبيب متنفساً يعوِّضه عن لقيا الحبيب؛ يقول:

أهْـدي إلـيَّ بقيَّـة المسـواكِ   لا تُظهـري بخـلاً بعُـود أراكِ
فلعـلَّ نفسـي أن يُنفّـسَ سـاعـةً   عنهـا، بتقبيـل المقبِّـل فـاكِ

ويقول عبيد الله بن عبد الله:

وإذا سألتْكِ رَشْفَ ريقكِ قلت لي: أخشـى عقـوبـةَ مـالـكِ الأمـلاكِ
ماذا عليكِ؟ جُعلتُ قبلكِ في الثرى   مِـنْ أن أكـون خليفـةَ المسـواكِ
أيجـوز عنـدكِ أن يكـون متيَّـمٌ   صَـبٌّ بحبِّـك دونَ عـودِ أراك؟

* * *

فمك عنوان شخصيتك

لاشك أن رائحة الفم تعطي انطباعاً خاصاً عن نظافة الشخص وعنايته بفمه وقد يتعدَّى الأمر حدود الانطباعات لتضع الشخص في مواقف لا يُحسد عليها حيث يتجنبه الناس ويهربون منه إذا تحدث، فيصبح منبوذاً اجتماعياً، ولا سيّما حين يرى من يتحدّث إليه يدير رأسه، أو يرفع يده ليضعها على أنفه في محاولة لتجنب الرائحة السيئة المنبعثة من الفم، وقد يكون لذلك أثر سلبي على العلاقات الزوجية، مما قد يُنْذِرُ بانهيارها أو على الأقل اضطرابها.

«والبَخَرُ ـ كما جاء في اللسان ـ: الرائحة المتغيرة من الفم. وبَخِرَ بَخَراً وهو أبخَرُ»[١]. وقيل: إن عبد الملك بن مروان كان أبخر، فعضَّ يوماً على تفاحة ورمى بها إلى زوجته، فدعت بسكين، فقال: ما تصنعين بها؟ قالت: أميط الأذى عنها، فشقَّ عليه ذلك منها فطلَّقها.

وحكي أن أبخر تزوج بامرأة، فلما ضاجعها عافته وتولت عنه بوجهها وأنشدت تقول:

يا حب والرحمنُ إن فاكا　　أهلكني فولِّني قفاكا
إذا غدوتَ فاتخذ مسواكا　　من عرفطٍ إن لم تجد أراكا[٢]

ويصف صفي الدين الحليّ شخصاً يدعى «أبا علي» له رائحة كريهة في الفم، فيقول:

---

(١) لسان العرب (٤/ ٤٧).

(٢) المستطرف من كل فن مستظرف (٢/ ٣٤٧).

لـو أنَّ لـريـح نكهتـه هبـوبٌ لأوشكـت الجبـالُ لهـا تـذوبُ
إذا مـا عـابَ ضـرس أبـي علـيٍّ فليـس يطيـق يقلعـه الطبيـبُ

وإننا لنبعث بمشاركتنا الوجدانية لأطباء الأسنان الذين يعالجون مثل أبي علي ونحيي فيهم ثباتهم وشجاعتهم الفائقة!!

ولكن ما هي أسباب رائحة الفم؟

فقد جاء في موسوعة (Family Health) طبعة ١٩٩٥: أنه نادراً ما تكون رائحة الفم الكريهة عرضاً لمرض ما. فهي غالباً ما تنجم عن التدخين أو شرب الخمر، أو أكل الثوم والبصل، أو إهمال نظافة الفم والأسنان. أما الإمساك وعسر الهضم فلا يسببان عادة رائحة كريهة في الفم.

والأسباب الأخرى لرائحة الفم الكريهة والمستمرة تشمل التهاب الفم أو الجيوب أو توسع القصبات.

أما الدكتور «محمد حنفي» فيقسم أسباب الرائحة الكريهة إلى قسمين أساسيين:

الأول: وهي الأسباب الناشئة عن الفم: وأهمها جفاف الفم وهو سبب رئيسي لانبعاث رائحة سيئة من الفم، ويلاحظ ذلك في الأشخاص الذين يتنفسون عن طريق الفم بدلاً من الأنف بسبب إصابتهم بالانفلونزا مثلاً.

وقد يحدث جفاف الفم أثناء النوم، حيث تتحلّل بقايا الطعام بفعل البكتريا، فتنتج رائحة غير مستحبة عند الاستيقاظ من النوم.

والجوع سبب آخر من أسباب رائحة الفم الكريهة.. ولكن ريح فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك؛ قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لخَلُوفُ فَمِ الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[١].

---

(١) رواه البخاري.

كما أن التدخين يؤدي إلى انبعاث رائحة سيئة من الفم. وبعض الأطعمة كالثوم والبصل تجعل الجسم يتخلص من هذه المواد في صورة مواد طيارة فتخرج مع النفس رائحة غير مستحبة.. ولا غرابة أن ينهى رسول الإنسانية ﷺ آكل الثوم والبصل عن إيذاء المصلّين بالرائحة فقال: «من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربنَّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[١].

ولا شك أن إهمال العناية بنظافة الفم هو السبب الرئيسي لسوء رائحة الفم، حيث يؤدي تراكم فضلات الطعام وتحلله إلى حدوث روائح كريهة، كما يؤدي تكاثر البكتريا وتكلُّسها بفعل الكالسيوم الذي تفرزه الغدد اللعابية إلى تكوين طبقة من الجير على الأسنان، وتنبعث من هذه الطبقة روائح نفَّاذة مميَّزة، ويصاحبها تغيُّر في طعم الفم.

كما أن أمراض اللثة وتسوُّس الأسنان وقروح الفم تكون أيضاً مدعاة لحدوث رائحة كريهة في الفم[٢].

أما والمجموعة الثانية من الأسباب ـ وهي غير شائعة ـ فتشمل: التهابات الأنف والجيوب الأنفية، والتهاب اللوزتين، وتقيحات الرئة، وأمراض الكبد والكلى، واضطرابات الهضم[٣].

* * *

---

(١) رواه مسلم.

(٢) Family Health Encyclopedia

(٣) رائحة فمك جميلة.. كيف؟ للدكتور محمد حنفي. المجلة العربية، شعبان، ١٤١٢هـ.

الأسنـان

صديـقٌ مفارق

كثير من الناس من اضطر لخلع ضرسه، وقليل من النَّاس من تفاعل مع سنِّه المخلوع يمضي إلى غير عودة.

يقول الدكتور «عبد المنعم النمر» وزير الأوقاف الأسبق في مصر العربية:

«منـذ أكثـر مـن عشـر سنـوات، اضطـررت لخلـع أول ضـرس مـن ضروسي، وأنا في غاية الأسى. وحين رأيته بين «كماشة» الطبيب، كنت أراه لأوَّل مرَّةٍ، مع أنَّه لازمني طول حياتي، في صحوي ونومي، في حلِّي وترحالي، في سروري وحزني.. يقدِّم لي الخدمات وأنا لا أراه.. وربَّما تمتَّعت بخدماته، وأنا ساهٍ عنه...

ونظرت إليه.. وأنا أنظر إلى جزء من نفسي حبيب، يفارقني وأفارقه، على كره.. ودعاني ذلك لأن أطلبه من الطبيب، وأحتفظ به معي مدة.. وكأنِّي أتمتّع بحبيب لابدَّ أن يفارق.

وتمنيت أن لو كنتُ شاعراً لأصبَّ في شعري شيئاً من هذه المعاني والأحاسيس.. ومرَّت السَّنوات، وأنا أذكر هذه اللَّحظات، ولا سيَّما، وقد تبعه إخوانٌ له من الضَّروس، الذين عاشوا بجانبه، وتعاونوا معه، فـآثـروا اللحـاق بـه، وفـارقـونـي علـى كـرهٍ منـي.. وألـمٍ ينتـابنـي باستمرار..»[1].

---

(١) من مقدمة الدكتور النمر لديوان «مع الله ورسوله» للطبيب الشاعر عزت شندي موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.

ووصف الطبيب الشاعر عزت شندي موسى أحاسيسه، وقد فارقه ضرسه بعد ستين عاماً، فقال في قصيدة بعنوان «ودَّعتُ ضرسي»:

قضى في صحبتي ستِّين عاماً   وفارقني.. ولم يُلقِ السلاما

إلى أن يقول:

هو العمر الطَّويل قضاه جنبي   وعشناه.. وِفاقاً وانسجاما
وكم قاسى ليخدمني.. ملياً   وكم عانى.. ليطحن لي.. الطعاما

ثم يميل بالشاعر إيمانه وتعفُّفه.. فيقول:

وأقسِمُ ما أكلتُ عليه سحتاً   وأجزم لم يذق يوماً.. حراما
وما دنَّسْتهُ ببذيء لفظٍ   وما لمستْ جوانبُهُ المُداما
وما آثرتُ نفسي في طعامٍ   ولكن للفقير.. ولليتامى

* * *

وقال صفي الدين الحلي يلوم طبيباً خلع ضرس فتاة جميلة:

لحا[1] الله الطبيبَ لقد تعدَّى   وجاء لقلع ضرسكِ بالمُحالِ[2]
أعاقَ[3] الظبيَ في كلتا يديه   وسلَّطَ كلَبتين[4] على غزالِ

طقم الأسنان:

ملايين الملايين من البشر فقدوا أسنانهم الطبيعية واستبدلوا بها «أسناناً صناعية» في بلدان الأرض كافَّةً، قديماً وحديثاً. ولكن أحداً لم يسجل معاناته بأسنانه شعراً أو نثراً، غير ما فعلته قصيدة الشاعر عبد العليم أحمد صافي، برسمٍ للواقع وإبداع في التصوير؛ يقول فيها:

---

(١) لحا: لامَ.
(٢) المحال: الحيلة والخديعة.
(٣) أعاق فلاناً: قيَّده ومنعه.
(٤) الكلْبة: أداة تخلع بها الأسنان.

(١)

أأرثي لفقدي لؤلؤ الثّغر مكرهاً — أم الدّمع أجريه لحزني على ثغري؟
غدا (موحِشاً) من بعد ما كان مُنْعَماً — بأسنانه، عُمراً، يفيض من البِشْر
(كريهاً) بدا، لا النطقُ يلقى مسارَهُ — سليماً، إذا ما رمتُ نطقاً بلا عسر
وأضفى على وجهي تجاعيد، أصبحتْ — على صفحة المرآة، فاضحة العُمر
وأضحى لساني في فمي شبه ضائعٍ — يلوب، وفي وَجْدٍ على صحبه الغُرِّ

(٢)

ولست ألوم العُمْرَ.. لكنّ حسرتي — لأنّـي مـا قـدَّرت عـاقبـة الأمـر
فلم أَرْعَ أسناني، ولا رمتُ طبّها — فأمعن (نخر السنّ) يسرف في الشرِّ
وغيَّـب إهمـالـي كنـوزاً حـرمتهـا — وأورثنـي الإهمـال مهـزلـة العمـر

(٣)

وقال أصيحابي: فما لك يائساً — وفي (أطقم الأسنان) نافذة الخير
وهل بعدما بي من سبيل سوى الرضا — ويا لوعتي، كم قد وجدتُ من المرِّ
ويـا ضحكـة المـرآة منـي بعـدمـا — تراءى فمي فيها كمخروبة قفر

(٤)

وطال اصطباري كي ترى (الثتي) لها — سبيلاً إلى ما فيه مرضية الصبر
وجاء (طبيب السن) يعمل في فمي — بشمعٍ لديه (قالباً) مزعج البخر
وبعـد تجـاريـب عييـتُ بـأمـرهـا — وكدتُ لما ألقى أعان الذي يجري
وبعد انتظار خلتُ (لا فجرَ بعده) — أتاني (طبيب السنّ) يزهو من الفخر
وقال: لقد أنجزتُ، بالحمد، (قالباً) — به تزدهي الأسنان مسبوكة الدُرِّ
وألجمنـي مـن صنعـه شـرَّ مُلْجِمٍ — فضقتُ به ذرعاً، وقد خانني صبري
وأشفقتُ في سرِّي على كلّ مبتلىً — بلجمٍ، وقيدٍ، فيهما وصمة العُمْر
وحاولتُ مضغاً للطعام مجاهداً — فلم أَستطع شيئاً، وقد كدّني عسري
وأسخر من نفسي إذا رحتُ أشتهي — كلاماً، فألقاه، كما قُدَّ من صخر
وتقفـز أسنـانـي لتخـرج مـن فمـي — فأضحك من حالي، ويجتاحني قهري

(٥)

وقال (طبيب السنّ) صبراً لما ترى   فبعد طويل الصبر، ترضى عن الضرِّ
أفي الصبر (تدجين) لضيم يضيرنا   لتلك إذن، يا نفس، قاصمة الظهر
(أبا صابر) إني، كحالك، صابر   (وغسل دماغي) بات يبدأ بالصبر

* * *

الرِّضـاب

بين رشف الشعراء ووظائف الأعضاء

في الفم ست غدد لعابية، تفرز في اليوم ١ ـ ١,٥ ليتر من اللعاب. واللعاب ضروري لتزليق الطعام، وترطيب الفم، ومنع جفافه. وضروري أيضاً لتذوق الطعام والمواد، فلولا ذوبانها فيه لما شعر بطعمها اللسان. كما يحتوي اللعاب على خمائر هاضمة تبدأ بهضم الطعام منذ وصوله إلى الفم، وفيه خمائر تقتل الجراثيم(١).

ويحافظ اللعاب على منع المرارة في الفم، فقد تشير مرارة الفم إلى وجود علة مرضية عند الإنسان، حيث يتغيَّر طعم الأشياء ولو كانت ماءً زلالاً. وفي ذلك يقول الشاعر:

ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريض　　يجد مُرّاً به الماءَ الزلالا

ويعتبر اللعاب وسيلة للشعور بالعطش، فعندما تنقص السوائل في البدن يشعر الإنسان بجفاف في الحلق فيشرب الماء. وكثيراً ما نرى الخطباء يخطبون لساعات طوال، فكيف يمكنهم متابعة الحديث، وتزييت اللسان لولا اللعاب؟!

ولكن للرضاب وظائف أخرى عند الشعراء. فطالما افتتن الشعراء بالرضاب، والرضاب كما جاء في معجم (لسان العرب): ـ ما يرضبه الإنسان من ريقه كأنه يمتصه، وقيل: هو الريق المرشوف. ورضب ريقها: أي رشفه(٢).

---

(١) Guyton Medical Physiology

(٢) لسان العرب (١/ ٤١٨).

فالشاعر عمر بن أبي ربيعة يظنّ أن ريق حبيبته يحوِّل البحر المالح إلى عذب فرات، فيقول:

ولو تَفَلَتْ في البحر والبحرُ مالحٌ لأصبحَ ماءُ البحرِ من ريقها عذْبا

كما أن جميل بثينة يرى في ريق محبوبته الدواء والشفاء، فيقول:

مفلَّجة الأنياب لو أن ريقها يُداوىٰ به الموتى لقاموا من القبرِ

وكذلك يرى فيه ابن الرومي ما يطفىء نيران الوجد ولوعة الشوق:

أترى عليلَ الوجْدِ يُطفىءُ نارَه إلا رُضابُ الكاعبِ الغيداءِ

ويشبه عمر بن أبي ربيعة رضاب معشوقته بالسحاب الأبيض المتراكم بعضه فوق بعض، وقد أسقط البَرَدَ في وضح النهار. . يقول:

وكأنَّ ريقتَها صَبيرُ[1] غمامةٍ بَرَدتْ[2] على صحوٍ بُعيدَ ضَحاءِ

ويتمنى كشاجم أن يكون صحيفةً تمحو محبوبته كلَّ غلطٍ فيها برضابها، فيقول:

ورأيته في الطِّرسِ[3] يكتبُ مرةً غلطاً يواصلُ محوَهُ برضابه
فَودِدْتُ أني في يديه صحيفةً وودتُهُ لا يهتدي لصوابه

* * *

(١) الصبير: السحاب الأبيض المتراكم.
(٢) بَرَدت: أسقطت البَرَد، وهو حبُّ الغمام.
(٣) الطِّرس: الصحيفة، أو الكتاب الذي مُحي ثم كُتِبَ.

يعطيك من طرف اللسان حلاوة

تروي كتب الأدب أن زياداً طلّق امرأته حين وجَدَها لثْغاءَ، وقال: خشيتُ أن يجيء ولدي ألثغ. وقال:

لثغاءُ تأتي بحيْفَسٍ[1] ألثغِ   تميسُ[2] في الموْشِيِّ والمُصَبَّغِ

«واللثغة ـ كما جاء في لسان العرب ـ أن تَعْدِلَ الحرْف إلى حرف غيره. والألثغ: الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء، وقيل: هو الذي يجعل الراء غيناً أو لاماً أو يجعل الراء في طرف لسانه، أو يجعل الصاد فاء، وقيل: هو الذي يتحولُ لسانه عن السين إلى الثاء»[3] أو عن الشين إلى السين.

ذكروا أن رجلاً كان يهوى فتاة لثغاء.. وكان اسمها «رشا» فكانت إذا سُئلت عن اسمها تقول «رسا» فيتضاحك الناس ويشتد خجلها.. ولاحظ محبُّها ذلك فقال فيها:

يامَن تنزَّهَ عن عيبٍ محاسنُها   ولم يعبْها سوى هجرِ المحبِّ فقط
لم تلفظي الشين سيناً يا رشا غَلَطاً   بل لم يسع فمكِ الزاهي ثلاث نقطْ

ويتخذ اعوجاج النطق مظاهر عدة منها:

١ ـ عيوب إبدالية: وهي عبارة عن إبدال حرف بآخر؛ كإبدال حرف

---

(١) الحيفس: القصير السمين، وقيل: لئيم الخلقة قصير ضخم لا خير فيه. لسان العرب (٦/ ٥٤).

(٢) تميس: تتبختر وتختال.

(٣) لسان العرب (٨/ ٤٤٨).

الراء لاماً، والصاد سيناً؛ وهذا النوع من الأخطاء يشيع بين الأطفال الصغار.

٢ ـ عيوب تحريفية: وتحدث نتيجة لتعلم لغة أجنبية في سن مبكره، أو نتيجة لطغيان لهجة من اللهجات على الأخرى.

٣ ـ عيوب خاصة بتحركات اللسان في أوضاع غير صحيحة. ومن أمثلة ذلك إخراج الطفل لسانه خارج أسنانه، فيقلب بذلك حرف السين (تاء).

٤ ـ عيوب تتصل بالضغط. فبعض الحروف كاللام والراء تحتاج إلى درجة معينة من الضغط، يقوم بها اللسان على أعلى سقف الحلق؛ فإذا لم تتوفر هذه الصفة كان نطق الحرف غريباً وغير مألوف[1].

وسواء كان المرء ألثغ أم سليماً في نطقه، فالحديث العذب نسمات عليلة حلوة، تهب برقَّتها وصفائها على السَّقيم فتشفي فؤاده العليل... يقول أبو الفتح البستي:

بأبي من شفى فؤاداً عليلاً ... بكلامٍ حكى النَّسيم العليلا
زاد في طوله ارتياحاً إليه ... وغراماً به عريضاً طويلا
كرضاب الحبيب يروي غليلاً ... ثم ينشي إلى المزيد غليلا

وبعض الشعراء يشبِّه الحديث الجميل بتماثل المريض للعافية.. وهل هناك أجمل من تماثل المريض للشفاء من بعد مرضٍ عضال؟!

يقول أبو الحسن التنيسي:

زارني في دجا الظلام البهيم ... قمرٌ باتَ مؤنسي ونديمي
بحديثٍ كأنه عودة الصحةِ ... في الجسم بعد يأس السقيمِ
تتلقَّى القلوبُ منه قبولاً ... كتلقِّي المحموم بردَ النسيمِ

---

(١) «سيكولوجية ذوي العاهات والمرضى. للدكتور مختار حمزة ص٢٠٢ بتصرف.

ونظراً لجمال الحديث العذب وروعة بيانه، ورقَّة ألفاظه، فإن الشاعر يودُّ إعادة هذا الحديث الحلو، وتكرار كلماته الرخيمة حتى تطرب أذنه، ويلذُّ فؤاده. قال الشاعر:

وكنتُ إذا ما زرتُ سعدىٰ بأرضها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودَّ جليسها إذا ما انقضت أحدوثةٌ لو تعيدها

ومن الحديث العذب ما كان سبباً في لهيب فؤاد المحب وتعذيب فؤاده فهو لرقته ورخامته لو استقت به الصخر لجادها بأعذب من دمع الغمام.. بل هو أحلى وأطيب.

قال محمد بن أبي مروان:

وما كان من عطفٍ عليَّ حديثها ولكن لتعذيب الفؤاد المعذَّب
حديثٌ لو استسقتْ به الصخر جادها بأعذب من صوب الغمام وأطيب

ولعل الكلمات الرخيمة الناعمة التي تتسلسل رقة وعذوبة دليل على عذوبة ذاك الثَّغر الذي تناثرت تلك الكلمات الطيبة خلال ثناياه العذاب.

قال أبو تمام:

يعطيك منطقها فتعلم أنه لجني عذوبته يمرُّ بثغرها
وأظن حبل وصالها لمحبِّها أَوْهىٰ وأضعفُ قوةً من خصرها

وربما ناب خيال الحبيبة وطيفها الحبيب عن جمال رؤيتها وحسن حديثها إذا منعاهما الأهل والعذَّال عن العاشق المتيَّم. قال توبة بن الحمير:

وإن يمنعوا ليلى وحسن حديثها فلن يمنعوا عني البكا والقوافيا
فهلاَّ منعتم إذ منعتم حديثها خيالاً يوافيني مع الليل هاديا

وبعض العاشقين المتيمين لا يشفون مما هم فيه إلا بكلمات تتناثر من ثغر الحبيب.. يقول الشاعر:

ولو داواك كُلُّ طبيبِ ركبٍ بغير كلام ليلى ما شفاكا[١]

---

(١) حديث المرأة في الشعر العربي، للأستاذ محمد الخالد علوان. المنهل، العدد ٥١٠، بتصرف.

ومن أجمل ما جاء في وصف الحديث أبيات قالها ابن الرومي يصف فيها حديث حسنائه:

وحديثُها السحرُ الحلال لو أنَّه ... لـم يَجْـنِ قتـل المسلـمِ المتحـرزِ
إن طال لم يُمْلَل وإن هي أوجزت ... ودَّ المحـدِّث أنهـا لـم تـوجـزِ
شَـرَكُ العقـول ونـزهـةٌ مـا مثلهـا ... للمطمئـنِّ وعُقلـة المستـوفـزِ

ويعلق الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي على هذه الأبيات فيقول:

«فحديثها حلال لأنه في الحقيقة ليس سحراً، ولكن يصفه الشاعر بالحرام لأنه يغوي المسلم الورع، وإغواؤه مثل قتله.

وحديثها وإن طال ـ والإطالة عادةً مُمِلَّة ـ إلا أنه لا يُمْلَلْ.

وإن أوجزت (والإيجاز مرغوب فيه مبدئياً)، ولكن يودُّ السامع أن تطيل لعذوبة حديثها.

والعقول حرة في تصوراتها، ولكن تلك الحسناء بحديثها تقيّد حرية العقول وتستأسرها وتستأثر بها.

والنزهة خروج من البيت إلى الرياض والبساتين، ولكن لا حاجة للمطمئن في مجلسه معها أن يخرج إلى الرياض والبساتين؛ لأنها هي رياض بذاتها.

والمرء إذا همَّ بالقيام استوفز ثم انصرف إلى طيّته؛ لكن إذا سمعها المستوفز تتحدث تلبَّث، وبقي بين القعود والقيام»(١).

* * *

(١) مجلة «التراث العربي». أغسطس ١٩٩٥.

القهوة والشـــاي

بين السخط والرضا

تقول أسطورة شرقية: إنه كان في الحبشة رئيس دَيْر يشكو دائماً من أن رهبانه يغلب عليهم النعاس إذا ما قاموا للصلاة في منتصف الليل.. وجاءه يوماً جمَّالٌ وقصَّ عليه قصة غريبة، وهي أن في بطن ذلك الجبل أعشاباً إذا ما تناولتها الجِمال ظلت ساهرة طوال الليل. وسرعان ما أمر بإحضار بعض أوراق هذه الشجيرات، ثم غلاها وطلب إلى الرهبان أن يشربوا ماءها؛ ولشد ما كانت دهشته عندما لاحظ أنهم ينشدون صلاة نصف الليل بحماسة ونشاط غير معهودين.

وتقول أسطورة أخرى: إنّ الرعاة العرب لاحظوا أن أغنامهم كانت تأكل من ثمرة معينة، فيبدو عليها نشاط غريب. وقد أقبل الرعاة ذات مرة على هذه الثمار يتذوقونها فلم يستسيغوا طعمها، فألقوا بها إلى نار موقدة، فكانت لها رائحة ذكية عبقة، فعمدوا بعد ذلك إلى غلي هذه الحبوب بالماء ثم شربوه، وسموه «خمر الصالحين»؛ إذ كانوا يستعينون بتأثيره على قيام الليل[١].

وذكروا أن القهوة اكتُشفت في بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري في بلاد اليمن، وأن أول من استعملها الشيخ علي بن عمر الشاذلي اليمني، ثم فطن إليها الصوفية فاستعانوا بها على السهر على يد

(١) «من هو أول رجل شرب القهوة في العالم» مجلة «الجيل الجديد»، العدد ١٢٧ لعام ١٩٥٤ ـ عن كتاب «أدبيات القهوة والشاي» لمحمد طاهر الكردي.

جمال الدين الزنجاني اليمني المتوفى سنة ٨٧٥ هـ. ومن اليمن انتقلت إلى الحبشة والحجاز ومصر وغيرها من البلدان.

واهتم المؤلفون بأصل كلمة «قهوة» وثار الجدل واحتدم بين الفقهاء والأمراء والمحتسبين حول تحليلها وتحريمها، وصُدِّرت الكتب، ورُسِمت الفتاوى، وضُربت من أجلها رقاب وخربت بيوت، ورُمي شاربوها بالكفر والزندقة.. ثم أبيحت لهم.

ومن المعروف علمياً أن القهوة تسبب الأرق وقلة النوم عند كثير من الناس، وربما استفاد من ذلك من شاء قيام الليل للعبادة.

قال السيد محمد الحريري مفتي حماة:

هاتها قهوة خلاصة بنٍّ   مرة الذوق تدفع النوم عني
واسقنيها بالهال يعبق فيها   طيبها فوق طيبه وادن مني

وقال الشيخ محمد البكري:

شربنا قهوة من قشر بُنٍّ   تعين على العبادة للعباد

وتؤكد الأبحاث العلمية الحديثة أن للقهوة تأثيرات قوية على الجهاز الهضمي؛ فهي تزيد من إفرازات المعدة والأمعاء. كما أظهرت الدراسات أن القهوة تحرض إفراز هرمون الغاسترين الذي يزيد من النشاط الحركي للقولون.

يقول الشاعر:

شراب البن يهضم كل أكلٍ   ويشفي الجوف من داء مضرٍّ
ينقي الفم من طعم كريهٍ   ويقطع دمعة في العين تجري

ولكن بعضهم يشكو من حرقة في المعدة بعد شرب القهوة.

وفنجان من القهوة في الصباح أو بعد الظهر قد يخفف من الصداع. وفي ذلك يقول أحدهم:

قهوة لا صداع فيها نعم فيـ   ـها مزيل من الصداع يريح

إلا أن التوقف المفاجىء عن شرب القهوة عند المعتادين على شرب عدة فناجين من القهوة يومياً قد يؤدي إلى حدوث الصداع .

فوائـد القهوة ومحاذيرهـا :

لا يختلف الأطباء على أن للقهوة فوائد عدة، «فهي ـ كما يذكر كتاب Current الطبي الشهير في طبعة ١٩٩٧ ـ تزيد من القدرة على التفكير، وتنشط الدماغ». وفنجان من القهوة في الصباح يحسِّن الأداء، ويحفز التفكير . كما أن القهوة تنشط أداء الأعمال العضلية والرياضية .

وفي ذلك يقول الشاعر زين العابدين البكري (المتوفى عام ١٠١٣ هـ) :

اِسقني في الصباح قهوة بن   أوهجت نارها لهيباً ووقدا
كذب القائلون لا نفع فيها   فهي عون على فروض تُؤَدَّىٰ
وهي تنفي تكاسلاً وفتوراً   ومناماً لمن يحاول سهدا

وقد وجد الباحثون في جامعة جون هوبكنز الأمريكية أن الكافئين ـ الموجود في القهوة والشاي وغيرها ـ يحسِّن المزاج عند بعض الناس، ويمكن أن يلعب دوراً مضاداً للهمود . قال أحدهم :

يا قهوة تذهب همَّ الفتى   أنت لحادي العلم نعم المراد
شراب أهل الله فيها الشفا   لطالب الحكمة بين العباد

وقال آخر :

رُبَّ سوداءَ في الكؤوس تجلَّت   تهب الروح نفحة من حياة
عندما ذقتها تحققت منها   أن ماء الحياة في الظلمات

ويمدحها المحدث الأديب غرس الدين الخليلي فيقول :

دع الراووق إن رمت التداوي   وخذها فهي للأسقام تبري
سأسعى نحو مروتها ألبِّي   ويصفو بالصفا صدري ونحري
سأدمن شربها ما دمت حياً   ولا أصغي إلى زيدٍ وعمرو
هي الراح المريح لكل روح   ولم تمزج ولم تخمر بعصر

واختلفوا في أصل اشتقاقها، فقال الفخر أبو بكر ابن أبي يزيد في كتابه (إثارة النخوة بحلِّ القهوة) أنها من الإقهاء وهو الكراهة، ومنه سميت الخمرة قهوة لأنها تقعد شاربها من النوم، وتكرهه علىٰ الطعام.

أدرْهـا علينـا قهـوةً بـابليـة ... لهـا فـي فـؤاد العـاشقيـن دبيـبُ

وعُرفت القهوة في كل مكان دون إنكار، فكانت تُحتسى في البيوت والأسواق جهاراً لا خفية، بمكة وبالمسجد الحرام بالذات وفي المدينة. وصارت تُقدَّم في بيوت الأكابر والأعيان للضيوف. ثم أنشئت المقاهي التي كانوا يطلقون عليها إذ ذاك «بيوت القهوة». وقد اقترن فيها شرب القهوة بالغناء والطرب ولعب الشطرنج والميسر، وكانت الموبقات ترتكب باسمها، بحيث لفت ذلك نظر الفقهاء فدعوا إلى تحريمها ومصادرة أدواتها وتعزير شاربها.

وجيء بالأطباء فقرروا أن القهوة مفسدة للبدن، وخَتَم الشهود، ووَقَّعَ القضاة، ونودي في مكة بمنع تعاطي القهوة. ولم يشذ عن القضاة الموقعين القائلين بالتحريم إلا مفتي مكة الشيخ نور الدين بن ناصر الشافعي، فقد جهر برأيه واستمسك به، فلقي العنت والأذى.

وسرعان ما جهز هؤلاء القضاة سؤالاً وجهوه إلى علماء مصر يستفتونهم في أمر القهوة، وصدرت فتوى علماء مصر وجاء فيها «وأما القهوة فقد بلغنا أن أناساً يشربونها على هيئة شرب الخمر، ويخلطون فيها المسكر ويغنون عليها بآلة ويرقصون ويسكرون. ومعلوم أن ماء زمزم إذا شرب على هذه الهيئة كان حراماً، لهذا منع التظاهر بشربها والدوران بها في الأسواق». ومن ذلك يتبين أن الهيئة التي لازمت شرب القهوة أنكرها الذوق والشرع، في حين أن القهوة ذاتها لم تنص الفتوى على منع تعاطيها، بدليل أن السلطان لم يمنع ذلك في مصر.

وفي سنة ٩١٨ هـ قدم مكة الأمير قطلباي، فشاع شربها واشتهرت أكثر مما كانت قبلاً، وفي سنة ٩٣٢ هـ قَدِمها محمد بن عراق، فهاله ما يُرتكَب

مع القهوة في بيوتها من محرمات فأشار على الحكام بإبطالها مع التصريح بها في ذاتها، حتى توفي سنة ٩٣٣، فعاد الأمر كما كان[١].

ويحذِّر الأطباء من الإفراط في شرب القهوة والشاي، وخاصة عند المصابين بمرض في شرايين القلب، أو جلطة القلب، أو المصابين بارتفاع كولسترول الدم، أو الذين يشكون من الخفقان. كما أن أكثرهم يخالف الشاعر الذي ينصح بشرب القهوة كل ساعة ويقول:

عليك بشرب البنّ في كل ساعة ففي شربها يا صاح خمس فوائد
نشاط وإهباط وإذهاب بلغم ونور لأبصار وعون لعابد

فالإفراط الزائد في شرب القهوة والشاي قد يؤدي إلى اضطرابات عصبية كالرجفة والأرق والدوار، واضطرابات هضمية ونفسية.

* * *

وماذا عن الشاي؟

عندما اعترف الأديب الشاعر الانجليزي جونسون (١٥٧٣ ـ ١٦٣٧) بأنه يشرب الشاي، وأن الإناء الذي يضع فيه الشاي لا يبرد أبداً، اعتبره المجتمع الانجليزي رجلاً قليل الحياء، وخاصة أنه يتناوله علناً أمام النساء!!

وحتى عام ١٦٦٠ م، كان يُنظر إلى الشاي على أنها دواء قوي يحتوي على مواد كيميائية خطيرة لا يجوز استعمالها إلا من قبل الصيادلة في انجلترا.

ولم ينتشر شرب الشاي هناك إلا بعد أن أعلنت السلطات الطبية البريطانية أن شرب الشاي غير مأمون ما لم يُضف إليه الحليب. ومنذ ذلك

---

(١) «القهوة في آسيا وإفريقية» للأستاذ محمد محمود زيتون، مجلة نهضة إفريقية، يوليو ١٩٥٩، بتصرف.

وعادة شرب الشاي بالحليب في انجلترا عادة توارثها الآباء عن الأجداد.

ولست أدري كيف انتشرت عادة شرب الشاي بالحليب في بلادنا العربية، إذ يقول الشاعر:

إشرب من الشاي الشهي فإنه ... شرب الكرام وتحفة الجلاَّس
لا سيما إنْ بالحليب مزجته ... عند الصباح فشهوة الأنفاس

ويقال إن أول من شرب الشاي هو امبراطور الصين وذلك قبل ميلاد المسيح بـ ٣٢٥٤ سنة، حين كان يجمع من غصن شجرة الشاي زهوراً يغليها بالماء ليصبغ الأقمشة بصباغها، فسقطت أوراق من الغصن في الماء فغيَّرت لونه، فأعجبه ذلك اللون، وذاق الماء فاستساغ طعمه وشرب منه، وفي آخر النهار شعر أنه أحسن حالاً وأكثر نشاطاً.

ولاشك أن الشاي بما يحتويه من الكافئين ـ مثلُهُ مثلَ القهوة ـ ينشط الجسم، وينبه الفكر.

يقول الشاعر:

يقولون إن الشاي فيه مضرةٌ ... لقد أخطأوا فاشرب هنيئاً وبَسمِلِ
إذا كنتَ كسلاناً ولم تكُ ناشطاً ... وكنتَ ضجيعاً للهموم المثقّلِ
فبادر بشرب الشاي من بعد أكلةٍ ... تكونُ إذن في صحةٍ مُتَعَجِّلِ

ولكن الإفراط في شرب الشاي، وخاصة أثناء الطعام، قد يعيق امتصاص الحديد من قِبَل الأمعاء، ولهذا ينصح المصابون بفقر الدم أن لا يتناولوا الشاي أثناء الطعام لأن الشاي يقلل من امتصاص الحديد من الغذاء.

ويتابع الشاعر سرد نصائحه فيقول:

ولا تشربنَّ الشاي إن كنتَ جائعاً ... وبطنك خاوٍ من طعام مُتبَّلِ

وهذا صحيح فالشاي يحرِّض إفراز حمض المعدة في المعدة، ولهذا ينصح المصابون بقرحة المعدة بتجنب الشاي؛ إلا أن البعض يتغلب على

هذه المشكلة بإضافة شيء من الحليب والسكر إلى الشاي.

ولاشك أن إضافة النعناع للشاي تعطي المعدة والأمعاء جواً من الراحة والطمأنينة.. وفي ذلك يقول الشاعر:

لــه ريــحٌ مــن النعنــاع تشفــي بِهَبَّتِهــا المــريــضَ بــلا عــلاج

وللشاي تأثير مهضِّم، وخاصة بعد الوجبات الثقيلة. يقول الشاعر:

فيـه الفـوائـد مـن تهضيـم مـأكلنـا كـذاك قلـبُ شجـيٍّ نـالـهُ وسَـنُ

ويؤكد باحثون من جامعة كاليفورنيا في تجاربهم على الفئران أن للشاي الأخضر المنزوع الكافئين فعلاً مهدئاً.. يقول الشاعر:

طاب شرب الشاي فاشربه عسى أن يــزول الهــمَّ صبحــاً أو مَسَــا
إنمــا الشــايُ شــرابٌ طيــبٌ رشفــةٌ منــه تُــزيــلُ الهــوسَــا

ويقول الشيخ سليمان الحوت:

دعوا شربَكم للخمر فالخمرُ مسكرٌ وفي الشرع كل المسكرات حرامُ
وهيمـوا بشـربٍ لـلأتـاي[1] فـإنـه حـلالٌ وليس فـي الحـلال مـلام
وكــونــوا عليــه مــدمنيــن لأنــه شِفا النفس فيه إن عراها سقام
يثير نشاطاً يبسط الكف بالندى فمــن ثــم كــل الشــاربيــن كــرام
ويكشف غمَّ النفس سراً وجهرة ويــوقــظ جفــن العيــن حيــن تنــامُ

ولكن الأطباء يحذرون من الإفراط في شرب الشاي والقهوة. ويعرَّف المفرط في شرب الشاي بالذي يشرب ١٠ فناجين من الشاي العادي يومياً. ويبدو من أفرط في شرب القهوة أو الشاي متنبهاً.. قلقاً.. متحفزاً.. ويقظاً.

ولا تُعرف في الوقت الحاضر بدقة كمية الكافئين التي يمكن أن تؤدي

(١) يسمى الشاي في بلاد المغرب والشناقطة «الأتاي»، وغالباً يمزجون الشاي بورق النعناع، ويتغالون في أدوات الشاي المعدنية والفضية. وكل يقتني بحسب مكانته ومقدرته.

إلى الإدمان الجسدي والنفسي عليه، ولكن بعض الناس يذكر حدوث أعراض (الحرمان من الشاي)، كالشعور بالنعاس مثلاً، بعد التوقف عن شرب بضع فناجين من الشاي.

ويقول الأستاذ أحمد صافي النجفي:

يغيب شعور المرء في أكؤس الطلا ... ويصحو بكأس الشاي عقل المفكر
يعيد سرور المرء من غير نشوة ... فأحبب به من منعش غير مسكر
خلا من صداع أو نزيف كأنه ... سلافة أهل الخلد أو ماء كوثر
فلله أرض الصين إذ أنبتت لنا ... ألــذَّ نبــات بــالمســرة مثمــرُ

ويقول محمد كمال السراج الحموي:

تبدَّتْ لنا من خِدرها غادةُ الفرس ... صباحاً وذاك الثغر يفتر بالأنسِ
دنتْ من حِمانا فانتعشنا لقربها ... كمدلج ليلٍ راقهُ طلعةُ الشمسِ
مددتُ لها يمنايَ فاحمرَّ وجهُها ... حياءً كما وجهي تلوَّن بالوَرْس
وقـد صعَّـدتْ أنفـاسَهـا بحـرارةٍ ... وقالت: جهلتم قدرَ صاحبة الكرسي
فناشدتها من أنتِ؟ قالت بعزةٍ: ... أنا ابنة الشاه، فخفضتُ من رأسي
ولمـا رأتْ ذلـي لِـرفعـةِ قـدْرهـا ... على عِزتي، مع كُرهِ نفسي للرجسِ
فَرَقَّتْ وراقتْ ثمّ جادَتْ بِوَصْلِها ... وقالت: إليكَ اليَوْمَ باذلةٌ نَفْسِي
فَـقَبَّلْـتُ بِلَّـور المَـرَاشـفِ شـاربـاً ... رُضاباً حَلا طعماً وها ثغرها كاسي

وقد وجد عدد من العلماء في اليابان أن لأحد أنواع التانين في الشاي الأخضر فعلاً مقاوماً للسرطان[١].

ويبدو أن الشاي الأخضر أفضل من الشاي الأسود. والشاي الأخضر هو الأوراق الخضر للنبات التي يتم تجفيفها بسرعة بعد قطفها مباشرة. أما الشاي الأسود فهو الشاي الذي أُجريت له عملية تخمر. وفي الشاي الأخضر يقول الشاعر:

---

(١) عن كتاب «القهوة والشاي فوائدها وأضرارها» للمؤلف.

والأخضر الموصوف اِحذر تركه فوق الطعام فليس ذا من باسِ

الصراع بين القهوة والشاي:

بعض الناس يفضل القهوة على الشاي، وآخرون يرون عكس ذلك.

فمن الفريق الأول الشيخ محمد الحريري إذ يقول:

هاتها قهوةً خلاصةَ بنٍ مرَّة الذوق تدفع النومَ عني
أين منها الشاي الذي ذكروه فمن الشاي يا أخا الذوق دعني
إنما الشاي في الحقيقة نبتٌ جِلْدُه يابس كشيخٍ مُسنٍّ[(١)]

ومن الفريق الآخر الشيخ محمد المبارك الجزائري الدمشقي:

قهوة الشاي وهي ألطف قهوة لم تدع لي في قهوة البن شهوة
أبسوداء يعدل الشاي وهو الـ ـشاه، كلا، لتلكَ أعظمُ هفوة
لو درى الناس ماله من مزايا ما خطوا نحوها لعمرك خطوة
ما ابنة البن في الحقيقة إلا من جواريه صادفت حسن حظوة

* * *

(١) «تحفة العقلاء في القهوة والثقلاء» للأستاذ عبد العزيز الأحيدب.

ومن المدامة ما قتل!

شرب الخمور مشكلة تقضُّ مضاجع الغرب.. تقول دائرة معارف جامعة كاليفورنيا: «إنّ الخمر يُعتبر حالياً القاتل الثاني - بعد التدخين - في أمريكا. فشرب المسكرات هناك مسؤول عن موت أكثر من ١٠٠,٠٠٠ شخص سنوياً».

وجاء في كتاب Cecil الطبي الشهير في طبعة ١٩٩٦ أن الخسائر الكليَّة الناجمة عن مشكلة المسكرات في أمريكا بلغت ما قيمته ١٣٦ بليون دولار في العام الواحد. ويقدِّر الخبراء أن ربع الحالات التي تدخل المستشفيات الأمريكية سببها أمراض ناجمة عن شرب المسكرات»[١].

وليس هذا فحسب بل إن الخمر مسؤول عن إصابة أكثر من نصف مليون أمريكي سنوياً بحوادث السيارات.

وتتابع دائرة المعارف القول: «والمسكرات لا تسبِّب المشاكل في البيت أو على الطرقات فحسب، بل إن خسائر أمريكا من نقص الإنتاج وفقدان العمل نتيجة شرب الخمر تزيد عن ٧١ بليون دولار سنوياً. ناهيك عن الخسائر التي لا تقدر بثمن من مشاكل نفسية وعائلية واجتماعية»[٢].

ويحثُّ كتَّاب الجرائد والمجلات الأمريكية الناسَ على عدم تقديم المسكرات قبل العشاء - أثناء الحفلات التي يقيمونها - ويحثون أيضاً على

---

(١) عن كتاب cecil الطبي، طبعة ١٩٩٦.
(٢) عن كتاب: Encyclopedia of california university.

أن تصادر مفاتيح السيارات من المفرطين في شرب الخمر، حتى لا يقودوا أنفسهم إلى الموت».

وعلى الجانب الآخر من الأطلنطي نجد أوروبا ترزح تحت وطأة الخمور، إذ تذكر مجلة اللاَّنست البريطانية أن مئتي ألف شخص يموتون سنوياً في انجلترا بسبب الخمور.

وواحد من كل خمسة أشخاص يدخلون المستشفيات في اسكتلنده، يدخل المستشفى بسبب شرب الخمور وإدمانها.

ويقول الدكتور برنت: «إن واحداً من كل أربعة مرضى من الرجال الموجودين في مستشفيات مدينة جلاسجو يعانون من إدمان الخمور».

وتقدر الخسائر الناجمة عن شرب المسكرات في بريطانيا وحدها بـ ٢٠٠٠ مليون جنيه استرليني في العام الواحد.

أَبَعْدَ هذا الداء داء؟! . . يقول أبو نواس:

إن الشراب إذا ما كان من عِنبٍ — داءٌ وأيُّ لبيبٍ يشربُ الدَّاءَ

ويقول إسحاق بن سويد:

الماءُ فيه حياة الناس كلهم — وفي النبيذِ إذا عاقرتَهُ الداءُ

ويقول تقرير للكلية الملكية للأطباء في بريطانيا:

«لم يكتشف الإنسان شيئاً شبيهاً بالخمور في كونها باعثة على السرور (الوقتي) وفي نفس الوقت ليس لها نظير في تحطيم حياته وصحَّته.. ولا يوجد لها مثيل في كونها مادة للإدمان، وسماً ناقعاً، وشراً اجتماعياً خطيراً».

وفي هذا المعنى يقول أبو الفتح كشاجم:

يا خليليَّ جنِّباني الرحيقا — إنني لستُ للرحيقِ مطيقا
قد تيقَّنتُ أنها تطردُ — الهمَّ وتُبدي إلى السرور طريقا
غير أني وجدتُ للراحِ ناراً — تُلهبُ الجسمَ والمزاج الرَّقيقا
فإذا ما جمعتُها ومزاجي — حرَّقتني بنارها تحريقا

وجاء في كتاب «Safe Food» طبعة ١٩٩٦ :

«إن نصف عدد الجرائم في بريطانيا يقوم بها أناس سكارى، وثلث حوادث السيارات تحدث بسبب الخمر. والخمر مسؤول عن ثلثي حالات الانتحار، وخُمس حالات الاعتداء الجنسي عند الأطفال.

ويقدِّر الخبراء الانجليز أنَّ واحداً من كلِّ أربعة رجال، وامرأة من كلِّ عشرة نساء يشربون المسكرات إلى درجة تعرِّضهم لفقدان عائلاتهم.. أو عملهم.. أو صحَّتهم.. أو أصدقائهم.. أو الأربعة معاً»[١].

قال الشاعر:

أرى كلَّ قومٍ يحفظون حريمهم ... وليس لأصحاب النبيذِ حريمُ
إذا جئتهم حيَّوك ألفاً ورحَّبوا ... وإن غِبتَ عنهم ساعةً فذميمُ
إخاؤهم ما دامت الكأس بينهم ... وكلهم رثُّ الوصال شؤومُ
فهذا بياني لم أقل بجهالةٍ ... ولكنني بالفاسقين عليمُ

وقال أبو العلاء المعري:

عَدِّ عنْ شاربِ كأسٍ أَسْكَرَتْ ... فهو مثل الكلبِ في الرِّجس ولَغْ

ويصف المتنبي تأثيرات الخمر على العقل فيقول:

وجدتُ المدامةَ غلَّابةً ... تهيجِ وللقلب أشواقه
وأنفَسُ ما للفتى لُبُّهُ ... وذو اللُّبِّ يكره إنفاقه
وقد مُتُّ أمس بها موْتةً ... ولا يشتهي الموتَ من ذاقَه

والحقيقة أن أهم تأثير للكحول هو تخديره لخلايا المخ جميعاً، ولكن أهمّ الخلايا التي تصاب هي خلايا قشر الدِّماغ، وهي الخلايا المتحكِّمة في الإرادة، أو ما نعبِّر عنها بكلمة العقل.

يقول البروفسور لورانس رئيس قسم الطب العلاجي في جامعة لندنُ:

---

(١) عن كتاب Safe Food طبعة ١٩٩٦

«إن أول ما يُفقد من وظائف المخ بواسطة الكحول هو القدرات الدقيقة على الحكم والملاحظة والانتباه، أي الخصائص التي حصل عليها الإنسان بالتربية والتعليم التي تشمل مجموع قوى العقل والحكمة في الإنسان. وعند تناول الكحول يجد المتحدِّث نفسه ينطلق في الحديث دون أن يفكر في العواقب، كما أنه يفقد القدرة على التَّحكم في عواطفه. كما أن الكفاءة العقلية والبدنية تنخفض بتناول الكحول مهما كانت الكمية المتعاطاة قليلة»[1].

يقول قيس بن عاصم، وهو أوَّل من حرَّم الخمر على نفسه ـ كما يذكر الزركلي في الأعلام ـ وكان شاعراً اشتهر وساد في الجاهلية ووفد على النبي ﷺ سنة ٩ هـ فأسلم:

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها ... خصالٌ تُفسدُ الرَّجلَ الحليما
فلا والله أشربُها صحيحاً ... ولا أسقي بها أبداً سقيماً

وقال الشاعر:

بنتُ كرمٍ يتَّموها أمَّها ... وأهانوها.. وديستْ بالقَدَمْ
ثم عادوا حكَّموها بينهمْ ... ويلهم من جور مظلومٍ حَكَمْ

وقد شطَّرَ هذين البيتين علاَّمة حمص الشيخ مؤيد شمسي باشا رحمه الله فقال:

بنتُ كرْمٍ يتَّموها أمَّها ... لا لذنب قد جنتْه في القِدَمْ
واستباحوا ذُلَّها في شرعهمْ ... وأهانوها.. وديستْ بالقَدَمْ
ثم عادوا حكَّموها بينهمْ ... يُذهبون الهمَّ فيها والألمْ
سلبتْ ألبابهمْ واستحكمتْ ... وَيْلَهُمْ من جور مظلومٍ حَكَمْ

* * *

ويؤكِّد تقرير الكلية الملكية للأطباء في بريطانيا: «أن المخاطر الصحية

---

(١) Clinical Pharmacology . by Laurence .

المتعلِّقة بتعاطي الخمور ليست ناتجة بالدرجة الأولى من العدد القليل الذي يتناول الكحول بكميات كبيرة، ولكن الخطر الأعظم على الصحة العامة، هو من الأعداد الكبيرة التي تتناول الكحول باعتدال وانتظام».

ويقول كتاب « Alcoholism»: «إن التخريب الحاصل في أنسجة الجسم نتيجة شرب الخمر مرة واحدة يمكن أن يكون تخريباً دائماً غير قابل للتراجع» ولا غرابة حينئذ أن نجد رسول الله ﷺ قد حرَّم شرب الكحول مهما كانت الكمية صغيرة: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»(١).

وقد شاعت بين الأطباء والناس في الغرب فكرة تقول:

إن شرب القليل من الخمر يُنقص نسبة الوفيات من جلطة القلب.

ولكن البروفسور الشهير «Sheehy» يردُّ على ذلك في مقال نشر في مجلة Postgraduate Medicine فيقول:

«رغم أن بعض الأبحاث أشارت إلى أن الكحول قد يوسِّع شرايين القلب، فإن الخمر يهيِّىء لحدوث جلطة في القلب عند المصابين بضيق في شرايين القلب، كما أن شرب الخمر يسبِّبُ الذبحة الصدرية، واضطراب نظم (ضربات) القلب، واعتلالاً في العضلة القلبية، ويؤدي إلى الموت المفاجىء(٢).

ويحذِّر كتاب «The Food Revolution» من أخطار سهرة يُشرب فيها الخمر فيقول:

«إن سهرة يفرط فيها شارب الخمر في تناول المسكرات قد يؤدي إلى حدوث اضطراب شديد في ضربات القلب، وقد يسبب ذلك الموت الفجائي».

ولا غرابة أَنْ حرَّم الإسلام الخمر على إطلاقه فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي (صحيح الجامع الصغير ٥٥٣٠).

(٢) Postgrad Med 1992; 91, 271.

«كُلّ مسكر حرام، وما أسكر منه الفَرْقُ[1] فملء الكف منه حرام»[2]. ومن الأوهام المتعلِّقة بمنافع الخمر أنها تقوِّي الباءة وتزيد من القدرة الجنسية. ومنذ آماد طويلة والإنسان سادر في غيِّه وأوهامه.. ويشرب الخمر على أمل أن تزيد من قدراته الجنسية. ولكن الشاعر الانجليزي الموهوب شكسبير تنبَّهَ لهذه النقطة فقال عنها:

(It Provokes The desire But it takes away the performance).

أي: (إنها تحفز الرغبة، ولكنها تُفقد القدرة على التنفيذ)[3].

وأخيراً فإن مشكلة الخمور مشكلة عالميَّة لم يحلّها إلا الإسلام، وفي ذلك يقول المؤرِّخ العالمي أرنولد توينبي في كتابه «محاكمة الحضارة» (civilization on trial): إن الرّوح الإسلامية تستطيع أن تحرِّر الإنسان من ربقة الكحول عن طريق الاعتقاد الديني العميق، والتي استطاعت بواسطته أن تحقق ما لم يمكن للبشرية أن تحققه في تاريخها الطويل. ولقد استطاع الإسلام أن يحقق ما لم تستطع أن تحققه القوانين المفروضة بالقوة ومن خارج النفس. وها هنا نقول إن الإسلام يستطيع أن ينقذ الإنسانية من تأثيرات المجتمعات المدنية الغربية التي بَثَّتْ شباكها في أنحاء العالم أجمع».

وصدق الله تعالى حيث قال:

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ـ ٩١].

* * *

---

(١) الفَرْق: مكيلة تسع تسعمائه وعشرين رطلاً (المناوي).

(٢) رواه أبو داود والترمذي (صحيح الجامع الصغير ٤٥٥٢).

(٣) «الخمر بين الطب والفقه» للدكتور محمد علي البار ص٥٢.

الإيــدز

طــاعون العصر

جاء في تقرير لمنظمة الصحة العالمية صدر في ١ يوليو (تموز) ١٩٩٦ أن المنظمة قدَّرت عدد مرضى الإيدز في العالم منذ بداية الوباء وحتى الآن بثمانية ملايين مريض.

أمَّا عند الأطفال فقد أصيب ١,٦ مليون طفل حتى الآن بالإيدز؛ مات منهم ١,٣ مليون طفل، بعد أن أخذوه من أمهاتهم المصابات أثناء فترة الحمل والولادة.

ويصاب يومياً ٧٥٠٠ شخص جديد بعدوى فيروس الإيدز في العالم.

ويعتقد الدكتور مايكل ميرسون مدير البرنامج العالمي لمكافحة الإيدز أن عدد المصابين بالإيدز قد يبلغ أربعين مليون شخص حوالي العام ٢٠٠٠.

وكما هو معروف فإن المرض ينتقل عبر الساقطات والأشخاص الشاذين جنسياً. ففي تايلاند هناك أكثر من ٢٠٠ ألف شخص مصاب بالفيروس، أمَّا في الهند فإن ١٥٪ من مومسات بومباي مصابات بالفيروس، وفي مدن أخرى ترتفع النسبة إلى ٣٠٪، وقد حصدت السياحة الجنسية في العقد الماضي ١٤ مليون ضحية، وفي العام ٢٠٠٠ قد يرتفع العدد إلى ١٢٠ مليون ضحية. والإيدز هو الوكيل المعتمد لهذه السياحة الجنسية، في الداخل كما في الخارج.

فوفقاً لإحصاءات منظمة الصحة العالمية فإن هناك الآن مليون مصاب بمرض فقدان المناعة المكتسبة (الإيدز). وفي نهاية هذا القرن (أي بعد ثلاث سنوات) سوف يرتفع العدد إلى ٤٠ مليون مصاب.. غير أن إحصاءات أخرى تبدو أقل تفاؤلاً، ترفع العدد استناداً إلى وقائع ثابتة إلى ١٢٠ مليون مصاب.

والإصابة بفيروس الإيدز تأتي غالباً نتيجة للعلاقات الجنسية، أو لممارسة الحب، وفق القاموس الغربي. كما قد يحدث الإيدز عند مدمني المخدرات نتيجة استخدام «الحُقَن الملوَّثة». وقد يحدث نتيجة نقل دم ملوَّث بفيروس الإيدز ـ قبل أن تتبع القوانين الصارمة المتبعة حالياً بفحص كل عيِّنة من الدم.

يقول الساقي خلف البار في إحدى البارات ـ في تحقيق نشرته صحيفة الصانداي تايمز البريطانية وهو يراقب جموع الراقصين والراقصات في ليلة السبت:

«هل ترى هذا الصندوق هناك عند باب الخروج، وهل ترى حجم اللافتة التي تعلن عن البضاعة داخله؟.. حسناً؛ لقد وضعنا هذا الصندوق في ذلك المكان منذ عام، فهل تعلم كم زبوناً استخدمه طوال هذا العام؟ زبون واحد فقط.. وقد استخدمه بالغلط، وأقسم بالله على ذلك، فقد جاءني ذلك الزبون الثَّمِل يصرخ في مرارة أنه وضع جنيهاً في فتحة الصندوق على أمل أن يحصل على علبة سجائر، وليس على علبة من الكوندوم اللعين.

و«الكوندوم» هو «العازل» الذي اقترحت حكومة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا تزويد جميع الحانات وعلب الليل به، في حملة ضد «الإيدز» وصلت نفقاتها إلى ٨ ملايين جنيه استرليني.

ويتابع هذا الساقي القول: «أعتقد أن هؤلاء الشبان لا يهتمون على الإطلاق، بل إنهم في جنونهم المدوي يرون الجسد الفتي وليس الإيدز،

ومع ذلك الجسد يودُّون لو يمارسون الحبَّ. . حتى الموت»[١].

ويصاب مريض الإيدز بعذاب جسدي ونفسي كبير، فهو عرضة لأيِّ جرثوم مهما كان بسيطاً. . تهوي معه صحته إلى أسفل سافلين، فيصاب بالهزال والألم والحمى ويفقد شهيَّته للطعام، إضافة إلىٰ العذاب النفسي الكبير. وعذاب الإيدز ربما لا يقل عن أشد أنواع العذاب.

وقد انفعل الدكتور سعد عطية الغامدي عندما شاهد صورة مريض بالإيدز بَثَّتْها إحدى القنوات الفضائية في يوم الإيدز العالمي. فتدفق يرثي من هَجَرَ الفضيلة وارتمى في أحضان رغباته وشهواته، فضمَّه الشيطانُ فضاع. . وهي في الحقيقة صورة أحد الشاذِّين جنسيّاً الذي وقع في براثن الإيدز، بسبب شهواته وغرائزه الحيوانية. أمّا أولئك المساكين الذين أُصيبوا بالإيدز بسبب دم نُقل إليهم في الماضي، فلا ذنب لهم ولا جناية، ولا ينطبق عليهم ما جاء في وصف الدكتور الغامدي[٢]:

شاحب الوجه ذابلاً كالفتيلة ... واهناً ضامرَ القوام هزيلَه
قاصِرَ الطَّرف في انكسارٍ. . مهيناً ... بعدما كان في الحرامِ طويلَه
بائساً في مصابه من مماتٍ ... يدفعُ العار عن جباهِ القبيله
ودَّ لو يختفي إلى أينَ. . لكن ... كره الموت من هوانٍ رحيلَه
لفظتْ روحه الحياةُ. . ويأبى ... باطنُ الأرض في التراب نزولَه
عافَهُ الأهل والصحابُ وقامتْ ... تلعنُ الفاجرَ الذميمَ الحليله
واتقوا منه ملمساً واقتراباً ... مثلما تتقي النفوسُ الرَّذيله
فذوتْ في فؤاده كل ذكرى ... وانطوت في يمينه كلُّ حيله
وقلاه فراشُه وتمنَّى ... أن يغيب الشقيُّ لو بعض ليله
وتوارتْ رؤاهُ لم يبق منها ... غيرُ عارٍ على فراش خليلَه
أفرغتْ فيه سمَّها ثم فرَّتْ ... تجتوي حسرةً كأفعى قتيلهْ

---

(١) «الحب في زمن الإيدز» شوقي رافع ـ العربي، العدد ٤٢٣، فبراير ١٩٤٤.

(٢) «الطبيّة» العدد ٨١، فبراير ١٩٩٤.

أينَ ما كان من يفاعٍ ومجدٍ وشباب وقوةٍ وفحوله
يفتك الإيدز بالخلائق فتكاً دونه فتكةُ الحروبِ الطويله
نشر الرعب والوساوسَ حتى حَرَمَ الناسَ من حياةٍ جميله
والضحايا تغيبُ إثر الضحايا في ثيابٍ من السكوتِ ثقيله
وهو أشقى من الشقاء وأنكى من سقامٍ ومن هلاكٍ بِغِيلَهْ
إنه الداءُ.. لا شفاءَ لداءٍ أخرج الناسَ عن طريق الفضيله

وللشاعر الدكتور غازي مختار طليمات قصيدة بعنوان «القابض على الجمر» نقتطف منها هذه الأبيات:

أعيذُ فتى الإسلام من فتنِ العصرِ ومن شهواتٍ حوله بالهوىٰ تُغري
يساورْنَه من كل ناحيةٍ، فما له عاصمٌ من كرهنَّ سوى الصبر
يراودنه عن نفسه، وهو قابضٌ على دينه قبض اليدينِ على الجمرِ
أخاف عليه أن تزلَّ به الخُطا فيصرَعَهُ كيدُ الغوايةِ والسحر
فواحشُ قد أسفرنَ يخطرْنَ جهرةً خروجَ الأفاعي القاتلاتِ من الجُحْرِ
وخمرٌ وآفات أشدُّ ضراوةً بأعراق أصحاب السفالة قد تجري
بغايا على باب الهوان تبرَّجتْ بلا خَفَرٍ، يدعو المخازي للسترِ
وما لا تراه العين يدركُ سرَّهُ أطباؤنا، والموتُ يكمنُ في السرِّ
أقول - وقولي قولُ لقمان لابنه - كما ذكر القرآن في عاطر الذكر:
اقمْ يا بُنيَّ الخمسَ، إنَّ صلاتنا هي الدرعُ من نَبْل الكبائر والهُجْر
وأنّى تكنْ فأمرْ لداتكَ بالتقى وبالبرِّ والمعروفِ، وانْهَ عن النُّكر
ولا يخدعنْك الفاسقون ببهْرجٍ غرورٍ، لتزيين الضلالة والشرِّ
أأمصار أهل الغرب تُدعى حضارةً وعفّتُنا نبتُ التطرف والقهْر؟
أليس عجيباً أن تحُطَّ رحالُهم على البدر، والأخلاقُ تغرق في العِهْر؟
وأعجبُ من هذا وذاك سقوطُهم - وفيهم سراةُ الطب - في مرض العصر
فما أسعد المغروس في قمة التقى وما أتعس المغموس في حمأة الكفر!!

* * *

البدانة والنحافة
بين القبح والجمال

جاء في موسوعة Guiness Book of Records عن البدانة؛ أنَّ أعلى وزن سُجِّل في التاريخ الحديث كان لشخص أمريكي يدعى جون مينوك، فقد كان وزنه ١٧٨ كغ في عام ١٩٦٣ وارتفع وزنه إلى ٤٢٢ كغ عام ١٩٧٦، ثم وصل وزنه إلى ٦٣٥ كغ في عام ١٩٧٨.

حين أدخل المستشفى عام ١٩٧٨ احتاج حمله إلى اثني عشر رجلاً من رجال الإطفاء، وإلى ثلاثة عشر شخصاً ليقلبوه على سريرين ضُمَّا إلى بعضهما جنباً إلى جنب!!.

وخلال ستة عشر شهراً استطاع أن يخفض وزنه من ٦٣٥ كغ إلى ٢١٦ كغ (أي أنه فقد ٤١٩ كغ خلال هذه المدة). وفيما بعد زاد وزنه بمقدار ٨٩ كغ خلال سبعة أيام فقط في شهر أوكتوبر ١٩٨١.

أما أكثر النساء بدانة فكانت امرأة أمريكية تدعى «روزالي برادفورد»، حيث وصل وزنها إلى ٥٤٤ كغ في عام ١٩٨٧، وبعد أن أصيبت بفشل القلب، وُضِعَتْ على حمية استطاعت بها إنقاص وزنها إلى ١٢٨ كغ.

وتعرَّف البدانة بأنها زيادة الوزن بمقدار ٢٠٪ فوق الوزن المثالي. وتقسم البدانة ـ حسب توزيع الدهون في الجسم ـ إلى نوعين:

الأول: البدانة التي تصيب البطن والصدر (الجزء العلوي من

الجسم)، وهي عادة البدانة التي تصيب الرجال، وهي النوع الخطر من البدانة.

وفي مثل هذا يقول أبو الفتح كشاجم:

كــأنمــا قُــدَّامَــهُ بطنُــهُ راويــةٌ قــد نقصــت دلْــوا

أما النوع الثاني من البدانة: فهي التي تصيب الوركين، كما هي الحال عند النساء، وهي أقل خطورة من النوع الأول.

ويصف أحد الشعراء امرأة بدينة فيقول:

تمشــي فَتُثقلُهــا روادِفُهــا فكــأنهــا تمشــي إلــى خلــفِ

وقال علي بن أحمد في الخصر والأرداف:

تبغــي القيــامَ فَتُثنيهــا روادِفُهــا كــأنمــا حُمِّلَــتْ منهــن أوْسَــاقــا

وإذا كان الشعراء ينظرون إلى الخصر من وجهة نظر جمالية كما يقول المتنبي:

وخصــرٍ تثبــتُ الأبصــارُ فيــه كــأنَّ عليــه مــن حــدَقٍ نِطــاقــا

فإن الأطباء اليوم ينظرون إلى الخصر من حيث كونه مقياساً للبدانة. فإذا كانت نسبة محيط الخصر إلى محيط الوركين ما دون الـ ٨٥٪ كان الإنسان رشيقاً بعيداً عن البدانة.

* * *

والسُّمنة شائعة بين الجنسين على السواء بعد أواسط العمر، على الرغم من أنها أكثر شيوعاً بين الإناث قبل هذا السن. وإن زيادة ٥ كغ فيما بين الأربعين والخمسين من العمر يزيد نسبة الوفاة ٨٪، وزيادة ١٠ كغ يزيد تلك النسبة ١٨٪، وزيادة ١٥ كغ يزيدها ٢٨٪.

ولاشك أن أكثر أسباب السمنة شيوعاً هو تناول طعام أكثر مما يحتاج

إليه الجسم، وللأسف فكثير من الناس لا يأكل لإشباع جوعه، بل لإشباع شهيته.

قال ابن الأعرابي يصف شراهته للطعام:

قد هرَّمتْني قبل إبانِ الهَرمْ وهي إذا قلتُ كُلي قالتْ نعمْ
صحيحةُ المعدةِ من كُلِّ سَقمْ لو أكلتْ فيليْنِ لم تخشَ البشَمْ[1]

ورأى أعرابيٌّ رجلاً سميناً فقال له: أرى عليك قطيفةً من نسج أضراسك.

ويقول ابن الرومي:

ليس بالراجحِ مَنْ رجحانُهُ لحمٌ وشحمُ
من رأيتمْ بعد طالوتَ له جسمٌ وعِلْمُ

* * *

وهناك بعض العوامل الغذِّية التي قد تؤدي إلى السمنة، لكن السمنة غالباً ما تنشأ عن عادة تُنميها أمهات مفرطات في اللهفة على أولادهن خلال مرحلة الطفولة، وعن قلة النشاط البدني الذي يحرق الطعام الزائد، أو عن اللجوء إلى الطعام كوسيلة للتخلص من التوتر العصبي.

وقد وجد الباحثون أن ٨٠٪ من البدينين في سن المراهقة ظلُّوا بدينين فيما بعد: ولاشك أن السمنة تؤهب صاحبها لحدوث: مرض السكر، وارتفاع ضغط الدم، وارتفاع الكولسترول في الدم، ومرض شرايين القلب التاجية، وحصيات المرارة، والتهاب المفاصل التنكسي وخاصةً في مفصلي الركبتين، وضيق النفس، والنقرس، وآلام الظهر.

ولا ينصح باستخدام العقاقير في علاج السمنة. كما أن هناك خطورة شديدة في الحِمْيات التي تُنفَّذ على عَجَل، ففقدان الوزن على نحو سريع

---

(١) بَشِم من الطعام: أكل منه حتى أُتخم.

يمكن أن يؤدي إلى ضرر في القلب، وفي وظائف الجسم الأخرى.

وما نسمعه من حين إلى آخر عن برامج حِمية (ريجيم) تصف طرقاً عديدة لفقدان الوزن بسرعة، يعتبر أمراً خطيراً على الصحة بشكل عام. فبعضها ينصح بتناول عشرين أو ثلاثين بيضة في الأسبوع مثلاً وينهى عن السكريات؛ وهذا أمرٌ غير مقبول، فالإفراط في تناول البيض يزيد في الكولسترول والدهون في الجسم مما يضرُّ بالقلب والشرايين.

ولا تكون الحمية (الريجيم) المثلى بالاقتصار على تناول أطعمة خاصة، بل بتناول جميع أنواع الأطعمة المغذية، ولكن بنسبة أقل من المعتاد. والطريقة الفعالة في فقدان الوزن والثبات على ذلك هي في تطبيق تعديل بطيء وحكيم على ما أَلِفَه الشخص من عادات في الأكل، وزيادة نشاطه البدني بممارسة عادة المشي السريع أو الجري أو السباحة وغيرها.

وفوائد الحفاظ على وزن مثالي هائلة، منها إزالة الجهد عن القلب، وسهولة في التنفس، وتضاؤل في التعب، وتحسن المظهر البدني، وقلة الاستعداد للمرض، وزيادة بهجة الحياة، وقلة احتمال حدوث مرض السكر أو ارتفاع ضغط الدم أو دوالي الساقين.

* * *

أما النحول، فقد يكون خلْقياً نتيجة سبب وراثي أو بنيوي. وقد يكون مكتسباً نتيجة نقص شديد في الوزن. ويصف المتنبي مدى نحوله بالقول:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ لولا مخاطبتي إيَّاكَ لم ترَني

ويقول بشار:

إن في بُرْديَّ جسماً ناحلاً لو توكأتَ عليه لا نهدم

ويقول ابن الرومي مدافعاً عن نحوله:

يقول القائلون ضويتَ جداً ولم تنضجكَ أرحامُ النساءِ
ومن إنضاجها إيَّايَ أعرَتْ عظامي من لحومهم الوِطاءِ

إذا مــا كنــتُ ذا عــودٍ صليــبٍ فيكيفينـي القليــلُ مــن اللِحــاءِ

فإذا ما خُلقتَ نحيفاً صغير الجسم، فلا تبتئس ولا تحزن، واقرأ معي قول العباس بن مِرْداس:

تـرى الـرجـلَ النحيـف فتـزدريـهِ وفـي أثـوابـه أسَـدٌ هَصـورُ
بُغـاثُ الطيـر أطـولُهـا رقـابـاً ولـم تَطُـلِ البـزاةُ ولا الصقـورُ
ضِعـافُ الأُسْـدِ أكثـرهـا زئيـراً وأصـرمهـا اللـواتـي لا تـزيـرُ
وقـد عَظُـمَ البعيـرُ بغيـر لُـبٍّ فلـم يستغـنِ بـالعِظَـمِ البعيـرُ
يُنَـوَّخُ ثـم يُضـرَبُ بـالهـراوى فـلا عُـرْفٌ لـديـه ولا نكيـرُ
يُقَـوِّدُه الصبـيُّ بكـل أرضٍ ويَنْحَـرهُ علـى التـربِ الصغيـرُ
فمـا عِظَـمُ الـرجـالِ لهـمْ بـزيْـنٍ ولكـن زيْنُهـمُ كَـرَمٌ وخيـرُ

وهذا ابن الرومي يرى أنَّ القيمة ليست بالطُّول والعرض وإنَّما هي برجاحة العقل:

ونصيـفٌ مـنِ الـرجـالِ نحيـفٌ راجحُ الـوزنِ عنـد وزن الـرجـالِ
فـي أنـاسٍ أُوتـوا حُلـومَ العصـافيـرِ فلـمْ تغنِهـمْ جسـومُ البغـالِ

أمَّا نقص الوزن الشديد الذي يسبب النحافة فيعود إلى أسبابٍ عديدةٍ: منها نقص الوزن المتعمَّد باتباع حميةٍ خاصَّةٍ (ريجيم).

وقد يكون نتيجة ضعفٍ في الشهية للطعام، كما قد يحدث أثناء الهمود النفسي، أو الإصابة بالقرحة المعديَّة، أو الفشل الكلوي، أو القمه العصبي.

قال ابن الرومي:

كمـا تعـافُ الطيِّـب المُشْتهـى مـن الطعـامِ المعـدةُ الفـاسـدة

وقد يكون هناك اضطراب في الامتصاص في الجهاز الهضمي. كما أن هناك أمراضاً تسبب نقص الوزن كالالتهابات المديدة مثل: السل الرئوي، وفرط نشاط الغدة الدرقية، ومرض السكري، والأورام، وديدان البطن، وغيرها.

ومن الأسباب المهمة في النحافة: الحالة النفسية للمريض، فقد تُفقدُ الصدمةُ العصبيةُ الشهيةَ للطعام.

قال أبو نواس:

أنحلتْ جسمَهُ الحوادثُ حتى ... كادَ عنْ أعينِ الحوادثِ يخفى
لو تأمَّلتني لتُثْبتَ جِسمي ... لم تَبِنْ من كتاب وجهيَ حَرْفاً

وقد تؤدي الهموم المديدة إلى نقص الوزن والنحول. قال ماني الموسوس:

أماتريني ناحل الجسم ... أصيرُ من همٍّ إلى همٍّ

كما أن العشق والهوى يبعث على النحول.

قال البحتري:

ألا هل أتاها بالمغيب سلامي ... وهل خَبَرتْ وجْدي بها وغرامي
وهل علمتْ أني ضنيتُ وأنها ... شفائي من داء الضَّنى وسَقَامي
فِداؤكِ ما أبقيتِ مني فإنه ... حشاشة[1] جسم في نحول عظامي

ويعتقد مانيَ الموسوس أن سبب نحوله هو حسد الآخرين:

ها أنذا يُسْقطني لِلْبلى ... عَنْ فرشتي أنفاسُ عُوَّادي
لو يُحسَدُ السلكُ على دقةٍ ... حقاً لأمسى بعضَ حُسَّادي

ولاشك أن طلب المعالي والسهر في تحصيله أو السفر من أجله قد يُنحل الجسم كما يقول الحسين بن مطير الأسدي:

رأتْ رجلاً أودى بوافرِ لحمهِ ... طِلابُ المعالي واكتسابُ المكارم
خفيفَ الحشا ضَرْباً كأن ثيابَهُ ... على قاطعٍ من جوهرِ الهندِ صارمِ
فقلتُ لها: لا تعجبنَّ فإنني ... أرى سِمَنَ الفتيانِ إحدى المشاتمِ

ويصف الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه مؤمناً قام ليله بالعبادة والطاعات فأنحل جسمه ودقَّ عوده:

---

(١) الحشاشة: بقية الروح في الجسم.

قريحُ القلب من وجع الذنوب نحيلُ الجسم يشهق بالنحيب
أضرَّ بجسمه سَهرُ الليالي فصار الجسم منه كالقضيب
وغيَّر لونه خوف شديدٌ لما يلقاه من طول الكروبِ
يُنادي بالتضرع يا إلهي أقِلني عثرتي[1] واستر عيوبي
فزعتُ إلى الخلائق مستغيثاً فلم أرَ في الخلائقِ من مجيبِ
وأنت تجيبُ من يدعوك ربي وتكشف ضُرَّ عبدِك يا حبيبي
ودائي باطنٌ ولديك طبٌّ ومن لي مثل طبك يا طبيبي

* * *

(١) أقال عثرته: صفح عنه وتجاوز.

زواج الأقارب

تزعم العرب أن ولد الرجل من قرابته يجيء ضاوياً نحيفاً وفي هذا يقول الشاعر:

تجاوزتُ بنت العمِّ وهي عزيزةٌ　　مخافةَ أن يضوي عليَّ سليلي

وقال آخر:

فتىً لم تلده بنت عمٍ قريبةٌ　　فيضوى، وقد يضوى سليل الأقارب

والحقيقة أن زواج الأقارب ظاهرة تسجل أرقاماً قياسية في المنطقة العربية. فإحصائيات منظمة الصحة العالمية تشير إلى أن معدل الزيجاتِ بين الأقارب من الدرجة الثالثة (آباء أو أمهات أحد الزوجين يكونون أولاد عم أو أولاد خال) يصل إلى ٥٨٪ بين العراقيين، و٥٥٪ بين السعوديين و٥٤٪ بين الكويتيين، و٥٠٪ بين الأردنيين.

أما معدل الزيجات بين الأقارب من الدرجة الثانية (الزوجان أولاد عم أو خال) فيصل إلى ٣٢٪ بين الأردنيين و٣١٪ بين السعوديين، و٣٠٪ بين العراقيين والكويتيين[١].

ويتهم زواج الأقارب بأنه يساعد في نقل بعض الأمراض الوراثية جيلاً بعد جيل. «فالزواج بين الأقارب يُظهر الصفات والأمراض المتنحية التي كانت مختفية؛ إذ أن كلا الأب والأم المتقاربين في النسب يحملان كثيراً من الصفات المشتركة والمتنحيّة (بحيث أنها لا تظهر عليهم) فإذا اقترنا بالزواج زاد احتمال ظهور هذه الصفات المتنحية.

(١) «زواج الأقارب» للأستاذ عبد الستار عبد الله، مجلة الأسرة، آذار ١٩٩٦.

وعلى الرغم من أن الأمراض الوراثية المتنحية كثيرة، كـ«مرض ويلسون»، و«مرض تيساك» و«البرص الوراثي Albinism». . . غيرها[1]؛ إلا أنها أمراض نادرة في المجتمع.

ويحمل كل إنسان حوالي ١٠٠ ألف مورثة (جين) تحدد الصفات المختلفة له، ومن بينها ٧ ـ ٨ مورثات تحمل صفات أمراض ضارة وتنتقل من الآباء أو الأمهات إلى الأبناء جيلاً بعد جيل، وتظل متنحية (مختفية) يحملها الفرد ولا تظهر عليه كمرض أو عاهة على الأبناء. وبديهي أن تشابه هذه الصفات يزداد بين الأقارب.

وهناك الآن اختبارات معينة يمكن إجراؤها قبل الزواج للكشف عن وجود مرض وراثي معين، من خلال تحليل المورّثات (الجينات) والصبغيات (الكروموسومات).

وقد أمرنا رسول الله ﷺ بالتخير بأي طرق متاحة. فقال عليه الصلاة والسلام: «تخيَّروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم»[2].

وفي هذا إشارة إلى أن الاستشارة الوراثية في عصرنا الحاضر واجبة شرعاً؛ فكما أن الاستشارة الوراثية تقي الذرية من الأمراض الوراثية التي تنتقل في زواج الأقارب، فهي تقي الذرية من الأمراض الوراثية التي تنتقل في زواج الأباعد أيضاً.

* * *

(١) «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» للدكتور محمد علي البار، ص (١٥٤).

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم ـ صحيح الجامع الصغير (٢٩٢٨).

ماء الرجل هو المسؤول

تروي كتب الأدب أنه كان لأبي حمزة الأعرابي زوجتان، فولدت إحداهما ابنة، فعزَّ عليه، واجتنبها، وصار في بيت ضرَّتها إلىٰ جنبها. فأحسَّت به يوماً في بيت صاحبتها، فجعلت ترقِّص ابنتها الطفلة، وتقول:

مـالأبـي حمـزةَ لا يـأتينـا يظـلُّ فـي البيـت الـذي يلينـا
غضبـان ألاَّ نلـدَ البنينـا تـاللهِ مـا ذلـك فـي أيـدينـا
بـل نحـن كـالأرض لـزارعينـا نُنبُـت مـا قـد زرعـوه فينـا
وإنما نأخذ ما أعْطِينا

فعرف أبو حمزة قبح ما فعل، وراجع امرأته[1].

والحق أن أم حمزة كانت على صواب، فقد أكد العلم الحديث أن الذكورة والأنوثة في الجنين أمر تابعٌ لماء الرجل، فالحيوانات المنوية نوعان: نوع يحمل كروموسوم الذكورة (Y)، ونوع يحمل كروموسوم الأنوثة (X)؛ فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يلتقي الحيوان المنوي الحامل للكروموسوم (Y) بالبييضة ـ التي تحمل (X) دائماً ـ كان الولد ذكراً بإذن الله.

أما إذا كان التلقيح قد تم بين حيوان منوي يحمل كروموسوم (X) بالبييضة، فإن الولد سيكون أنثى بإذن الله.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٦].

والنطفة التي تمنى هي نطفة الرجل لا ريب.

---

(١) بهجة المجالس، وأُنس المُجالس للقرطبي (٢/ ٤٦٧).

«وقد وجد العلماء أيضاً أن الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الذكورة أسرع حركــة وأقوى شكيمــة في الغــالب من زميله الذي يحمـل شارة الأنوثة. . فالحيوان المنوي يسير حثيثاً، وينطلق كالصاروخ حتى يصل إلى موضع البييضة في ٦ ساعات تقريباً، فإن وجد البييضة جاهزة للتلقيح لقحها بأمر الله، وإلا فيبقى ساعات ثم يموت كمداً وحسرة!!.

وأما الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة، فيسير بطيئاً في الغالب، ولا يصل إلى موضع البييضة إلا بعد أكثر من اثنتي عشرة ساعة، وربما وصل في أربع وعشرين ساعة؛ فإذا وصل إلى موضع البييضة، ووجد الحيوانات الحاملة لشارات الذكورة قد سبقته إليها، مات حسرة وكمداً على جدارها؛ وإن وجدها تخلَّفت عنهم، ونزلت متباطئة بعد قدومهم ووفاتهم، فإن الفرصة تكون سانحة له بتلقيحها.

وهناك أبحاث حديثة تدل على أن تقلصات الرحم هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن شفط وسحب السائل المنوي المختلط بماء المرأة عند عنق الرحم إلى داخل الرحم، ولذا فإن سرعة الحيوانات المنوية المذكرة، والتي قيست في المختبر تصبح قليلة الجدوى في السبق إلى الوصول إلى قناة الرحم؛ إذ وجد أن الحيوانات المنوية المذكرة والمؤنثة والميتة تصل في وقت واحد تقريباً إلى قناة الرحم»(١).

أحِبُّوا البنات:

وفي الحض على حب البنات والإحسان إليهن يقول الرسول عليه الصلاة، والسلام: «من كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، أو بنتان، أو أختان، فأحسنَ صحبتهنَّ، واتَّقى الله فيهنَّ فله الجنة»(٢). وقال ﷺ:

---

(١) «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» للأستاذ الدكتور محمد علي البار، الطبعة العاشرة، ص١٣٣.

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

«من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو، وضمَّ أصابعه»[1].

وقال محمد بن سليمان: البنون نِعَمٌ، والبنات حسنات، والله عز وجل يُحاسبُ على النعم، ويجازي على الحسنات.

وقال منصور الفقيه:

أحبُّ البناتِ، فَحبُّ البنا ... تِ فرضٌ على كل نفسٍ كريمهْ
لأن شعيباً لأجل البنا ... تِ أخدمَهُ الله موسى كليمَهْ

وقال أيضاً:

لولا بناتي وسيِّاتي ... لذبتُ شوقاً إلى المماتِ
لأنني في جوارِ قومٍ ... نغَّصني قربُهمُ حياتي

وللشاعر حطّان بن المعلَّى ـ الذي قامت شهرته على هذه القصيدة ـ أبيات جميلة:

لولا بنيات كزغب القطا ... رُدِدْنَ من بعض إلى بعض
لكان لي مضطربٌ واسعٌ ... في الأرض ذات الطول والعرض

إلى أن يقول (والبيتان من أروع وأشهر ما قيل في هذا المعنى):

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لَوْ هَبَّت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني من الغمض

التهنئة بالبنات:

كتب أحدهم مهنئاً بالمولودة الجديدة فقال: «قد علمتَ أنهن أقرب من القلوب، وأن الله تعالى بدأ بهنَّ في الترتيب، فقال جلَّ من قائل: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

وما سمّاه هبة فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبُّل أحْرى. فأهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، وأولاد الأطهار، والمبشرة بإخوة يتناسقون، ونجباء يتلاحقون.

---

(١) رواه مسلم.

فلـو كـان النسـاء كمثـل هـذي لفُضِّلـتِ النسـاءُ علـى الـرجـال
فما التأنيثُ لاسم الشمس عيبٌ ولا التـذكيـرُ فخـرٌ للهـلالِ[1]

يقول الشاعر محمد راجح الأبرش معبراً عن فرحته بمولودة صغيرة رزقه الله تعالى بها:

قـالـوا أتتـك صغيـرة فـأجبتهـم الله يـرزق مـا يشـاء ويُـوهِـبُ
إنـي سعيـد إذ أتـت بسـلامـةٍ شـر الأنـام مـن البُنـيَّـةِ يغضـب
سبحان من أغنى الخلائق فضلهُ وهـو الـذي نسعـى إليـه ونـرغـب
وصغيـرتـي هـذي أراهـا بهجـةً أرنو إلى الوجه البريء وأكتب
تبـاً لعصـر الجـاهليـة اسمـه شرُّ العصور وبئس فيه المطلب
وأد البنـات وإنهـا لجـريمـة لا يـرتضيهـا عـاقـلٌ ومهـذَّب
نسعـى لخيـر صغـارنـا ونعيمهـم ولأجلهـم كـل العَنـاء محبَّـبُ

* * *

(١) زهر الآداب للقيرواني (٢/ ٤٠٣).

مَن شابَـهَ أَبَاهُ فما ظَلَم

قد يشبه الولد أباه، وقد يشبه أمه أو أخواله. . وقد يشبه أحد أجداده، وكثيراً ما أشار الشعراء إلى الشبه بالخال. وفي ذلك يقول الأصمعي:

سرى عِرْقُهُ في القوم حتى أصابهم   وللخـالِ عـرْقٌ لا ينـامُ ولا يَـكَـد

وفي المثل «عِرْق الخال نزَّاع» و«عِرقُ الخالِ لا ينام».

وقال آخر:

عليكَ الخالَ إن الخالَ يسري   إلى ابن الأختِ بالشَّبهِ المبينِ

وينصح شاعرٌ آخر بالنظر إلى أخ الزوجة وأبيها:

إذا أردتَ حُـرَّةً تبغيهـا   كـريمـةً فـانظـر إلـى أخيهـا

ينبيـكَ عنهـا وإلـى أبيهـا   فـإن أشبـاه أبيهـا فيهـا

وقال نجم الدين الوارسي:

لا تخطبـنَّ سـوى كـريمـةِ معشـرٍ   فـالعـرقُ دسَّـاسٌ مـن الطـرفيـن

ولكن علينا أن نذكر دوماً وصية رسول الله ﷺ: «اظفر بذات الدين تربت يداك»[1].

وقد لا يشبه الولد أياً من آبائه، فقد «جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ فقال: ولدت امرأتي غلاماً أسود، وهو حينئذٍ يعرض بأن ينفيه، فقال رسول الله ﷺ: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: فما ألوانها؟ قال: حمرٌ. قال: هل فيها من أورق (أسمر أو ما كان لونه كلون الرماد)؟ قال: إن فيها لورقاً. قال: فأنى أتاها ذلك؟ قال: عسى أن يكون نـزَعُه عِرْق. قال: فهذا

---

(١) متفق عليه.

عسى أن يكون نزعَهُ عرق، ولم يرخص له في الانتفاء منه»[١].

وقد دلَّ هذا الحديث على سعة علمه ﷺ مع قدرته التي لا تدانى في الحوار والإقناع، بحيث أرجع السائل إلى ما يعهده من إبله سائلاً إياه عن ألوانها، حتى إذا قرر السائل الحقيقة بنفسه كانت الحجة دامغة تملأ عقله وقلبه. وتزيل ما قد ران على قلبه من ظلال الشك القائمة في زوجته التي لم يكن لها من ذنب إلا أنها ولدت غلاماً أسود.

وعلم الوراثة الحديث يؤكد أن الشَّبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر، بل بعيداً كل البعد عن كلا الأبوين. وبما أن الصفات الوراثية قد تكون سائدة Dominant وقد تكون متنحية Recessive، فإن الصفات المتنحية لا تكون ظاهرة لا في الأب ولا في الأم. فإذا اتفق وكان كلا الأب والأم يحملان أحد هذه الصفات المتنحية فإن ربع أولادهم (تقريباً) ستظهر فيهم هذه الصفة المتنحية بصورة جلية. وهذا ما يجعل الزواج بين الأقارب يُظهر الصفات والأمراض المتنحية التي كانت مختفية. واختلاف لون المولود عن والديه يرجع إلى أن كلا الوالدين يحمل صفات سائدة ومتنحية في الألوان، وأن الصفات المتنحية قد تجتمع لدى أحد المولودين فتظهر فيه ولا تظهر في إخوته، وقد لا تظهر تلك الصفات المتنحية في الآباء ولا في الأجداد، ولكنها تظهر في بعض الأبناء[٢].

ويكشف العلم الحديث أن ضمن الجينات (المورِّثات) التي تقاس بالأنغستروم (جزء من عشرة مليارات جزء من المتر =١٠م) تكمن أسرار وأسرار يظهرها الله متى شاء. ومن ضمن تلك الأسرار الصفات والملامح التي تعطي الإنسان صفته وشكله واستعداده لكثير من الأخلاق والصفات البدنية والنفسية. فهذا حسان بن ثابت ينكر على ابنه ما اكتسبه من خاله من

---

(١) رواه الشيخان وأصحاب السنن الأربعة والدارقطني وأحمد.

(٢) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار ص(١٥٢ـ١٥٥) بتصرف.

صفات؛ فتردُّ عليه زوجته رداً مقنعاً حسب قوانين (مانْدِل) الوراثية..

يقول في ابنه من الأسْلَمية:

غلامٌ أتاه اللؤمُ من نحوِ خالهِ ... لـه جـانـبٌ وافٍ وآخـرُ أكشـمُ[1]

ويقصد أن أباه حرٌّ وأُمّهُ أَمَةٌ. فردَّت عليه امرأته تعاكسه:

غـلامٌ أتـاه اللـؤم مـن نحـو عمِّـهِ ... وأفضلُ أعراقِ ابن حسَّانَ أسْلَمُ

* * *

(١) الأكشم: الناقص الحسب.

ويجعل من يشاء عقيماً

عندما ضاقت الدنيا بأبي العلاء المعري واسودَّت في عينيه العمياوين؛ ألقى بمسؤولية معاناته على أبيه أحمد المعري، فقال بيته المشهور:

هــذا جنــاه أبــي علــيَّ ... ومــا جنيــت علــى أحــد

وكان أبو العلاء يرى العقيم سعيداً أيما سعادة، فلماذا الأولاد وتربيتهم؟!! يقول:

أرى ولَــدَ الفتــى عبئــاً عليــه ... لقــد سَعِـدَ الـذي أضحى عقيمـاً
فــإمَّــا أن يُــرَبِّيَــهُ عــدواً ... وإمَّـــا أن يخلِّفَـــهُ يتيمـــا
وإمَّـــا أن يُصـــادفَـــهُ حِمـــامٌ ... فيبقـــى حـــزنُـــه أبـــداً مقيمـــاً

وقال أيضاً:

قـد سـاءهـا العُقـمُ لا ضمَّـت ولا ولـدتْ
وذاكَ خيــرٌ لهـــا لـــو أُعطِيـــتْ رشـــدا

فهل تراه كان على صوابٍ فيما ذهب إليه؟

فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

وليست المرأة وحدها المسؤولة عن العقم، فقد أظهرت الدراسات أن ٣٠٪ من الحالات يكون سببها الزوج، و٣٠٪ من الحالات سببها الزوجة، وفي ٣٠٪ من الحالات الأخرى تكون الأسباب فيها مشتركة بين الزوجين وتظل ١٠٪ من الحالات لا يُعْلَم لها سبب.

ولفظ عقيم أو عاقر صفة تطلق على الرجل والمرأة في الوقت نفسه، ولا تحتاج إلى تاء التأنيث عندما توصف بها المرأة، فتقول: رجل عاقر وعقيم، وامرأة عاقر وعقيم أيضاً.

وعلاج العقم يعتمد أساساً على معرفة السبب، وعادةً ما يتجه الفحص أولاً للرجل ثم ينتقل إلى الزوجة فيما بعد.

وأسباب العقم كثيرة، ففي الرجل ـ غالباً ـ ينجم عن نقص أو انعدام الحيوانات المنوية النَّشِطَة التي تقوم بعملية الإخصاب.

أما في المرأة فقد يكون سبب العقم: خللاً في الجهاز التناسلي، أو اضطراباً في وظائف الغدد، أو التهاباً في الرحم أو المبايض، أو إصابتها ببعض الأمراض، أو الإصابة بمرض السكري، أو السمنة المفرطة... إلخ[1].

ويؤكد أبو العلاء أن المرأة بفطرتها تسعى إلى الإنجاب، فتذهب للطبيب لتحصل على دواء يساعدها على الحمل:

أتتكَ بِحَبْلٍ فتاةٌ غدتْ مسائلةً عن دواءِ الحَبَلْ

وقال أبو العلاء أيضاً:

قد بَكَرتْ لا يُعوِّقُها سَبَل[2] كَمُهْرَةِ الروضِ من بناتِ سَبَلْ[3]
إلى طبيبٍ على الطريق لكي تأخذ من عنده دواءَ حبل[4]

ومن الناس من يقنع بقضاء الله تعالى بعد أن يستنفد فُرَصَ التشخيص والعلاج، وقد تقدَّمت الآن وسائل التشخيص ومعالجة العقم بحمد الله، ومنهم من يتحسَّر ويقنط، وربَّ رجل حُرِم الذرية يقرأ قول عمر أبو قوس:

ولو كان لي طفلٌ على الشيب واحدٌ لكان لنفسي في دُجى الخطب كوكبا

---

(١) عن كتاب هاريسون.
(٢) السَّبل: المطر الهاطل.
(٣) بنات سبل: اسم للخيل.
(٤) دواء حبل: يقصد دواءً للحمل.

أرى فيه ريحاني وروحي وراحتي وبهجة أحلامي وعمري المخضَّبا

ولكن أبا الطيب المتنبي يرى أن السرور بالولد المحبوب ـ إن هو رُزِقَهُ ـ لا يدوم، وإنما هو تَعْليلٌ إلى وقت، وأنه ليس ممن يشتاق إلى نسلٍ، فمآل الحياة إلى الموت، ومآل النسل إلى القبر، والولد إذا عاش لقي من مكاره الحياة ما ينغص عليه عيشه ويسأم معه الحياة، وفي هذا تسلية لمن حُرِم الولد:

هل الولدُ المحبوبُ إلا تعلَّةٌ[1] وهل خلوةُ الحسناءِ إلا أذى البعلِ
وقد ذقتُ حُلواءَ البنين على الصبا فلا تحسبنّي قلتُ ما قلتُ عن جهلِ
هل الدهرُ أهلٌ أن تؤملَ عندَه حياةٌ وأن يُشتاق فيه إلى النسلِ

ولا يريد أبو العلاء أن يحظى بنسلٍ، فيقول:

لو أن بَنيَّ أفضلُ أهل عصري لما آثرتُ أن أحظى بنسْلِ
فكيف وقد علمتُ بأن مثلي خسيسٌ لا يجيءُ بغير فسْلِ

* * *

(١) التَّعِلَّة: التعلُّل.

الشحوب
عرض أم مرض

قال كعب بن سعد الغنَوي :

تقولُ سُلَيْمى ما لجسمكَ شاحباً كـأنّـك يحميـكَ الطعـامَ طبيـبُ

ولكن النمر بن تولب يستبعد أن تكون قلة الطعام سبباً للهزال فيقول :

وفي جسم راعيها شحوب كأنه هُزالٌ، وما من قِلَّةِ الطُّعم يُهزَلُ

وفي لسان العرب : «شَحُبَ شحوبَةً : تغيَّر من هزالٍ أو عملٍ أو جوعٍ أو سفر.

قال لبيد :

رأتني قد شحَبْتُ، وسلَّ جِسمي طِـلابُ النـازحـاتِ مـن الهمـومِ

وقال الشاعر :

وقد يجمع المالَ الفتى وهو شاحبٌ وقد يُدرِكُ الموتُ السَّمين البَلَنْدحا

والشاحب : المتغير اللون لعارضٍ من مرض أو سفر. وفي حديث الحسن :

لا تلقى المؤمِنَ إلا شاحباً، لأن الشُّحوب من آثار الخوفِ وقلة المأكل والتنعُّم»[1].

وللشحـوب فـي الطـب أسبـاب، فقـد يكـون بسبـب «نقـص صبـاغ

(١) لسان العرب (١/ ٤٨٥).

الميلانين» في الجلد. وقد تحدث هذه الحالة عند العاملين في الليل، أو عند عمال المناجم الذين لا يرون من ضوء النهار إلا النزر القليل.

وقد ينجم الشحوب عن تقبُّضٍ في الشرايين الصغيرة في الجلد. وقد يحدث ذلك أثناء هبوط ضغط الدم الشديد (صدمة Shock) أو الألم المبرح، وفقدان الدم الشديد، أو الإغماء، أو لدى التعرض للبرد القارس. وفي فقر الدم (أنيميا)، ينجم الشحوب عن نقص خضاب الدم (الهيموغلوبين) في أوعية الجلد. وهناك أسباب أخرى للشحوب: كالفشل الكلوي، ونقص نشاط الغدة الدرقية... وغيرها[١].

* * *

(١) عن كتاب Harrison الطبي.

خفيف الدم وثقيلـــه

أصيب الشاعر إبراهيم طوقان ذات مرة بفقر الدم، وأوصى الطبيب بضرورة إعطائه كمية من الدم فقال:

وطبيــبٍ رأى صحيفــة وجهــي   شــاحبـاً لـونُهـا وعُـودي نحيفَـا
قال: لابُدَّ من دمٍ لك نعطيه نقياً   مِــــلءَ العـــروق نظيفـــا
لــكَ مـا شئـتَ يـا طبيـبُ ولكـن   أعطنـــي مـــن دمٍ يكــون خفيفـا

وياليت المشكلة تقتصر على «خفة الدم» و«غلظته» إن جاز التعبير، رغم أنه ليس هناك دليلٌ علمي على ذلك، فخفة الدم وغلظته تكمن في روح الإنسان وقلبه، وليس في دمه!! فهناك أمراض يمكن لها أن تنتقل عبر الـدم المعطى للمريض كالإيـدز والتهـاب الكبد الوبـائي والـزهري والملاريا، وذلك إذا لم تُجْرَ الفحوص الخاصة للتأكد من سلامة الدم؛ إلاّ أن «بنوك الدم» تقوم حالياً بإجراء فحوص دقيقة جداً على الدم قبل إعطائه للمريض للتأكد من سلامته من تلك الأمراض، وبذلك يصبح احتمال انتقال الأمراض الإنتانية نادراً جداً. وليس هذا فحسب، فقبل اكتشاف الزمر الدموية في مطلع هذا القرن، كان نقل الدم يعتبر عملية خطيرة، كثيراً ما ترافقت بارتكاسات شديدة، بل وربما بالوفاة؛ فإعطاء دم من زمرة غير مناسبة لزمرة المريض قد يؤدي إلى ارتكاس شديد عند المريض.

أما الآن، ومع التقدم الكبير في التعرف على الزمر الدموية، فقد أصبحت عملية نقل الدم مأمونة في المعتاد، رغم أنه ما زالت تحصل

بعض الاختلاطات النادرة، ولذلك يقوم بنك الدم بإجراء فحوص دموية خاصة، على الدم المرغوب نقله للمريض للتأكد من عدم وجود أية مضادات أجسام في دم المريض لهذه العينة من الدم. وهذه الفحوص تسمى فحوص «توافق زمر الدم Compatability». ويستغرق إجراء هذه الفحوص حوالي الساعة من الزمن. أما إذا كان المريض ينزف بشدة ولم يمكن إجراء فحوص توافق زمر الدم، فيعطى المريض حينئذ دماً من زمرة (O) السلبية.

ويعطى المريض عادة حوالي ٥٠٠ مل من الدم على مدى ساعة إلى أربع ساعات، أما في الحالات الإسعافية فيمكن إعطاء ٥٠٠ مل من الدم خلال دقيقتين أو ثلاث[١].

* * *

(١) عن كتاب Current ، طبعة ١٩٩٧.

الحجامة والفصادة. . ورفقاً بالقوارير

ففي الحجامة قال عُتبة الأعورُ لإبراهيم بن شبابة كاتب المهدي ـ وكان أبوه حجَّاماً ـ:

أبـوكَ أَوْهـىٰ النجـادُ عـاتقَـهُ   كـمْ مـن كمـيٍّ أودىٰ ومِـنْ بَطَـلِ
يـأخـذُ مـن مـالـهِ ومِـنْ دمِـهِ   لـم يُمْـسِ مـن ثـارهِ علـى وَجَـلِ
لـهُ رقـابُ الملـوكِ خـاضعـةٌ   مـن بيـنِ حـافٍ وبيـنَ مُنتعِـلِ

والحجْمُ لغةً: المصُّ، وسمي به فعل الحاجم، لما فيه من مصٍّ للدم في موضع الشرط. والحجَّامُ: المصَّاصُ. والمِحجمُ: الآلة التي يُحجمُ بها، أي يُمَصُّ الدم بها. فإذا استعمل المحجمُ للمصِّ بدون مشرط، فيسمى هذا العمل عند العرب «الحجامة بلا شرط» ويسمى بلغة الطب «الحجامة الجافة». أما إذا استعمل بعد تشريط الجلد بالمشرط فيسمى «الحجامة الدامية».

وتشير المصادر اللغوية وكتب الحديث إلى أن الحجامة الشائعة عند العرب في العصر الجاهلي وفي عهد فجر الإسلام، هي «الحجامة الدامية» أي الحجامة بالشرْط. فعن سُمرْةَ رضي الله عنه قال: دعا النبي ﷺ حجَّاماً فحجمه بقرنٍ، وشرط بشفرةٍ، فرآه رجل من بني فزارة، فقال: يا رسول الله، علام تدع هذا يقطع لحمك؟ فقال: أتدري ما هذا؟ هذا الحجم، وهو خير ما تداويتم به»[1].

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح خلا حصين ابن أبي الحر ـ أحد الرواة ـ وهو ثقة.

وقد كانت الحجامة تجرى في عدة أماكن من الجسم ومنها «الأخدعين» وهما عِرْقان.

فكانت رقاب الملوك تخضع صاغرةً للحجّام كما يقول عُتبة الأعور:

لـه رقـاب الملـوكِ خـاضعـةٌ   مـن بيـن حـافٍ وبيـن مُنتعـلِ

وقد تكون الحجامة في الرأس أو الظهر أو غيرهما من أماكن الجسم.

* * *

وقال ابن العميد، وقد فُصد حبيبه فتأثر بذلك أشدَّ الأثر:

ويح الطبيب الذي جسَّت يداه يدَكْ   ما كان أجهلُه فيما قد اعتَمدكْ[1]

بـأيِّ شـيء تُـراه كـان معتـذراً   من جسِّهِ بحديدٍ مؤلمٍ جَسَدكْ

لـو أن ألحـاظَـهُ كـانـت مباضِعَـهُ   ثم انتحاك[2] بها من رقَّةٍ فصَدكْ

والفِصادة هي عبارة عن استخراج كمية من الدم من أحد أوردة المريض، إما لإنقاص كتلة الدم في جسمه بأخذ مقدار (٢٠٠ ـ ٥٠٠ ميلي ليتر)، وإما لأخذ مقدار من الدم لإجراء الفحوص المخبرية.

ولا يُجرى الفصد بالحديد في هذه الأيام، إنما بإبرة (حُقْنَة) تُدخل في الوريد، ولا تسبب عادة ألماً يُذكَر، اللهم إلا عند بعض الناس، حيث تكون الأوردة عميقة غير ظاهرة للعيان.

ويا ليت ألحاظ العيون تُغني عن وخز الإبر كما تمنى ابن العميد، إذن لاستراح مرضى المستشفيات ـ وخاصة في العناية المركزة ـ من كثرة وخزات الإبر لاستخراج الدم من حين لآخر!!!.

يقول القاضي الجرجاني وقد فصد حبيبه:

---

(١) اعتمد الشيء: قصده.

(٢) انتحى: مال إلىٰ ناحية.

يـا ليـتَ عينـي تحمَّلـت أَلَمـكْ	بل ليتَ نفسي تقسَّمتْ[1] سقَمَكْ
وليـتَ كـف الطبيـب إذا فَصـدتْ	عِرْقَك أجرتْ من ناظريَّ[2] دمكْ
كفُّـك أمضـى مـن حـدِّ مبضعـهِ	فالْحظْ به العِرْقَ واربَحْنَ أَلَمكْ

ولم تكن الإبر معروفة في أزمنة الطب القديم. وإنما كان المبضعُ (المشرط) هو الذي يستعمل في الفصادة.

روى الإمام مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله إلى أبيٍّ بن كعبٍ طبيباً فقطعَ منه عِرْقاً ثم كواه عليه».

والكيُّ في موضع الفصادة بالمبضع، إنما هو لإيقاف النزف بعد سيلان مقدار مناسب من الدم.

وقد رأتْ شمائلُ ذات يوم الدم يسيل على كفِّ المعتصم عند فَصْده، فتذكرتْ عبرات العشاق كيف تسيل مدراراً لا يهدأ لها حال، فكتبت على منديلٍ أهدتْه للمعتصم:

خضـبَ الخليفـةُ كفَّـهُ مـن فَصْـدِهِ	بـدمٍ يحـاكـي عبـرة المُشتـاقِ

وقال عبد الله بن بكر:

حسـدتْ نفسـي الطبيـبَ وقـالـت	ليـتَ كفِّـي مكـان كـفِّ الطبيـب
عجبـاً كيـف سـاعـدتْـه يَـدَاهُ	فصد ذاكَ المطرَفِ المخضوبِ[3]

وأهم دواعي الفصادة في عصرنا الحاضر هو مرض «كثرة كريات الدم الحمـراء Polycythemia» ومـرض Hemochromatosis، وذلـك للتخلص من بعض حديد الجسم. ونادراً ما تستعمل في علاج وَذْمَةِ الرئة (فشل القلب الأيسر الشديد) لإنقاص حجم الدم، وتخفيف العبء عن القلب.

---

(١) تقسَّمتْ: أخذت قِسْمَها ونصيبَها.
(٢) ناظريَّ: عينيَّ.
(٣) المخضوب: الذي خضبت يداه بالحناء وغيره.

روى الزجَّاج في «أماليه» عن أبي العباس المبرد أنه قال: دخلت على عبيد اللهِ بنِ عبد الله بن طاهرٍ وقد فُصِدَ، فظننت أن ذلك لعلَّة، فأكثرت له من الدعاء فقال: خفض عليك يا أبا العباس فليس ذلك لعلَّةٍ، وانظر إلى ما تحتَ البساطِ فنظرتُ فإذا رقعةٌ فيها:

حَلفَ الظريفُ بقطعهِ يدَه إذْ مسَّ من يهواهُ بالألم
حتى إذا ضاق الفضاء به جَعَلَ الفصادَ تحلَّةَ القَسَمِ

قلت: حسنٌ أيها الأمير فما سببه؟ قال: مددتُ البارحة يدي إلىٰ بعضِ الجواري بالضربِ، فألمت لما نالها من الألم، فحلفتُ بقطعِ يدي، فاستفتيتُ اليوم فأُفتِيْتُ بالفصد، ففعلت[1].

* * *

(١) الأمالي في المشكلات القرآنية والحكم والأحاديث النبوية، للزَّجاج، ص٦٢.

ومن آياته منامكم بالليل والنهار

رغم أننا نقضي ثلث عمرنا في النوم، فإن علماء الفيزيولوجيا كما يقول كتاب Cecil الطبي ـ طبعة ١٩٩٦ ـ لا يعلمون إلا القليل عن النوم، ولا يستطيعون الإجابة بدقة على سؤال يتردد على الشفاه «لماذا نحتاج إلى النوم»، وما هي الآليات التي تعطي الإنسان إحساساً بالراحة بعد النوم؟[١]

وكما يقول الدكتور «هوبسون» في كتابه «Sleep»: فإن الباحثين اكتشفوا أن الدماغ هو المستفيد الأول من النوم، حيث تنخفض القدرات الذهنية للإنسان عندما يخلد إلى النوم. ولعل في ذلك راحة للدماغ دون أن يفقد نشاطه، وليس الدماغ هو المستفيد الوحيد من النوم، بل إن في النوم سكناً وراحة للجسم كله»[٢].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [النمل: ٨٦]. والنوم نوعان: نوم تقليدي (النوم الهادىء): ويشكل الجزء الأعظم من النوم، وفيه يتباطأ نشاط الدماغ وعمليات الاستقلاب الحيوية في الجسم وتصل إلى أدنى مستوى لها. والنوع الثاني: ما يسمى بالنوم الحالم: وفيه يصبح الدماغ نشيطاً فجأة، وتكثر فيه الأحلام، ولهذا سمي بالنوم الحالم.

ويتعاقب هذان النوعان على شكل دورات؛ كل دورة تستغرق حوالي ٩٠ دقيقة، وتستمر دورات النوم على هذا المنوال: نوم هادىء يعقبه نوم

---

(١) عن كتاب cecil الطبي الشهير طبعة ١٩٩٦.

(٢) عن كتاب «sleep» للدكتور هوبسون.

حالم . . . وهكذا. ويمرُّ الإنسان خلال نومه بـ ٤ ـ ٥ دورات.

«والنوم الهادىء» هو الذي يعطي الراحة والسكينة للجسم، كما أنه يدعم إحدى وظائف النوم الكبرى، وهي تعويض الجسم ما خسره في يقظته، وترميم ما بلى منه وتخرَّب.

أما النوم الحالم فيتَّسم بحالة من نشاط جسمي عام. فموجات الدماغ تتسارع . . والقلب يتسارع في دقاته . . ويتصاعد إيقاع التنفس بين شهيق وزفير . . ويرتفع ضغط الدم ويحدث فيه الانتصاب عند الذكور، وتكثر فيه حركة الجسم، ويزداد تدفق الدم إلى الدماغ، وترى خلايا الدماغ وأعصابه تعمل في نشاط عظيم، وسرعة فائقة أثارت دهشة العلماء الباحثين . . . وقد يفوق نشاط خلايا الدماغ في هذا النوع من النوم نشاطه أثناء اليقظة.

ويعتقد بعض العلماء أن النوم الحالم يلعب دوراً في عملية التعلم والحفظ، فربما يقوم الدماغ خلال فترة النوم الحالم بإعادة برمجة ما دخل إليه من معلومات خلال النهار، مثلهُ في ذلك مثل «الحاسوب» الذي يحتاج بعد استعماله خلال النهار إلى فترة من الزمن لا يُشحنُ خلالها بأية معلومات (off line). ويقوم الحاسوب خلال تلك الفترة بعملية إعادة البرمجة (Reprogramming).

وهناك أمثلة كثيرة عن فنانين وعلماء كان نشاطهم الإبداعي يتواصل في حالة النوم، ومن هؤلاء شعراء مثل «كولردج» و«فيكتور هيجو» وعالم الرياضيات «فون نومان»، وغير هؤلاء ممن تركوا لنا شهادات كثيرة عن مسائل حُلَّت أو آثار بوشرت وأُنهِيَتْ خلال النوم.

ولعلَّ أغرب مثال على ذلك حالة عالم المنطق «نوربرت ڤينر»، فقد حدث له أن نام مراراً أثناء انعقاد المؤتمرات العلمية، لكنه كان يخرج من نومه بانتظام ليصحح خطأ أو يدقق في نقطة معينة من برهان ما.

ويقول ابن سينا: «ومهما أخذني أدنى نوم، كنت أرى المسائل بأعيانها

في نومي، واتضح لي كثير من المسائل بأعيانها في نومي».

ويقال بأن الشاعر الشهير «كولردج» كان قد وضع قصيدته الشهيرة «كوبلاخان» أثناء نومه!!.

* * *

والحقيقة أننا لا نعرف كم نحتاج من النوم؟ فهناك فروق كبيرة بين الناس، فمعظم البالغين ينامون ما بين ٦ ـ ٩ ساعات يومياً، وتنخفض هذه المدة إلى ٦ ساعات في مراحل الشيخوخة.

قال داود لابنه سليمان عليهما السلام: إياك وكثرة النوم، فإنه يُفقرك إذا احتاج الناس إلى أعمالهم[١].

وتختلف شخصية الناس الذين ينامون لفترة طويلة عن شخصية أولئك الذين لا يحتاجون إلا لفترة قصيرة من النوم. فصاحب النوم القليل يكون عادة من النوع الهادىء.. ولديه طاقة كبيرة.. ويكون محبوباً وناجحاً اجتماعياً.. له ثقة كبيرة في نفسه.. ونادراً ما يشكو من أي اضطرابات نفسية.

أما الأشخاص ذوو النوم الطويل فيكونون عادة ميالين إلى القلق والخجل والاكتئاب، وثقتهم بأنفسهم قليلة.. ويحملون همَّ وأعباء كل حدثٍ يمرُّ في حياتهم، ويحسبون له ألف حساب.. وهم أكثر عرضة للاضطرابات النفسية.

أما من الناحية الجسدية فلا يوجد أي فرق بين الفئتين حتى بعد إجراء أعقد الاختبارات الطبية عليهم.

يقول ابن القيم في صفة نوم النبي ﷺ: «من تدبَّر نومه ويقظته ﷺ وجده أعدل نوم، وأنفعه للبدن والأعضاء والقوى، فإنه كان ينام أول

(١) «بهجة المجالس وأنس المجالس».

الليل، ويستيقظ في أول النصف الثاني، فيقوم ويستاك، ويتوضأ ويصلي ما كَتَبَ الله له، فيأخذ البدنُ والأعضاءُ والقوى، حظَّها من النوم والراحة، وحظَّها من الرياضة مع وفور الأجر. وهذا غاية صلاح القلب والبدن، والدنيا والآخرة.

ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج إليه، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه، وكان يفعله على أكمل الوجوه، فينام إذا دعته الحاجةُ إلى النوم على شقه الأيمن، ذاكراً الله حتى تغلبه عيناه، غير ممتلىء البدن من الطعام والشراب»[1].

ويقال بأن نابليون بونابرت كان لا ينام إلا أربع ساعات كل ليلة، كما أن مارغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة قد أعلنت مراراً أنها لا تنام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات في الليل!.

ويقال أيضاً أن توماس أديسون المخترع الشهير لم يكن ينام أكثر من ساعتين في كل ليلة!!. ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام ولا الصحابة يسهرون الليالي الطوال يتحادثون ويتسامرون؛ بل كانوا ينامون بعد فترة قصيرة من العشاء.

يقول عليه الصلاة والسلام: «إياك والسَّمر بعد هدأة الرِّجل، فإنكم لا تدرون ما يأتي اللهُ في خلقه»[2] ويصف الله تعالى عباده المخلصين فيقول: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧].

يقول البروفسور أوزولد ـ والذي قضى أربعين عاماً يبحث في موضوع النوم ـ في جامعة أدنبره:

«إن أهنأ نوم هو ما كان في أوائل الليل، وإن ساعة نوم قبل منتصف

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد.
(٢) رواه الحاكم ـ صحيح الجامع الصغير (٢٦٧٠).

الليل تعدل ساعات من النوم المتأخر».

ويقول: «إذا كنتَ تريد أن تنام بسرعة حينما تخلد للنوم. فانهض باكراً في الصباح، وافعل ذلك بانتظام، فبذلك تحصل على أفضل أنواع النوم، وتكون أكثر سعادة، وأعظم نشاطاً طوال النهار»(١).

ألم يقل رسول الله ﷺ: «بورك لأمتي في بكورها»(٢).

ولكن السهر في طلب العلم والمعالي أمر محمود، بل هو مطلوب للوصول إلى أرقى الدرجات؛ يقول الشاعر:

يغوص البحرَ مَنْ طلب اللآلي ... ومن رامَ العُلى سَهِرَ الليالي
تـرومُ العِـزَّ ثـم تنـامُ ليـلاً ... لقد أطمعتَ نفسكَ بالمحالِ

ويدعو ابن الوردي في «نصيحة الإخوان ومرشدة الخلان» إلى هجر النوم في سبيل تحصيل العلم؛ إذ يقول:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل ... وقل الفصل وجانب من هزلْ
واطلب العلم ولا تكسل فما ... أبعد الخير على أهل الكسلْ
واهجر النوم وحصِّله فمن ... يعرف المطلوبَ يحقر ما بذلْ

ويهجو عليُّ بن الجهم قوماً فيقول:

أكثر ما يعرفُهُ القومُ ... الأكلُ والراحةُ والنومُ

ولكن البعض يقلب الليل نهاراً والنهار ليلاً، وخصوصاً في شهر رمضان؛ يقول العباس بن الأحنف:

أيها النائمون حولي أعينو ... ني على الليلِ حِسْبَةً وائتجارا
حدِّثوني عن النهار حديثاً ... أو صفوهُ فقد نسيت النهارَا

وقد يطول الليل على من يسهره؛ يقول أبو جُنْدُب الهُذليّ:

---

(١) عن كتاب «Sleep».
(٢) رواه الطبري (صحيح الجامع الصغير ٢٨٤١).

تعالوا أعينوني على الليل إنه   علـى كـل عيـنٍ لا تنـام طـويـلُ

ولكن الفرزدق يعتقد أن الليل لم يطل، ولكن من يعشق يسهر الليالي على نار من حرِّ الأشواق:

يقولون طال الليل والليلُ لم يَطُلِ   ولكن من يبكي من الشوق يسهرِ

وقال بشار أيضاً:

لـم يطـل ليلـي ولكـنْ لـم أنـمْ   ونفـى عنـي الكَـرى طيـفٌ ألـمّ

ومن يسهر الليل الطويل لابدَّ أن يصاب بالتثاؤب، ومن ثمَّ يتثاؤب من حوله؛ يقول أبو العلاء المعري:

تواصلَ حبْلُ النسْلِ ما بين آدمٍ   وبيني ولـم يُـوصَـلْ بـلامـيَ بـاءُ

تثـاءبَ عمـروٌ إذ تثـاءبَ خـالـدٌ   بعـدْوى، فمـا أعْـدَتْنـيَ الثـؤبَـاءُ

وزهَّدني في الخلقِ مَعْرفتي بهم   وعلمـي بـأن العـالميـنَ هَبَـاءُ

والتثاؤب: حركة لا إرادية تترافق عادةً بالشعور بالنعاس أو الملل، ويترافق التثاؤب ـ للحظاتٍ ـ بتسرُّع في دقات القلب، وتقبُّض خفيف في بعض الشعيرات الدموية، كما قد يسيل الدمع بسبب الضغط على الغدد الدمعية نتيجة حركات الوجه.

ولا يعرف بالضبط لماذا يحدث التثاؤب، إلا أن إحدى النظريات تقول: إن ما يثير التثاؤب هو ارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون في الدم، وبالتالي فهذه الحركة يمكن لها أن تطرد شيئاً من هذا الغاز، وبالتالي تزيد نسبة الأوكسجين في الدم[١].

وعودة إلى النوم:

فالنوم ـ كما يقول عبد الله بن عمرو بن العاص ـ على ثلاثة أوجه: نوم خُرْقٍ، ونوم خَلْقٍ، ونومُ حُمقٍ.

---

(١) عن كتاب Guyton's Medical Physiology.

فأما النوم الخرق: فنومة الضحى، يقضي الناس حوائجهم وهو نائم.

وأما نوم الخَلْق: فنوم القائلة نصف النهار.

وأما نوم الحُمق: فالنوم حين تحضر الصلوات.

ويقول الشاعر محذراً من نوم الضحى:

ألا إن نومات الضحى تورثُ الفتى خبالاً ونومـاتُ العُصَيْـرِ جُنـونُ

أما نوم القيلولة فهو أمر محمود. والقيلولة هي نومة نصف النهار والاستراحة فيه، وإن لم تكن نوماً.

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «قيلوا فإن الشياطين لا تقيل»[1].

وقد أكدت الدراسات العلمية الحديثة أن الجسم بحاجة إلى نوم القيلولة، وبرهنوا على أن القيلولة مفيدة في إعادة النشاط للجسم.

«وقد عُدَّت القيلولة ـ كما يقول د. صلاح يحياوي ـ في السنوات الأخيرة بمنزلة ترياق ضد مرض المجتمعات المتقدمة، ألا وهو الكَرْب (أو الضغوط النفسية)، ووسيلة ناجعة للحفاظ على التوازن الطبيعي للجسم، وبخاصة عند أولئك الذين عليهم أن يتحملوا يوم عمل شاق مستمر. وقد اتفقت آراء العلماء على الإشارة إلى أن الدماغ يعمل بعد القيلولة على نحو أجود، وأنّ سرعة البديهة تزداد.

وقد أصبحت القيلولة شيئاً مفيداً ومنتجاً، حتى أن بعض الشركات اليابانية والأوروبية قد هيَّأت مقيلات (المقيل: هو موضع القيلولة) خاصة من أجل هذه الممارسة، عندما اكتشفت أن الإنتاجية تتحسن بنسبة ٢٠٪ بعد هذه الغفوة.

ويقول الدكتور بروغتون أستاذ العصبية في جامعة أوتاوا في كندا:

---

(١) رواه الطبري. (صحيح الجامع الصغير ٤٤٣١).

«تضيع فوائد القيلولة إذا تجاوزت حدَّها، وينبغي ألا تتجاوز ما يتراوح بين ٣٠ و٩٠ دقيقة».

ومن مشاهير القُيَّال في العالم: نابليون بونابرت، وتوماس أديسون، وفيكتور هيجو، وبنيامين فرانكلين، وجورج بوش، وجاك شيراك.

وكان رئيس الوزراء البريطاني (ونستون تشرتشل) من القُيَّل، فقد اعترف ـ والحرب العالمية الثانية في أوجها ـ بأنه ينام القيلولة دوماً لتجديد قواه[١].

* * *

ولنتأمل أخيراً رأي عمر الخيام في فلسفة النوم؛ يقول:

أتدري لماذا يُصبحُ الديك صائحاً يرددُ لحن الروح في غُرَّةِ الفجر؟
ينادي لقد مرَّت من العمر ليلةٌ وها أنتَ لا تشعر بذاك ولا تدري

فاغتنم خمساً قبل خمس[٢]، فالحياة إلى زوال.

* * *

(١) القيلولة والقيال، د. صلاح يحياوي ـ الفيصل، العدد ٢٢٩.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، . وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك» (صحيح الجامع الصغير ١٠٧٧).

الأرق

بين تباريح الشعراء.. وتعليلات الأطباء

الأرق مشكلة تلازم النوم، وتقض مضاجع الكثيرين.. وما من امرىء إلا وقد عانى من الأرق في يومٍ من الأيام.

وقد يتخذ الأرق أشكالاً عديدة؛ فمن الناس من يجد صعوبة في دخول النوم في البداية، وآخرون يستيقظون من حين لآخر أثناء النوم، وفئة ثالثة لا تستطيع النوم لساعات وساعات.

قال بشار:

لخدَّيكَ من كفَّيْكَ في كل ليلةٍ إلى أن ترى وجه الصباحِ وِسادُ
تبيتُ تراعي الليلَ ترجو نفادَهُ وليس لِلَيْلِ العاشقين نفادُ

وقال أبو الطيب المتنبي:

ليالـيَّ بَعدَ الظاعنين شكولُ طوالٌ، وليلُ العاشقين طويلُ

ويشكو أبو نواس من تطاول الليل فيقول:

تطاول هذا الليل حتى كأنما على نجمه أن لا يعودَ يمينُ

ويظنُّ ديك الجن أن الأرق حِكرٌ على العاشقين فيقول:

من نام لم يَدْرِ طال الليلُ أم قَصُرا ما يعرف الليلَ إلا عاشقٌ سَهِرا

ولكن الحقيقة غير ذلك، فالقلق هو أكثر أسباب الأرق شيوعاً على الإطلاق. وللأرق أسباب عديدة: فمرض شخص عزيز عليك، أو خبر سيِّىء عن صديق أو قريب، قد يجعلك قلقاً وأرِقاً طوال الليل. والغضب

الشديد أو الحزن العميق قد يسبب القلق. والفقير الذي يفكر في لقمة العيش يأرق، والغني الذي يفكر في مشاريعه وأشغاله يأرق، والطالب الذي سيواجه امتحاناً في غده يأرق. وقد يكون سببه مشاكل الزواج أو عدم القدرة على الزواج، أو هموم الحياة بما فيها من أفراح وأتراح.

يقول امرؤ القيس:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله   عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلي   بصبحٍ، وما الإصباحُ منك بأمثلِ

ورحم الله المتنبي حين وصف حالة الإنسان القلِق فقال:

كريشةٍ في مهب الريح ساقطةٍ   لا تستقرُّ على حالٍ من القلقِ

ولكن الإنسان المؤمن يدرك معنى قول رسول الله ﷺ:

«احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»(١).

وليذكر الإنسان في لحظات الأرق قبل نومه نعم الله الكبيرة التي أسبغها علينا، ويردد دعاء رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا، وآوانا. فكم من لا كافي له ولا مأوى»(٢).

وليذكر قول الشاعر:

دع المقاديرَ تجري في أعنَّتها   ولا تَبيتَنَّ إلا خاليَ البالِ
ما بين غفوةِ عينٍ وانتباهتها   يغيِّرُ الله من حالٍ إلى حال

وما أروع بساطة الحياة مع القناعة والأمن والأمان؛ يقول أحدهم:

عيشٌ وملحٌ ولا خوفٌ يكدِّره   أحلى من الشهد تخشى عنده الخطرا

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه مسلم.

ولعلَّ الليل يطول ويقصر باختلاف الأحوال؛ يقول أحدهم:

ليلُ الهوى سَنَةٌ في الهَجْر مدَّتُهُ ... لكنه سِنَةٌ في الوصلِ مِنْ قِصَرِه

ويقول كشاجم:

عهدي بنا ورداءُ الوصلِ يجمعنا ... والليلُ أطولُهُ كاللمحِ بالبصَرِ

فالآن ليليَ مُذْ غابوا فديتهمُ ... ليلُ الضريرِ فصبْحي غَيرُ مُنتظَرِ

وقال عتَّاب الشيباني:

إن الليالي للأنام مناهِلُ ... تُطوى وتُنشرُ بينها الأعمارُ

فقصارهنَّ مع الهموم طويلةٌ ... وطوالهنَّ مع السرور قصار

ومن أسباب الأرق مرضٌ في الجسم، كالحمىٰ أو آلام البطن أو الظهر أو المفاصل وغيرها، وكثير من الناس ينسى أن القهوة أو الشاي منبه قوي قد يحرم المرء من النوم ويسبب له الأرق.

كما أن تناول وجبة دسمة أو ثقيلة قبل النوم كثيراً ما يسبب عسر الهضم الذي يحرم الإنسان من النوم... وقد يتناول المرء حينئذ مزيداً من السوائل أو الطعام ليشغل نفسه فيزدادُ أرقاً على أرق.

والحقيقة أن كثيراً من الأمراض تبدأ في الطبق.. وما أجمل قول رسول الله ﷺ: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع».

وقد أدرك ابن الرومي سبب الداء حين قال:

فإن الداءَ أكثرُ ما تراهُ ... من الأشياء تحلو في الحلوق

ويقول الشاعر خلف بن فرج الشهير بالسُّمَيْر - وهو من شعراء الأندلس:

يا آكلاً كلَّ ما اشتهاه ... وشاتِمَ الطبِّ والطبيب

ثمارَ ما قد غرستَ تجني ... فانتظر السقم من قريب

وبعض الناس لا يستطيع النوم بسبب ما حوله من ضجيج، ضجيج

الشارع والسيارات، أو ضجيج الجيران والرائي (التلفاز)، أو المذياع والمسجِّلات.

والغريب أن الأم تستيقظ لسماع أدنى صوت يصدره طفلها النائم، في حين قد لا تستيقظ لسماع أصواتٍ أقوى صادرة عن أشياء أخرى لا تهمها!!. ويقال بأن صوت المدافع لم يكن يوقِظ نابليون بونابرت حينما يكون نائماً في مساء معركة يعتبر نفسه منتصراً فيها منذ البداية.

ومن أسباب الأرق: العمل في الليل، والطيران لمسافات بعيدة؛ فإن هذا قد يسبب خللاً في نظام الساعة البيولوجية في الدماغ، فيضطرب النوم ويَحُلُّ الأرق.

وهناك أدوية تبعث على الأرق، كما أن مادة النيكوتين الموجودة في التبغ مادة مثيرة للدماغ، ويمكن أن تسبب الأرق.

وعودة إلى الغزليات، فكم يكثر فيها الحديث عن الأرق:

يقول أبو الطيب المتنبي:

أرقٌ على أرقٍ ومثلي يأرقُ ... وجوىً يزيدُ وعَبْرةٌ تترقرقُ
جُهدُ الصبابة أن تكون كما أرى ... عينٌ مُسهَّدةٌ وقلبٌ يخفقُ
وعذلتُ أهل العشق حتى ذُقتُهُ ... فعجبتُ كيف يموتُ من لا يعشقُ
وعذرتهمْ وعرفتُ ذنبي أنني ... عيَّرْتهمُ فلقيتُ منه ما لقوا

وقال العباس بن الأحنف:

نام من أهدى إلي الأرقا ... مستريحاً زادني قلقا

وفي هذا المعنى يقول عكاشة القِمِّي البصري:

هذا هواكِ قسمتهِ بين الورى ... ومنحتني أرقاً وطرفكِ راقدُ
فعليَّ منه اليوم تسعةُ أسهمٍ ... وعلى جميع الناس سهمٌ واحدُ

ولكن أبا الضياء يدعو أن لا يصيب من يهوى ما أصابه هو فيقول:

انظر إلى ناظرٍ قد شفَّهُ السَّهدُ ... واعطفْ على مهجةٍ أودى بها الكَمَدُ

لاذقتَ ما ذاقه من أنتَ مالِكهُ ولا وجـدتَ بـه مثـل الـذي يجـدُ

وتروي كتب الأدب أن المعتضد بالله أرِقَ ذاتَ ليلة، فنظم هذا البيت:

ولمَّا انْتبَهْنَا للخيال الذي سَرىٰ إذا الـدَّارُ قَفْـرٌ والمـزارُ بعيـدُ

ولم يستطع أن يثنيَهُ ببيتٍ آخر، فأرسل إلى ندمائه يطلب منهم إجازته بما يوافق ما في ضميره، فأطرقوا ولم يُفتح عليهم بشيء. فقال ابن العلاَّف الضرير:

فقلتُ لِعيني: عاودي النومَ واهجعي لعـلَّ خيـالاً طـارقـاً سيعـودُ

فسُرَّ به المعتضد وأمر له بجائزة.

* * *

أضغاث أحلام . . أم طيف خيال؟

ما من أحد منا إلا ويرى في ليله بضعة أحلام. ولكننا ننسى معظم تلك الأحلام. ولا نذكر منها إلا تلك التي تؤثر فينا حتى لتخرجنا من غمرة النوم. وخلال فترة النوم الحالم ـ الذي تكثر فيه الأحلام ـ تكون معظم العضلات ـ باستثناء عضلات القلب وجهاز التنفس والعينين ـ في حالة شلل تام. وهذا ما يفسر بعض الأحاسيس التي (يعبر عنها البعض بكلمة الكوابيس)، والتي لا يستطيع معها النائم حراكاً.

ويقول علماء النفس أن حظ الرجال من الأحلام الكريهة أكثر من حظ النساء منها بخمس مرات.

ويذكر علماء الحيوان أن الحيوانات تحلم. فالطيور تحلم بمقدار خمسة في المئة من مجمل نومها. والتماسيح تحلم بدرجة أكبر من الطيور، والقطط والكلاب تحلم بمقدار خُمس نومها، ولكن الأسماك والسلاحف والثعابين لا تحلم مطلقاً!!. وقد دلَّت الأبحاث العلمية الحديثة على أن هناك نوعين من الأحلام، فمنها ما ينجم عن مشاعر وأحاسيس في العقل الباطن، ومنها ما يكون نتيجة تفكير عقلي ومنطقي، وقد تكون نتائج هذا النوع من الأحلام في بعض الأحيان حلاً لمعضلة اجتماعية أو اكتشافاً علمياً.

ومن تلك الأحلام الاختراعية حلم رآه (أوجست كيكولي) الذي كان يبحث طويلاً لمعرفة التركيب الكيميائي للبنزين، فقد أعلن أمام المؤتمر العلمي في جامعة غنت عام ١٨٩٠ م: «أدرت الكرسي جهة النار، وغلبني النعاس. . ومرة أخرى أخذت الذرات تتناثر أمام عيني، وكانت جميعها

تتلوى فيما يشبه حركة الثعبان. ولكن انظر.. ماذا؟ إن أحد الثعابين قد أمسك بذيله، وبرزت الصيغة الكيميائية ساخرة أمام عيني واكتشفت نظرية الحلقة التي وضعت أساس تركيب البنزين».

وكثيراً ما حاول الشعراء أن يجدوا لأنفسهم متنفساً لآلامهم، ومخرجاً مما هم فيه من ألم الفراق، فإذا هم يتخيلون طيف المحبوب، وأنه يزورهم في المنام قاطعاً المسافات الشاسعة دون مشقة أو عناء، ودون رقيب أو عَذُول. وقد نظم الشعراء الكثير من الشعر في «طيف الخيال»، فقد تحدث عن طيف الخيال: الحصري في «زهر الآداب»، ومحمد بن داود الظاهري في «الزهرة»، والأصبهاني في «محاضرات الأدباء».

ولكن أعظم من كتب عن هذا الموضوع بحق هو: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (المتوفى عام ٤٣٦ هـ) في كتابه «طيف الخيال».

قال ابن داود الأصبهاني:

فلما تفرَّقنا وشطَّت بنا النوى ... قنعتُ بطيفٍ منكِ يأتي مُسلِّما
فساعفني وهناً خيالُك في الكرى ... فزارَ وحَيَّا ثم قام فسلَّما
بنفسي وأهلي من خيالٍ ألمَّ بي ... فداوَىٰ سِقامي ثم بان فأسقما

وقال عنترة:

وإن نام جفني كان نومي عُلالةً ... أقولُ: لعلَّ الطيف يأتي يُسَلِّمُ

وقال أحدهم:

وزارني طيفُ مَنْ أهوى على حَذَرٍ ... مِنَ الوشاةِ وداعي الصبح قد هتفا
فكدتُ أوقظُ مَنْ حَوْلي به فَرَحاً ... وكاد يهتك سِترَ الحب بي شغفا
ثم انتبهتُ وآمالي تكذِّبني ... نَيْلَ المنى فاستحالتْ غبطتي أسَفَا

ومن الأحلام المشهورة في الأدب العربي قصة رجل توفي عن زوجة شابة جميلة حزنت عليه طويلاً، ثم حملها صواحبها على الزواج، فأذعنت

لهنَّ، لكنها رأت في المنام ليلة الزفاف خيال زوجها الأول يقول لها:

حيِّيتُ ساكنَ هذا البيت كلهم | إلاّ الربابَ فإنّي لا أحييها
أمستْ عروساً وأمسى مسكني جدثاً | بين القبور وإني لا أُلاقيها
واستبدلتْ بدلاً غيري وقد علمتْ | أن القبور تواري مَنْ ثوى فيها
قد كنتُ أحسبُها للعهد راغبةً | حتى تموتَ وما جفَّت مآقيها

ففزعت مما رأت فزعاً شديداً، وآلتْ أن لا يصل إليها رجل بعده أبداً.

ومن القصص التي تُروى عن الأحلام؛ قصة امرأة من بني يشكر كانت عند ابن عم لها يدعى «غسان بن جهضم» وكان اسمها «أم عقبة». وكان محباً لها، وكانت له كذلك، فلما حضره الموت قال لها ثلاثة أبيات:

أخبريني ماذا تريدين بعدي | والذي تضمرين يا أمَّ عُقبهْ
تحفظيني من بعد موتي لِما قد | كان مني من حُسن خُلْقٍ وصحبهْ
أم تريدين ذا جمال ومالٍ | وأنا في التراب في سُحْق غُربه؟

فأجابته تقول:

قد سمعتُ الذي تقول، وما قد | يابن عمي تخاف من أم عقبهْ
أنا من أحفظ النساء وأرعا | هن مما أوليتَ من حُسنِ صُحبهْ
سوف أبكيك ما حييتُ بنوْحٍ | ومراثٍ أقولها وبِنُدْبهْ

وبعد موته، رغب فيها الأزواج وخُطِبَتْ من كل وجه، فقالت مجيبة لهم:

سأحفظ غساناً على بُعدِ داره | وأرعاه حتى نلتقي يوم نُحشَرُ
وإني لفي شُغلٍ عن الناس كلهم | فكُفُّوا، فما مثلي من الناس يَغْدِرُ
سأبكي عليه ما حييتُ بدمعةٍ | تجول على الخدين مني فتهمرُ

ولما تطاولت الأيام والليالي تناستْ عهده، وتزوجت، فلما كانت الليلة التي أراد الدخول بها فيها، أتاها غسان في منامها وقال:

غَدَرْتِ ولم تَرْعيْ لبعلك حُرْمةً | ولم تعرفي حقاً، ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحبٍ | حلفتِ له بَتّاً، ولم تنجزي وعدا

غدرتِ به لما ثوى في ضريحه كذلك يُنسى كل من سكن اللحدا

فلما سمعت هذه الأبيات انتبهت مرتاعة، وقالت: والله ما بقي لي في الحياة من أرب حياءً من غسان، فقتلت نفسها»[1].

ومن الناس من استخدم الأحلام وسيلة للتكسب.

كتب أحدهم إلى أبي سليمان:

رأيتُ في النوم أني مالكٌ فَرَساً ولي وصيفٌ وفي كُمِّي دنانيرُ
فقال قومٌ لهمْ فَهمٌ ومعرفةٌ خيْراً رأيتَ، وللمال التياسيرُ
اقصُصْ منامكَ في دار الأمير تَجِدْ تفسيرَ ذاكَ وللأحلامِ تفسيرُ

فوقَّع أبو سليمان: ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ [يوسف: ١٢].

* * *

(١) ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي القالي، بتصرف.

الجلـــد
هذه الخيمة الواقية

ليس الجلد مجرَّد غلاف واحدٍ يستر الجسم فقط، بل هو عضو فعَّال يقوم بوظائف عديدة، فهو يستر العظام والعضلات، ويقي الجسم من الحرِّ في الصيف بزيادة إفراز العرق، ومن البرد في الشتاء، بِتَقَبُّضِ الأوعية الدموية المنبثَّة فيه، فيقل إشعاع الحرارة من الجسم. . فهو مكيف ذاتي رباني، ويقيه أيضاً من دخول الجراثيم والفيروسات، وهو مصنع للفيتامين (د)، يصنعه من الأشعة فوق البنفسجية التي يمتصها، ويمدُّ الجسم به، فتقوى العظام والأسنان، وهو عضو الحس ومكان الشعور بالألم وبالحرارة والبرودة[1].

ويتكون الجلد من طبقات ثلاث: البشرة، والأدمة، والطبقة الشحمية.

فالبشرة: سطحها مُعَرَّضٌ للاحتكاك بالعالم المحيط بالإنسان لابدَّ من تجددها، ويقدَّر ما يتولد من خلاياها في كل ساعة بمليون خلية، ثم يتباطأ ذلك مع تقدم السن، لذلك تظهر التجعدات في الجلد.

والبشرة يخضع سمكها للضرورة؛ فهي أسمك ما تكون براحة اليد وبطن القدم، وأرق ما تكون بجفن العين.

وقد تكون خشونة جلد الكف نتيجة العمل الكادح، فقد لمست أعرابية كفَّ أبيها الكادح فألْفتها خشنةً، فقالت:

---

(١) «الوقاية خير من العلاج»، د. عبد الرزاق الكيلاني، ص١٦٩.

هــذه كــفُّ أبــي خشَّنهــا ضـربُ مِسحـاةٍ ونقـلٌ بـالـزبيـلِ

فأجابها أبوها:

ويــكِ لا تستنكــري كــدَّ يــدي ليـس مــن كــدَّ لعــزٍّ بــذليــلِ
إنمــا الــذلــة أن يمشــي الفتــى ساحب الذيلِ إلى وجه البخيل

ومثلما يكون الجلد خشناً فقد يكون رقيقاً مرهفاً يكاد الماء يجرحه؛ يقول قيس بن ذريح يصف رقة جلد محبوبته:

يكادُ حَبابُ الماء يخدشُ جلدها إذا اغتسلت بالماء من رِقَّةِ الجِلْدِ
ولو لبستْ ثوباً من الوَرَدِ خالصاً لخدَّش منها جلدها ورقُ الوردِ
وأرحـمُ خـدَّيهـا إذا مـا لحظتُهـا حِذاراً للحظي أنْ يؤثِّرَ في الخدِّ

وفي البشرة توجد الخلايا التي تُنتج مادة الميلانين (القتامين) التي تمنح الجلد سمرته. وللبشرة توابع هي الغدد العرقية وبصيلات الشعر والغدد الدهنية والأظافر.

والأدمة: طبقة الجلد الثانية ـ تحت البشرة فهي «الجلد الحقيقي» ـ كما يسميها الدكتور محمد الظواهري، لأنها الغلاف المرن للجسد الإنساني.

والأدمة معسكر كبير يعجُّ بأنواع كثيرة من التجمعات والاختصاصات التي تعمل كلها بتنسيق عجيب هدفه حماية الجسم ودوام حياته.

ففي الأدمة تنبت العروق الدموية الشعرية التي تغذي الخلايا، ومنها خلايا البشرة القاعدية، فتؤمِّن استمرار حياتها، وتجددها وانقسامها باستمرار.

وفيها جسيمات حس اللمس التي يتعرف الإنسان بواسطتها على ما يحيط به من أشياء، يتعرَّف على شكلها، ونوعها، وخشونتها، ونعومتها؛ ويُقدَّر ما في كل بوصة مربعة من الجلد من هذه الجسيمات

بألف جُسَيْم. وفي طبقة الأدمة ما يقرب من ٦٤٠٠٠٠ مستقبل عصبي حسيّ، عدا مستقبِلات الألم.

وتنتشر في أنحاء الأدمة مستقبلات اللمس العميق أو الضغط، وهي من الحساسية بحيث أن أقل ضغط يكفي لزحزحتها عن مكانها بمقدار (٠,٢ ـ ٠,٥) ميكرون فقط، يتسبب في إثارتها وتنبيهها.

وتستشعر هذه المستقبلات كل أنواع الضغط؛ مثل انبعاج الجلد أو مطِّه أو الضغط المباشر عليه.

وإذا كان العلم يعتقد بأن الجلد مرهف الإحساس إلى هذه الدرجة، إلا أنه عند الشعراء أكثر حساسية وإرهافاً، فالنظر إلى الخدِّ فقط يمكن أن يُحدثَ أثراً فيه:

توهَّمهـا طرْفـي فـأصبح خدُّهـا   وفيه مكانَ الوهمِ من نظري أَثَرُ

أما مستقبلات اللمس الخفيف فنجدها تتمركز في أعلى الأدمة، وخاصة عند المناطق الحساسة مثل الشفاه والأعضاء التناسلية وباطن القدمين واليدين، وخاصة أطراف البنان التي قد يصل عدد الجسيمات فيها إلى ٦ آلاف مستقبل لِلَّمس الخفيف بالبوصة المربعة الواحدة[١].

وتمكِّن مستقبلات اللمس الإنسان من التعرف على طبيعة الأشياء باللمس، فيعرف الناعم من الخشن والصوف من الحرير... وغيره.

وبها يتمكن الكفيف من القراءة والكتابة (طريقة بريل) لتعوضه عن فقدان البصر.

وفي الأدمة مستقبلات الشعور بالألم، لذلك إذا اخترقت الإبرة البشرة ووصلت إلى الأدمة، شعرنا بالألم. كما تقوم هذه المستقبلات باستقبال الألم الناتج عن مؤثرات الضغط المختلفة:

وصـافحهـا كفّـيَ فـآلـم كفَّهـا   فمِنْ مَسِّ كفي في أناملها عقْرُ

---

(١) «رحلة الإيمان في جسم الإنسان»، د. حامد أحمد حامد، ص١٠١.

وتنتشر في طبقات الأدمة مستقبلات تستشعر السخونة والبرودة، وهي كلها تتخرب بتخرب الجلد، وتتجدد بتجدده، وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦].

فالكفار كلما احترقت جلودهم وفقدت الإحساس بألم الحريق بدَّلهم الله جلوداً جديدة تستشعر عذاب الحريق، وداموا على ذلك دوامهم بالنار.

والطبقة الشحمية: ثالثةُ وأعمقُ طبقات الجلد، فهي تكوينات من خلايا شحمية تتجمع في فصوص تفصل بينها حواجز من الألياف، وبهذه الحواجز توجد الأعصاب والأوعية الدموية والليمفاوية. فكأنّ فصوص الشحم وسائد طرية تحمي هذه الأوعية وتلك الأعصاب عند أية صدمة.

البصمة هوية الإنسان:

ولا ننسى البصمة التي تستخدم كهوية للإنسان، إذ تختلف بصمة كل إنسان عن الآخر، ولا توجد بصمتان متماثلتان في العالم أجمع، وخلال مراحل العمر؛ فالبصمة لا تتبدل أبداً حتى ولو احترقت الأصبع بالنار. وقد حدث أن بعض المجرمين بشيكاغو تصوروا أنهم قادرون على أن يغيروا هوية بصماتهم، فنزعوا الجلد من البنان ثم طعموه بقطع لحمية جديدة من مواضع أخرى بأجسامهم، ولكنهم أصيبوا بالحسرة والخيبة عندما اكتشفوا أن الجلد المزروع الجديد نما واكتسب نفس البصمات الخاصة للشخص بدون أي تغيير!!.

يقول فضيلة الشيخ عبد الرحمن حبنّكة:

وأعجب شيء بهن الخطوط ... فما اتحدت في الورى «بصمتان»
وطبقةُ إبهامنا خِتْمُنا ... يميزنا ما تَوالى الزمان

أنــاملنــا مــن بــديــع الفنــون   يقصــر عــن وصفهــن البيــان[1]

وصدق الله العظيم إذ يقول في محكم آياته :

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة : ٤] .

عَرَقُ الحبيب :

قد يجد الشعراء طيباً في رائحة عَرَق الحبيب ؛ يقول المعتمد بن عباد :

ثــلاثــةٌ منعتْهَــا مــن زيــارتنــا   خوْفُ الرقيب وخوفُ الحاسدِ الحَنِقِ
نورُ الجبين ووسواسُ الحُليِّ وما   تَمَــسُّ أردانَهــا مــن عَنبــر عَبِــقِ
هبِ الجبينَ بفضلِ الكُمِّ تسترُهُ   والحلْيَ تنزعُهُ ما الشأنُ في العَرَقِ؟

والتعرق وظيفة عادية من وظائف الجسم عندما يكون ناجماً عن زيادةٍ في حرِّ الجو ، أو عن تمرين رياضي شاق . وقد يكون مظهراً ينمُّ عن قلق أو خوف أو انفعال شديد ، وهو حينئذٍ ينحصر بأخمصي القدمين وراحتي اليدين والإبطين . أما العَرَق ذو الرائحة الكريهة فإنه يتسبب عادة عن جرثوم .

والحقيقة أن هناك ما بين ٣ ـ ٤ مليون غدة عرقية بالجلد تتركز في مواضع مختلفة . ويصل العرق إلى مسام الجلد عبر قنوات تخرج من الغدد العرقية . . وتبلغ أطوال هذه القنوات مجتمعة نحواً من خمسة كيلو مترات .

* * *

(١) «رحلة الإيمان في جسم الإنسان» للدكتور حامد أحمد حامد .

بعضهم يفضلها سوداء!

جسم الإنسان كالبناية الشاهقة تحتاج لدهان خارجي يشملها من مفرق الرأس إلى أخمص القدم، وبكميات متفاوتة. وهكذا يتم صبغ الشعر والجلد، بدءاً من الألوان البسيطة حيث الأشقر الخفيف كالشعر الأوروبي، وانتهاءً بالشعر الأسود الفاحم الزنجي. . وكله من مادة تسمى (الميلانين) أو (القتامين).

وفي كل بوصة مربعة من الجلد ٦٠ ألف خلية قتامينية، وهي التي تفرز مادة الميلانين الملونة للجلد. وهي توجد في جميع الأعراق، في البيض والسود، ولكن إفرازها لمادة الميلانين في السود أكثر بكثير منه في البيض. ويتناقص عدد هذه الخلايا بتقدم السن، إذ تنقص بمعدل ١٠ ـ ٢٠٪ منها كل عشر سنوات، لذلك يبهت لون الجلد، ويظهر الشيب مع تقدم العمر.

وليس شقار الشعر ولا سواده، فضلاً عن ألوانه الأخرى ـ الخرنوبي والذهبي ـ إلا من هذه المادة بنسبة ومقدار؛ فإذا نقصت كثيراً حصل بياض الجلد وشقار الشعر وزرقة العينين. وإذا ازدادت إلى كثافة كبيرة حصل الشعر الفاحم والجلد الأسود والعينان السوداوان.

وليس سواد جلد الزنوج إلا نتيجة لكثافة هذه المادة في جلودهم؛ علماً بأن كمية الميلانين في الشخص الأسود لا تزيد عن الجرام الواحد في أقصى الحالات[١].

---

(١) «الطب محراب الإيمان» للدكتور خالص جلبي.

وصدق رسول الله ﷺ إذ قال في خطبة الوداع: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. الناس من آدم، وآدم من تراب»[١].

ويفتخر البعض بسواد جلدهم، يقول عنترة:

تُعيِّرني العِدا بسَواد جِلدي ... وبيضُ خصائلي تمْحُو السوادَا
سلي يا عبْلُ قومَكِ عن فِعالي ... ومَنْ حَضرَ الوقيعةَ والطرادا

وقال أيضاً:

يعيبون لوْني بالسَّواد وإنما ... فِعالُهُمُ بالخبث أسْودُ مِن جلدي

وبعضهم يفضِّلها سوداء، يقول علي بن العباس بن الأحنف:

أُحِبُّ النساءَ السُّودَ من أجلِ تُكْتُمٍ ... ومن أجلها أحببتُ ما كان أسْودا
فجئني بمثلِ المسكِ أطيبَ نفحة ... وجئني بمثلِ الليل أطيبَ مَرْقدا

وقال ابن الرومي يصف امرأة سوداء:

يَفترُّ ذاكَ السوادُ عن يققٍ ... مِنْ ثغرها كاللآلىء النَّسَقِ
كأنها والمُزاحُ يُضحِكُها ... ليلٌ تَعَرَّى دُجَاهُ عن فَلَق

وكان الدكتور شاكر الخوري في مجلس فدخل عليهم رجل أسود الوجه مع زوجةٍ تُخجل البدر بجمالها، فقال:

تكدرت الخواطر مذ رأينا ... برفقة أسودٍ بدر التمامِ
فلا عجبٌ بذا إذ قد عرفنا ... بأن البدر يطلع في الظلامِ

ومن طريف الشعر: حوار بين أبيض وأسود؛ يقول «الأبيض»:

ألم ترَ أنَّ البدْرَ لا شيء مِثْلُهُ ... وأنَّ سوادَ الليل لا شيءَ فاعْلَمِ
وأنَّ عبادَ اللهِ بيضٌ وجوهُهُمْ ... ولا شكَّ أنَّ السُّودَ أهلُ جهنمِ

فيردُّ عليه «الأسود» قائلاً:

---

(١) رواه الإمام أحمد.

ألم ترَ أن المِسْكَ لا شيءَ مثلُهُ		وأن بياضَ اللِّفْتِ حِمْلٌ بدرْهمِ
وأن سوادَ العين لاشك نورُها		وأن بياضَ العين لا شيء فاعلمِ

وقال الشيخ خالد بن عبد الله العدساني مادحاً «المرأة السوداء»:

هي السوداء فاصرف في هواها		نفيس الوقت تظفرْ بالهناء
ولا تعدلْ إلى شيء سواها		فعنك هي المزيلة كل داء
عليك بها فإن بها شفاء		لداء القلب فاظفرْ بالدواء

ويقول محمد إمام العبد:

وسوداء كالليل البهيم عشقتُها		لأجمع بين اللون والحظِّ في عيني
إذا ضمَّنا ليلٌ تبسَّمَ ثغرُها		فلولا سناهُ بِتُّ في جنح ليلينِ

ويتحسر الشاعر ذاته لانصراف الحسناوات عنه لسواده، فيقول:

يا خليلي.. وأنتَ خيرُ خليلِ		لا تلم راهباً بغير دليلِ
أنا ليلٌ.. وكل حسناءَ شمسٌ		فاجتماعي بها من المستحيلِ

* * *

عيَّرتْني بالشيب

قلما نجد شاعراً أو أديباً لم يتعرض لذكر الشيب والاحتفال به مادحاً أو ذامّاً، حتى أضحى لدينا ما يمكن تسميته بتراث الشيب، ويبدو أن الشيب أصاب عدداً من الشعراء، وهم في ريعان الشباب، فقد شاب أبو تمام، وهو ابن ست وعشرين، فقال:

سِتٌّ وعشرون تدعوني فأتبعها إلى المشيب ولم تظلم ولم تُجِبِ
فأصغري أنَّ شيباً لاحَ بي حَدَثاً وأكبري أنني في المهد لم أَشِبِ

وشاب الشريف الرضي وهو في الثالثة والعشرين من العمر، فقال:

عجلتَ يا شيب على مفرقي وأي عذر لك أن تعجلا
كنتُ أرى العشرين لي جُنَّةً من طارقات الشيب إن أقبلا
فالآن سيَّانَ ابنُ أُمِّ الصِّبا ومن تسدَّى العُمُرَ الأطولا[1]

وقال أبو فراس الحمداني وقد رأى الشيب في رأسه وهو في العشرينات:

وما زادتْ عن العشرينَ سِنِّي فما عذرُ المشيبِ إلى عِذاري

والشيب ظاهرة طبيعية تحدث مع تقدم السن. وينجم الشيب عادة عن نقص تدريجي في وظيفة الخلايا الصباغية (Melanocytes) حتى تصبح الشعرات البيضاء خالية من الخلايا الصباغية.

ويحدِّدُ الاستعداد الوراثي السنَّ الذي يبدأ فيه انتشار الشيب في الرأس، رغم وجود بعض العوامل المكتسبة التي يمكن أن تلعب دوراً في

---

(١) هكذا ورد في الديوان. (ديوان الشريف الرضي ٢/ ٢٢٤).

إحداث الشيب. ويبدأ الشيب عادة عند الأوروبيين والأمريكيين في سن ٢٥ ـ ٤٣ سنة. وما أن يبلغ الناس الخمسين من العمر، حتى يصيب الشيب نصف الناس هناك، ولكن من الناس من يبلغ المئة ولا يشيب. فقد ذكر المؤرخون أن ضبيرة السهمي قد مات في سن المئة ولم يظهر في رأسه أو لحيته شيب قط. وقد رثاه أحدهم فقال:

حُجَّاج بيتِ الله إنَّ ضَبيرةَ السَّهمي ماتا
سبقتْ مَنِيَّتُه المشيب وكان ميتتَه افتلاتا

لماذا يحدث الشيب المبكِّر؟

يعرَّف الشيب المبكر بحدوث الشيب قبل سن العشرين من العمر عند الأوروبيين والأمريكيين، وبظهوره قبل سن الثلاثين عند السود. ويُعتقد أن هناك سبباً وراثياً وراء ذلك؛ إلا أن هناك ترابطاً بين حدوث الشيب المبكر، وبعض أمراض المناعة الذاتية. كما قد يحدث الشيب المبكر نتيجة التوتر النفسي والعاطفي الشديدين.

يقول أبو الطيب المتنبي:

والهمُّ يخترم الجسيم نحافةً ويُشيبُ ناصية الصبي ويُهرم

ويقول أبو سنان الخفاجي:

أناخ عليَّ الهمُّ من كل جانبٍ بياض عذاري في سواد المطالب
وما راعني شيبُ الذوائب بعدهُ وعندي همومٌ قبل خَلْقَ الذوائب
ولكنه وافى وما أطلق الصبا عَناني ولا قضى الشبابُ مآربي

انتشار الشيب:

ويبدأ الشيب عادة في الصِّدغين، ثم يمتد تدريجياً إلى شعر الرأس بأكمله. وبعد عدة سنوات يظهر الشيب في شعر الجسم والذقن.

قال الميداني:

تنفَّسَ صبحُ الشيب في ليل عارضي فقلتُ: عساهُ يكتفي بعذاري
فلما فشا عاتبْتُه فأجابني أيا هلْ ترى صبحاً بغير نهار

وكثيراً ما يُعاجَلُ الشيب بالنتف في أول ظهوره.. ولكن الجيش قادم!!. قال أبو الحسن الصقلي:

وزائـرةٍ للشيـبِ حلَّـتْ بعـارضـي ... فعاجلْتُها بالنتف خوفاً من الحتْفِ
فقالتْ على ضعفي استطلتَ ووحدتي ... رُويدَكَ للجيشِ الذي جاء من خلفي

مـدح الشـيب:

وقد مدح بعض الشعراء الشيب، فهو عنوان للنضج والحكمة.

قال «ابن عمران» الفقيه الزاهد:

ذهـبَ الشبـابُ بجهلـهِ وبعـارِهِ ... وأتـى المشيـبُ بحلْمِـهِ ووقـارِهِ
شتـان بيـن مُبعـدٍ عـن ربِّـهِ ... بغـرورِه ومبشِّـرٍ بجـوارِهِ

وقال أبو عبد الله الأسباطي:

لا يُـرْعـكِ المشيـبُ يـابنـة ... عبـد اللهِ فـالشيـبُ حُلَّـةٌ ووقـارُ
إنمـا تحسُـنُ الـريـاضُ إذا مـا ... ضحِكـتْ فـي ظـلالهـا الأنـوارُ

وقال عمرو بن زيد التميمي:

نـزل المشيـب بلمتـي فتـأشَّبـا ... أهــلاً وسهلاً بالـمشيب ومرحبا
أهـدى لنـا حِلْمـاً وعلمـاً إذ ذوى ... جِسمي وبـالتقـوى أروحُ معصَّبـا
الشيـبُ حلـمٌ راجـحٌ ورزانـةٌ ... فيـه وتجـربـة لمـن قـد جـرَّبـا
جـاءتـكَ فيـه سكينـةٌ وبصيـرةٌ ... فـاشكـر لـربك وادعـه مُتَحـوِّبـا

وقد اعتبره آخرون دلالةً على الرجولة والبطولة، قال مسعود الكلبي:

وما شاب رأسي من سنين تتابعت ... علـيَّ، ولكـن شيَّبتني الـوقـائع

وقال الفرزدق مدافعاً عن الشيب:

تفاريقُ شيبٍ في السواد لوامعٌ ... ومـا خيـرُ ليـلٍ ليـس فيـه نجـومُ

وقال المعري:

هي قالتْ وقد رأتْ شيبَ رأسي ... وأرادتْ تنكـراً وازورارا
أنا بدرٌ وقد بدا الصبحُ في رأسكَ ... والصبـح يطـردُ الأقمـارا

قلتُ: لا بل أراكِ في الحسن شمساً لا تُرى في الدجى وتبدو نهارا

وما أجمل قول أبو الفتح البستي الذي أصبح مولعاً بالشيب:

يا شيبتي دومي ولا تترحَّلي وتيقَّني أني بوصلك مُولَعُ
قد كنتُ أجزعُ من حلولكِ مرةً فالآن من خوفِ ارتحالكِ أجزعُ

ومنهم من كره الشيب وذمَّه:

ومن الشعراء من تذمَّر من الشيب، وندب شبابه؛ يقول أبو العتاهية ـ وهو من أجمل الشعر ـ:

عُريتُ من الشباب وكنتُ غضاً كما يَعْرَى من الورق القضيبُ
ونُحتُ على الشباب بدمعِ عيني فما نفَعَ البكاءُ ولا النحيبُ
فيا ليتَ الشبابُ يعود يوماً فأخبرهُ بما فَعلَ المشيبُ

ومنهم من كان يخشى الشيب ويكره ظهوره؛ يقول أبو بكر الخوارزمي:

وإني لأرجو الشيب ثم أخافه كما يُرتجى شرب الدواء ويُحذَرُ
هو الضيفُ إن يسبق فعيشٌ مكدَّرٌ عليَّ، وإن يُسبَقْ فموتٌ مقدَّرُ

وقال الشاعر محمود الوراق:

لاتطلبن أثراً بعينْ فالشيبُ إحدى الميتتيْنْ
أبدى مقابحَ كلِ شيْنْ ومحا محاسنَ كلِّ زينْ
فإذا رأتْكَ الغانيا تُ رأين منك غُرابَ بينْ
ولربما نافسْنَ فيـ ـكَ وكُنَّ طوعاً لليدينْ
أيام عمَّمك الشبا ب وأنت سهلُ العارضين

وقال الشريف الرضي متحسراً نادباً شبابه الناضر الذي ولَّى وهو في مقتبل العمر وريعان الصبا:

واهاً على عهد الشباب وطيبهِ والغضّ من ورق الشباب الناضرِ
سبعٌ وعشرون اهتصرْن شبيبتي وألنَّ عُودي للزمان الكاسرِ
لو يُفتدى ذاك السوادُ فديتُهُ بسوادِ عيني بل سوادِ ضمائري

وقد شبَّه ابن دريد الشيب بالسقْم، ولكنه خالٍ من الألم:

أرى الشيبَ مذ جاوزْتُ خمسينَ دائباً يدبُّ دبيبَ الصبحِ في غَسَق الظُّلَمْ
هو السُّقمُ إلا أنه غير مؤلمٍ ولم أرَ مثل الشيب سُقْماً بلا ألَمْ

وشبهه آخر بالداء الذي لا دواء له:

والشيبُ داءٌ نحيسٌ لا دواءَ لهُ للمرء كان صحيحاً صائبَ القُحْمِ

هل يمكن أن يتحول الشعر الأسود إلى أبيض خلال ليلة واحدة؟

لقد حيَّرت قضية اشتعال الرأس شيباً في ليلةٍ واحدة الأطباء والباحثين لقرون عديدة، فهناك عدد من التقارير الطبية التي تؤكد حدوث مثل هذا الأمر. والأمثلة التاريخية المشهورة التي تُضرب دوماً في هذا المجال قصة السير «توماس مور» و«ماري انطوانيت» حيث تحول لون شعرهما الطبيعي إلى اللون الأبيض إبان الليلة التي سبقت إعدامهما.

ولا يعرف العلم بالتأكيد سبب ذلك، إلا أن بعض الباحثين يحاول تفسير هذه الظاهرة بأن الشعر الملوّن يمكن أن يسقط كله فجأة خلال الليل في مرض يسمى «الثعلبة» أما الشعر الأبيض الذي كان مختبئاً وراء الشعر الملون فلا يسقط، وهذا ما يعطي إيحاءً بأن الشعر كلَّه قد ابْيَضَّ لونه!.

خضاب الشعر:

ولعلَّ البعض يلجأ للخضاب يخفي به آثار المشيب. ويقال بأن أول من اختضب بالسواد من العرب عبد المطلب.

والخضاب لغةً: ما يُخضب به من حِنَّاء وكَتَم ونحوه. وخضب الشيء ـ كما في اللسان ـ: غَيَّر لونَه بحُمْرةٍ أو صُفْرةٍ أو غيرها.

وفي الحديث: بكى حتى خضبَ دمْعُه الحصى. قال ابن الأثير: أي بلَّها[1].

(١) لسان العرب (١/ ٣٥٥).

ويقول رسول الله ﷺ: «إن أحسن ما غيرتم به الشيبَ الحناءُ والكَتَم»[1].

وقد استعملت الحناء في صبغ الشعر منذ آلاف السنين، وقد أثبتت الأبحاث الطبية مؤخراً أن للحناء فوائد عظيمة للشعر والجلد.

يقول الدكتور «ناتو» أستاذ أمراض الجلد في جامعة نيويورك في الولايات المتحدة:

«تمتاز الحناء بميزات عديدة هامة. فهي أولاً لا تصبغ الشعر صباغاً دائماً، فصبغة الحناء تبدأ في الزوال بعد ٦ ـ ١٠ أسابيع، ولا تترك بعدها أية آثار.

وتمتاز أيضاً بأنها تتوافق مع كل أصبغة الشعر الطبيعية، وأنها تُبرِزُ لون الشعر الطبيعي وتزيده رونقاً وجمالاً.

وتقوي الحناء الشعرة نفسها، وتمنع تقصف نهايات الشعر... وهي فوق هذا وذاك، تمتاز بتاريخ طويل من الاستعمال، فهي سليمة حين تقارن بالأصبغة الاصطناعية، ولم يذكر فيها سوى حالات نادرة جداً من التحسّس الجلدي»[2].

وإذا كان الخضاب يستر ما بالشعر من شيب لبرهة من الزمن، إلا أن ذلك لا يدوم؛ قال أحمد بن يحيى:

فإذا رُمْتَ سترَهُ بخضابٍ ... فضحتْهُ طلائعُ الناصلاتِ
ما رأيتُ الخضابَ إلا سراباً ... غرّني لَمْعُهُ بأرضِ فلاةِ

وقال الأمير شهاب الدين بن يغمور:

يا صابغَ الشيبِ والأيامُ تظهرهُ ... هذا الشباب وحقِّ الله مصنوعُ
إن الجديدَ إذا ما كان في خَلَقٍ ... يبينُ للناس أن الثوبَ مرقوعُ

---

(١) رواه الإمام أحمد والأربعة وابن حبان.

(٢) من شاء المزيد من التفاصيل فليراجع كتابنا «القشرة والصلع والشيب والحناء».

وقال ابن طباطبا:

قالتْ: أراكَ خضبْتَ الشيبَ قلتُ لها: ستَرْتُهُ عنكِ يا سمعي ويا بصري
فاستضحكت ثم قالت من تعجبها: تكاثرَ الغِشُّ حتى صار في الشَّعَرِ

وقال عبدان الأصفهاني معللاً لجوءه للخضاب:

في مشيبي شماتةٌ لِعِداتي وهو ناعٍ منغصٌ لحياتي
ويعيبُ الخضابَ قومٌ وفيه لي أنسٌ إِلى حضورِ وفاتي
لا ومَنْ يعلمُ السرائرَ مني ما بهِ رُمْتُ خُلَّةَ الغانياتِ
إنما رُمْتُ أن يغيب عني ما تُرينيهِ كُلَّ يومٍ مِرَاتي
وهو ناعٍ إليَّ نفسي ومن ذا سَرَّه أن يرى وجوهَ النُّعاةِ

وبعد؛ فلحظة تدبُّرٍ وتأمُّل.. فأين أنتَ في هذه الحياة؟ وإلى أين المسير؟

يا خاضبَ الشيب بالحنَّاء تسترُهُ سَلِ المليكَ له سِتراً من النار

الكف المخضوب:

عُرفت الحنّاء منذ آلاف السنين... واخْتُلِفَ في الموطن الأصلي لشجرة الحناء، فقد ذكر داود الأنطاكي أن موطنها جزائر السوس، أما ابن البيطار فيذكر أن شجرها بأرض العرب كثير، وأما إدوار غالب ـ مؤلف الموسوعة في علوم الطبيعة ـ فيشير إشارة واضحة إلى أن مهدها الأصلي الجزيرة العربية.

وقد عرف قدماء المصريين الحناء واستعملوه في التحنيط. والمصريون القدامى هم الذين نقلوا الحناء إلى إفريقية وأوروبا، واستعملوها ـ فضلاً عن التحنيط ـ في التجميل. والخضاب بها يجري حتى يومنا هذا لدى العديد من شعوب البحر الأبيض المتوسط.

وتُخضب بها الأيدي والأرجل للتزيين. وفي بعض المناطق يجري احتفال قبل الزفاف يسمى «ليلة الحنة»، وفيها تُطلى يد العروس بالحناء

كتعبير عن السعادة والفرحة، وتقام لهذه المناسبة احتفالات تضم نساء العائلة وصديقات العروس.

والحقيقة أن الحناء تحتوي على مواد قابضة ومطهرة تعمل على تنقية الجلد من الميكروبات والفطريات.

وتصف الدكتورة «تهاني المهدي» الحناء لعلاج الالتهابات بين أصابع القدمين الناتجة عن الفطريات، وللمساعدة على التئام القروح.

وقد وردت في الشعر العربي إشارات قديمة إلى الحناء والخضاب، وتفنن الشعراء في وصف الكف المخضوب؛ فقال علي بن عبد الله الناشيء:

مـن كـفٍّ جـاريـة كـأن بنـانَهـا ... مـن فضـةٍ قـد طُـرِّفَـتْ عُنَّـابَـا

وقال أيضاً:

بـأنـامـلٍ منـه يلـوح مِـدادُهـا ... وأنـامـلٍ منهـا كُسِيـنَ خِضـابَـا
فكـأنمـا يجنـي لهـا مـن كفِّـهِ ... عِنبَـاً، وتجنيـه لـه عُنَّـابـا

وقال دعبل الخزاعي في الكف المخضب:

كـأنمـا كَفُّهـا إذا اختضبـت ... مخـالـبُ البـازِ ضُـرِّجـتْ بـدمِ

ولكن شاعراً آخر يتحدث عن لقائه بمحبوبته، وقد رأى بنانها أحمر فيقول:

ولمـا تـلاقينـا علـى سفـح رامـةٍ ... وجـدتُ بنـان العـامـريـةِ أحمـرا
فقلت: خضبتِ الكفَّ بعد فراقنا ... فقالت: معاذ الله ذلك ما جرى
ولكننـي لمـا رأيتـك راحـلاً ... بكيتُ دماً حتى بللتُ به الثرى
مسحتُ بأطراف البنان مدامعي ... فصار خضاباً في اليدين كما ترى

* * *

الصَّلَــع
وما تُنكِره الحسان

وأنكرتْني . . وما كان الذي نكِرَتْ   من الحوادثِ إلا الشيبَ والصَّلَعا

ليس الإنسان وحـده الـذي يصـاب بالصلع، فالشمبـانزي وبعـض الحيوانات الأخرى تصلع عندما تصل إلى سن البلوغ.

وهناك أسباب عديدة للصلع، منها «الصلع من النمط الذكري» وفيه يسقط الشعر في مقدمة الرأس وفي الصدغين.

ويحدث هذا النوع من الصلع نتيجة أسباب وراثية محتملة أو نتيجة تقدم السن والشيخوخة.

وكثيراً ما يلاحظ ازدياد حدوث الصلع عند أقرباء المصاب بالصلع. والمدهش حقاً أن كثرة الشعر على الصدر أو الرجلين لا تقي من حدوث الصلع.

وقد أدى اكتشاف علاقة هذا الصلع بهرمون الذكورة (الأندروجين) إلى ادعاء بعضهم أن المصابين بالصلع هم أكثر نشاطاً من الناحية الجنسية، إلا أنه لا يوجد دليل علمي يؤكد هذه الفرضية!!

وأول ما يبدأ الصلع في هذا النوع في الصدغين، ويتجنب عادة الخلف والجانبين من الرأس. إلا أنه قد يصل إلى القفا، كما يقول أبو النجم:

قد ترك الدهرُ صِفاتي صفصفا   فصـارَ رأسـي جبهـةً إلـى القفـا

ويصف ابن الرومي كيف يمتد الصلع إلى القفا، فيقول:

يجـذب مـن نقـرتـه طُـرَّةً   إلـى مـدىً يقصُـرُ عـن نَيْلِـه

فوجهه يأخذ مِنْ رأسهِ   أخذَ نهارِ الصيفِ من ليلهِ

وما أبرعَ ابن الرومي حين وصف صلعةَ أبي حفصٍ الوراق، فقال:

يا صلعةً لأبي حفصٍ مُمرَّدةً   كأنَّ ساحتَها مرآةُ فولاذِ
تَرِنُّ تحت الأكفِّ الواقعات بِها   حتى تَرِنَّ بها أكنافُ بغداذِ

والغريب أن ابن الرومي نفسه قد أصيب بالصلع حيث قال:

تعمَّمتُ إحصاناً لرأسي برهةً
من القرِّ[1] يوماً والحرورِ[2] إذا سفعْ[3]
فلما دَهَا طولُ التعمّم لمَّتي
فأزرى بها بعد الأصالةِ والفَرَع
عزمتُ على لبس العمامة حيلةً
لِتَستُرَ ما جرَّت عليَّ من الصَّلعْ

وأما أن العمامة هي التي سببت الصلع فهذا ما لا أصل له علمياً.

وقد لا يحتاج الأمر إلى العمامة لتغطية الصلع، فهناك حالياً عدد من الوسائل العلاجية للصلع رغم أن فائدتها محدودة.. فهناك دواء يسمى Minoxidil يمكن أن يفيد ١٠٪ من المصابين بالصلع، شريطة الاستمرار باستعمال الدواء؛ ولكن ينبغي أن يتم ذلك تحت إشراف الطبيب. وقد يلجأ البعض إلى إجراء عملية نقل الشعر من جانبي الرأس والقفا ليغطي المناطق المتعرية من الشعر.

ويتساءل ابن أبي كريمة فيما إذا كان هناك حقيقةً دواء للصلع فيقول:

هَبِ المشيبَ يُداوَى فرطُ منظرِهِ   فمن لهُ بدواءٍ يُذهِبُ الصَّلَعا؟

ولكن عزاء الأصلع أنه من علامات الوقار. يقول الأصمعي:

---

(١) القرّ: البرد.
(٢) الحرور: حرّ الشمس.
(٣) سفع: سفعت الشمس وجهه: لفحته لفحاً يسيراً فغيَّرتْ لَوْنَ بشرته وسوَّدتْه.

ألا قـالـت الحسنـاءُ يـومَ لقيتُهـا كبرْتَ ولم تجزعْ من الشيبِ مجزَعا
فقلـتُ لهـا لا تهـزئـنَّ فقـلَّ مـا يسود الفتى حتى يشيبَ ويصلَعا

ويروى أن السليك بن السلكة أراد أن يتزوج امرأة من قومه ففضلت عليه غيره، فقال:

تـزوجـتِ أصلَـعَ ذا أُدْرَةٍ[1] تُجَـنُّ الحليلـةُ منـه جُنـونـا
كـأن المسـاويـكَ فـي شـدقِـهِ إذا مـا تسـوَّكَ يقلعـنَ طينـا[2]

والقَرَع ـ كما جاء في اللسان ـ: «هوأن يصلَعَ فلا يبقى على رأسه شعر، وقيل: هو ذهاب الشعر من داءٍ»[3] وكان الأقرع بن حابس أقرعَ الرأس سَنُوط اللحية، أعرج رجل اليُسرى، ولذلك قال له الحصين بن القعقاع:

يا أقرعَ الرأسِ من القَذَالِ[4] وأعرَجَ الرِّجلِ من الشِّمال[5]

ويصف المساور بن هند ما حلَّ به نتيجة الصلع، فيقول:

وأرى الغـوانـي بعـدمـا واجهنَني أعـرضْـنَ ثُمَّـة قُلْـنَ شيـخٌ أعـورُ
ورأيـن رأسـي صـار وجهـاً كُلَّـهُ إلا قَفَـاي ولحيـةً مـا تُضْفَـرُ

ولكن شاعراً آخر يفتخر بآبائه وأجداده الصُّلَّع، فيقول:

بنـىٰ لنـا المجـدَ آبـاءٌ لنـا سلَفُـوا صُلْعُ الرؤوس وسِيما السَّادة الصَلَع

* * *

---

(١) ذا أدرة: مصاباً بقيلة مائية في الخصية.
(٢) الأشباه والنظائر (ص٢٣٧)، ونسبت لشقيق بن السليك في عيون الأخبار ٤/ ٦٢.
(٣) لسان العرب (٨/ ٢٦٢).

الشيخوخة

«خيركم من طال عمره وحَسُنَ عمله»

كان يُنظر في القديم إلى الشيخوخة على أنها شرٌّ من الشرور. وحتى عصور النهضة الأوروبية الأولى ظلت الشيخوخة تعتبر مرضاً يعزى إلى فقدان الحرارة. وكان يتم تشجيع كبار السن على الغطس في نافورة الشباب حتى يعودوا شباباً مرة أخرى، وقام العديد منهم بمحاولات للبحث عن تلك النافورة. كما كان ينصح بتناول بعض المشروبات مثل الماء الساخن والماء البارد ظناً أنها وسائل تسهم في علاج الشيخوخة. ولكن داء الشيخوخة لا دواء له كما يقول أبو تمام:

كلُّ داءٍ يُرجى الدواء له ... إلا الفظيعين ميتةً ومشيبا

ويقول ساعدة بن جُؤَيَّة الهُذَليِّ:

يا ليت شعري ألا منجى من الهرمِ ... أم هل على العيش بعد الشيب من ندم؟
الشيب داء نجيسٌ لا دواءَ لَهُ ... للمرء كان صحيحاً صائب القُحَمِ

وقد حاول العلماء تفسير أسباب الشيخوخة، فكانت هناك نظريات مختلفة؛ منها أن خلايا جسمنا مبرمجةٌ ـ بأمر بارئها ـ على أن تنقسم وتتكاثر لعدد محدد من المرات... ومتى وصلت إلى نهاية انقسامها ماتت.

ونظرية أخرى تقول إن جهازنا المناعي يضعف شيئاً فشيئاً حتى يقضي أي هجوم خارجي أو داخلي على مناعة الجسم.

وثالثة النظريات تقول بأن السبب هو «الجذور الحرَّة»، وهي مواد

ضارة تتشكل أثناء عملية الأكسدة في الجسم، وتؤدي إلى تخرب في الخلايا غير قابل للتصليح[1].

ولا ريب في أن الشعراء، بما طُبِعوا عليه من رهافة الحس وشفافةِ الشعور، أكثر تنبهاً لمرور الزمن، وأعمق إحساساً بحلول المشيب والشيخوخة، فعبَّروا عن ذلك أصدق تعبير.

وهذا عروة بن الورد يرسم مشهداً لما سيكون عليه في شيخوخته، تلك التي ستحوجه إلى عصاً يتوكأ عليها، وتحوِّله إلى إنسان يقعد في البيت، غير قادر على المشي الطبيعي فيضجر منه أهله، ويملُّه أصدقاؤه:

أليس ورائي أن أدِبَّ على العصا ... فيشمتُ أعدائي ويسأمَني أهلي
رهينــة قعْـرِ البيــتِ كــلَّ عشيَّــةٍ ... يطيف بي الولدان أهدجُ[2] كالرألِ[3]

ومن علامات الشيخوخة ضعف السمع والبصر؛ قال ابن أبي فنن:

من عاش أخلقتِ الأيام جدَّتَهُ ... وخـانـه الثقتـان السمـعُ والبصـرُ
قالتْ: عهدتك مجنوناً فقلتُ لها ... إن الشبــابَ جنــونٌ بــرؤه الكِبَـرُ

والخرف شائع عند المسنين. وأكثر أسباب الخرف شيوعاً مرض يدعى «مرض ألزهايمر». ويقدِّر الباحثون أن هناك أربعة ملايين مصاب بهذا النوع من الخرف في أمريكا وحدها؛ وفيه تضمر خلايا الدماغ ويصغر حجم الدماغ وينكمش، وفيه يزداد نسيان المريض الذي يحاول التعويض عن ذلك بتدوين الأشياء التي يريد أن يعملها على كرَّاسٍ صغير، ثم يزداد فقدان الذاكرة للأحداث القريبة رغم أن المريض يحتفظ بذاكرة قوية للأحداث البعيدة التي مرَّت في الطفولة والشباب... وهذا شاعر يصف الدرجة التي وصل إليها من النسيان، فيقول:

---

(١) وقد فصَّلنا ذلك في كتابنا «الميلاتونين.. هل هو الدواء السحري؟»، وهو من إصدار دار القلم بدمشق ودار البشير بجدة.

(٢) الهدج: تدارك الخطو.

(٣) الرأل: فرخ النعام.

أفْـرَط نسيـانـي إلـى غـايـةٍ لـم يَـدَع النسيـانُ لـي حِسَّـا
فصِـرْتُ مهما عـرضـتْ حـاجـةٌ مهمـةٌ ضَمَّنتُهـا طِـرْسـا[1]
وصِرْتُ أنسى الطِّرسَ في راحتي وصِـرْت أنسـى أننـي أنسـى[2]

* * *

(١) الطرس: الصحيفة، أو الكتاب الذي مُحِيَ ثم كُتب.

(٢) وقد فصلنا في موضوع الشيخوخة في كتابنا الذي سيصدر قريباً بعنوان «كيف تحافظ على شبابك».

التهاب المفاصل التنكسي

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾.

قال جرير يصف التهاب المفاصل التنكسي (osteoarthritis) وقد أصاب الركبتين:

تُحنى العظامُ الراجفاتُ[1] من البِلى[2]
وليس لداء الركبتين طبيبُ

وقال ذو الركبة:

والركبتان مفارقٌ رأساهما الظهر أحدب والمعاش ركيكُ

وربما كان هذا المرض من أوسع أمراض التهاب المفاصل انتشاراً. وبوجه عام يمكن القول بأن معظم الأشخاص الذين تجاوزوا منتصف العمر معرَّضون للإصابة إلى حدٍّ ما، بالتهاب المفاصل التنكسي. ويعتقد أن هذا المرض ينجم عن اهتراء المفاصل لكثرة استعمالها خلال سنوات العمر المديد. ويمتاز بتبدل تنكُّسي للمفاصل وترقق الغضاريف وتآكلها، وتضخم المفاصل المصابة.

والمفاصل الحاملة للوزن تتأثر قبل غيرها عادة، ولهذا شاعت إصابة الركبتين بهذا المرض، وهي أكثر المفاصل تأثراً بالتصلب والتنكس والألم غير أنه يمكن أن يصيب أي مفصل من مفاصل الجسم.

وإذا كانت مفاصل الركبتين هي المصابة فيجب على المصاب تخفيف

---

(١) العظام الراجفات: تلك التي ارتجفت وارتعشت من مرض أو شيخوخة.
(٢) البلى: الفناء.

وزنه، إذ أن البدانة تسبب تسريع عملية إيذاء المفصل المريض. ويبدو أن أكثر التمارين إفادةً: السباحة والمشي، ويجب أن يظل التمرين منتظماً وألا يُحْدِث ألماً شديداً.

والمعالجة الدوائية أقلُّ من ذلك أهمية إلى حد كبير، ويُلجأ إليها للتخفيف من الانزعاج إلى مدى معين وقد يلجأ إلى تبديل المفصل المصاب بمفصل صناعي. .

ويعتقد معظم الأطباء أن هذا المرض يمكن أن يُمنعَ إلى حدٍ بعيد عن طريق اتباع العادات الصحية الجيدة؛ أي إذا ظلَّ الشخص نشيط الحركة، وحافظ على رشاقة جسمه، وقام بتمرين عضلاته ومفاصله بانتظام، وليس كما قال جرير بأن لا دواء له!!

* * *

ليس على الأعرج حـرج

يروى أن عبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة كان أعرج، وكان على شُرَطِهِ: القعقَاعُ بن سُوَيد المنقريُّ وكان أعرج، وكان على كتابته: سلمانُ بن كَيْسَان وكان أعرج، فكان صاحب الشرطة يخرج وهو يخمعُ، ثم يخرج الأميرُ وهو يخمعُ، ثم يخرج الكاتبُ وهو يخمعُ!!.

وكان الحكمُ بن عبْدل الشاعرُ: أعرج، فرآهم يوماً، وخاطب نفسه، فقال:

ألقِ العصا ودع التخادعَ والتمسْ عَمَـلاً فهـذي دوْلـةُ العُـرْجـان
لأميـرنـا وأميـر شـرطتنـا معـاً يـا قـومَنـا لكليهمـا رِجْـلاَنِ[1]

«ومن العرجان مُعاذُ بن جَبَل؛ بعثه النبي ﷺ إلى اليمن، فنزل في حيٍّ منهم وقال: لا ترونْي أصنعُ شيئاً إلا صنعتم مثلَه. وكان به عَرَجٌ، فكان إذا صَلَّى قدَّم إحدى رجليه. قال: فلمّا صَلُّوا لم يبق منهم أحـدٌ إلا قـدَّم إحدى رجليه. قال: فلما انصرفوا قال لهم: إني إنما فعلتُ هذا من عَرَجٍ، فلا تفعلوا مثل هذا.

وزعموا أنه صلَّى إلى قُرْب شجرةٍ فكان غصنٌ منها قد ضَرَب إحدى عينيه، فتناوله فكسره، فلم يبق أحدٌ ممن خلفه إلا تقدَّم إلى الشجرة فكسر منها غصناً»[2].

ويقال: إن كل ذي رجلين في الأرض، وكل ذي أربع؛ إذا قُطعتْ

---

(١) «البرصان والعرجان»، ص٢١٠.
(٢) المصدر السابق، ص٢١٤.

واحدة وانكسرت واحدة فإنه يمشي على الأخرى شيئاً قليلاً كان أو كثيراً. . إلا النعامة من بين جميع الخلائق، فإن الظليم[1] متى انكسرت إحدى رجليه لم يبرح مكانه أبداً مات أو عاش[2].

وللعرج في الطب أسباب. فقد يكون سببه ضعفٌ في العضلات، أو خلل في العظام، أو تيبس في المفصل. وقد ينجم عن مرض عصبي يصيب الساقين أو إحداهما.

وشلل الأطفال سبب شائع من أسباب العرج، وقد عانت منه البشرية سنينَ طوالاً. وخلال الثلاثين عاماً المنصرمة كان المرض يستوطن معظم العالم؛ إلا أن بعض الدول استطاعت اجتثاثه نهائياً، ودون عودة.

وشلل الأطفال مرض فيروسي حاد، غالباً ما يصيب الأطراف السفلية، وتقع غالبية الإصابات (٩٠٪) بين الأطفال دون سن الخمس سنوات. والعرج الذي يصاب به الطفل دون الخامسة من العمر هو غالباً نتيجة إصابته بشلل الأطفال.

ويدخل الفيروس إلى الجسم عن طريق الفم. وتنتشر العدوى بالرذاذ، ولا سيما أثناء الأوبئة. وإذا أصيب أحد أطفال الأسرة فإن معدل انتشار العدوى بالاختلاط بين الأطفال غير الملقَّحين يصل إلى ١٠٠٪.

ولهذا فإن الوقاية من التعرض للإصابة بهذا الفيروس بواسطة اللقاحات المعروفة، هي السبيل الوحيد لِمَحْوِ هذا المرض من الوجود.

وهناك أسباب أخرى للعَرَج؛ كالأمراض الخلقية، ومثالها «خلع الورك الولادي» وغيره.

كما أن العرج قد ينجم عن إصابة أحد المفاصل بالتهاب فيه، وقد يكون سببه عند المسنين شللاً في أحد الأطراف[3].

---

(١) الظليم: ذكر النعام.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٨.

(٣) عن كتاب Harrison الطبي طبعة ١٩٩٧؛ وكتاب Cecil طبعة ١٩٩٦.

وقد تزوج أبو الغول الطُّهَوي امرأته فوجدها عرجاء من رجليها جميعاً فقال:

أعوذ بالله من زَلَّاء[1] فاحشةٍ كأنما نيطَ ثَوْباها على عُودِ
أعوذ بالله من ساقٍ بها عِوَجٌ كأنها من حديدِ القيْنِ[2] سَفُّود[3]

ويقول الجاحظ: «وليس الشأن في الاستقامة ولا في الاعوجاج، وإنما الشأن في المصالح والمنافع، ألا ترى أن أموراً كثيرة من الأمور الملتوية والمعْوجَّة لو كانت مستوية مستقيمة لعَظُم الضرر وظهرت الخلة، فمن ذلك: الأضلاع والمفاتيح والمزاليج وأطلال السفن وإبر العقارب وأنياب الفيلة وغيرها»[4].

وكان الأحنفُ بن قيس أحنف من رجليه جميعاً، ولم يكن له إلا بيضة واحدة، وكان قد ضُرب على رأسه بخراسان فماهت[5] إحدى عينيه... ومع ذلك كان سيد قومه، وضُرِبَ المثل بحلمه، فقيل «أحلم من الأحنف بن قيس».

والحَنَف: الاعوجاج في الرجل، وأن يُقْبِلَ إحدى إبهامي رجليه على الأخرى، أو أن يمشي على ظهر قدميه من ناحية الخنصر، أو هو مَيْلٌ في صَدْرِ القدم.

وتكلَّم الناس عند معاوية في توكيد بيعة يزيد، والأحنف ساكتٌ، فقال معاوية: لِمَ لا تتكلَّم يا أبا بحر؟ قال: أخافكَ إن صدقتُك، وأخافُ الله إن كذبتُك.

ومن العرجان الأشراف: أبو الأسود الدؤلي، والربيع بن زياد بن أبي سفيان، وموسى بن نصير.

---

(١) زلَّاء: قليلة لحم الوركين.
(٢) القين: الحدَّاد.
(٣) السفُّود: سِيْخٌ من حديد يُنْظَم فيه اللحم ليُشوى.
(٤) البرصان والعرجان، ص١٦٧، بتصرف.
(٥) ماهت: أي ذهب ماؤها.

ومن العرجان: أبو راشد الضَّبِّيُّ، كان أعرج، ثم عَمِيَ، ثم أُقعدَ من رجليه؛ فقال حين عَمِيَ، وقد كان ابنُ حبيب وهبَ له عصاً حين عَرِجَ ـ وكان يمشي عليها ـ:

وهبْتَ عصا العُرْجان عَوْناً ومِرفقاً — فأين عصا العُميان يا بنَ حبيبِ
فقد صِرْتُ أعمى بعد أن كنتُ أعرجاً — أنوءُ على عُودٍ أصمَّ صليبِ

فلما صار أعرج أعمى لم يتعاطَ المشي وأُقعد من رجليه، فقال:

أرى كل داءٍ فيه للقوم راحةٌ — وداؤك مسمورُ الرِّتاج عسيرُ
فصبراً فإن الصبر أجدى مغبَّةً — عليك وأنواعُ البلاء كثيرُ

ولما جفاه أصحابه وجيرانه وأهله، قال:

أبولُ وأنجو في مكاني ومقعدي — وعندي عجوزٌ ما تُعينُ بطائلِ
وفي الموت للزَّمنى[1] جمالٌ وراحةٌ — وفي القبر سترٌ للفقير المُحَامِلِ[2]
ولكنه ما دام حيّاً كميِّتٍ — فلابُدَّ أن يحيا ببعض المآكلِ[3]

ومن العرجان: المنهال العنبري، وهو الذي يقول:

ألفتُ العصا وابتزَّني الشيبُ وانتهتْ — لِداتي وأودى كلُّ لهوٍ ومقصدِ
وظِلتُ أزُجُّ النفس وهي بطيئةٌ — إلى اللهوِ زَجِّي بالثِّقالِ المقيَّدِ
فأصبحنَ لا يخضبنَ كفاً لزينةٍ — من أجلي ولا تكحلْن عيناً بإثمدِ

وتمنى أحد الشعراء الموت على أن يصبح عالةً على غيره، فقال:

يا رب لا تُبقِني إلى زمنٍ — أكون فيه كَلّاً على أحدِ
خذْ أَجلي قبل أن أقولَ لمن — ألقاه عند القيام: خُذ بيدي

الزمخشري يفقد رجله:

كان الزمخشري ـ صاحب التفسير المشهور «الكشاف عن حقائق

---

(١) الزمنى: ذوو العاهات.
(٢) المحامل: هو الكلُّ والعيال على غيره.
(٣) البرصان والعرجان.

التنزيل» ـ أعرج، ولكن ذلك لم يمنعه من الترحال في طلب العلم والوصول إلى أعلى الدرجات.

قال عن نفسه ذات يوم: «كم رأيتُ من أعرجٍ في درج المعالي أعَرَجَ.. ومن صحيح القدم ليس له في الخير قَدَم».

ففي إحدى أسفاره أصيبت ساقه بسبب الصقيع، وحاول علاجها دون جدوى.. وكان لا بدَّ من بترها وإبدالها بساق خشبية لازمته طوال حياته.

ويحكي الزمخشري عن بدايات هذه الحادثة فيقول:

«كنت في صباي أمسكتُ عصفوراً.. وربطته بخيط في رجله.. فأُفْلِتَ من يدي.. فأدركتُه وقد دخل في خُرق... فجذْبته... فانقطعت رجله في الخيط. فتألمتْ أمي لذلك، وكانت متدينة رحيمة القلب، وغضبتْ عليَّ فقالت: قطع الله رجلك كما قطعتَ رجلهَ.. فلما وصلتُ إلى سن طلب العلم، رحلتُ إلى بخارى لتحصيله.. فسقطتُ من الدابة ـ وكان الجو صقيعاً ـ فانكسرت رجلي.. وأصابني ألمٌ أوجبَ قطعها».

وقد أثرَّ البرد الشديد على رجله، لأن البرد والثلج ـ كما يقول ابن خلكان ـ كثيراً ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد، فتسقط، خصوصاً في خوارزم التي تشتهر بشدة البرودة. وقد شاهد ابن خلكان خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم لهذا السبب.

ولما سقطت رجله.. أشهد الزمخشري في محضرٍ خلقاً كثيراً ممن اطَّلعوا على حقيقة ذلك.. خوفاً من أن يظهر من لم يعلم الحقيقة أنها قطعت لريبة، ثم اتخذ رجلاً من خشب.

ومن ثَمَّ أخذ الزمخشري يشق طريقه وسط صخور هذه المحنة ووسط ريبة الكثيرين.. لكنه كان يضع العلم أمام عينيه لا يحيد عنه[1].

* * *

(١) «مسلمون هزموا العجز» أحمد سويلم. الدار المصرية اللبنانية.

النقرس

مرض الملوك

إن كلمة «النقرس» ترسم في ذهن الإنسان صورة ملك بطين، أحمر الوجه، متكئاً على مقعد وثير، وقد أنهض على وسادة أمامه قدماً ملتهبة الأصابع.

والنقرس (Gout) في الحقيقة مؤلم جداً، وربما كان من نتائج الانكباب الزائد على التهام الأطعمة... ولهذا يخشى الأعرابي على نفسه، وقد أصبح غنياً يأكل من أطايب الطعام، ويُكثر من تناول اللحوم، فيقول:

فصِـرْتُ بعــد الفقــر والتفلُّــس يخشى علـيَّ الحـيُّ داءَ النقـرسِ

وإذا كان النقرس هو «مرض الملوك» - كما يقال - فإنه قد يصيب الفقراء والمساكين أيضاً.. فهذا أبو علي الجزْماني يعجب كيف أصيب بالنقرس، وهو الفقير المفلس الذي لا لحوم عنده ولا طعام:

ألا فاعجبوا من مُفْلِسٍ حِلْفُ نقرسٍ أَمَـا نقـرسٌ فـي مفلـسٍ بعجيـبِ

والنقرس هو التهاب في المفاصل ينجم عن زيادة حمض البول uric acid في الدم. وفيه تتوضع بلورات صغيرة كيميائية في الحيِّز الذي يقوم فيه المفصل، فتسبِّبُ التهابه.

ولكن ارتفاع حمض البول في الدم بحد ذاته لا يؤلم، وقد لا يحتاج إلى علاج.

ويصيب النقرس الحاد، في أغلب الحالات، قاعدة إبهام القدم، يليه

مفصل الركبة فالرسغ، وقد تصاب المفاصل الأخرى.

ولا يصاب في كل مرة عادة سوى مفصل واحد.

ويأخذ المفصل المصاب في التورُّم ويحمرُّ، ويصير مؤلماً، وذلك خلال بضع ساعات. يقول الشاعر، وهو يصف آلام النقرس:

أشكو إلى الله ما أصبتُ به ... من ألمٍ في أنامل القدمِ
كأنني لم أطأ بها كبداً ... من حاسدٍ سرَّ قلبَهُ ألمي

وسرعان ما تصير منطقة الإصابة شديدة التحسس باللمس، حتى أن تلامس العضو المصاب بملاءة السرير يسبب له آلاماً مبرحة، كما أن المريض قد لا يستطيع الوقوف على قدمه.

وإذا لم يعالج المَرَض فإن النوبة تبلغ أقصى ذراها خلال يومين أو ثلاثة، ثم تبدأ بالاختفاء التدريجي خلال مدة تدوم حوالي أسبوعين. وبعد تراجع الهجمة فإن المفصل والأنسجة المحيطة به تصبح طبيعية تماماً إلى أن تحدث الهجمة التالية.

ويمكن تشخيص النقرس عادة بسهولة، فاختبار حمض البول في الدم عنصر هام في التشخيص، كما قد يلجأ إلى قياس مستواه في البول أيضاً.

وإنذار النقرس عادة إنذار ممتاز، ولا يتوقع أن يصاب المريض بمشاكل صحية ذات بال إذا اتبع بعناية ما يأتي من توصيات طبيب كفء.

فالإصابة بالنقرس تتأثر بوزن الجسم، ونوع الغذاء الذي يتناوله الإنسان، وكذلك بعادة تعاطي الخمور. وعلى هذا فإن بالإمكان معالجة هذه الحالة عن طريق اتباع نمط حياة عقلاني تشمل مقتضياته الحفاظ على وزن معقول، وممارسة الرياضة إلى حد طيب، وتناول الأطعمة التي تُستبعد منها مسببات ارتفاع حمض البول: كالكبد والمخ وأعضاء الأحشاء، والإقلال من اللحوم بشكل عام.

ويساعد شرب مقادير كبيرة من السوائل على تدفق البول وطرح حمض

البول، فقد يؤدي ارتفاع حمض البول في الدم أيضاً إلى تشكل حصاة في الكلية.

وقد يرتفع حمض البول في الدم أيضاً نتيجة تناول بعض الأدوية، كمدرات البول (مثل لازكس، والثيازيد، وأشباهها)، فينبغي تجنُّب تلك الأدوية عند المصابين بالنقرس.

وتعالج هجمة النقرس الحاد بالأدوية التي تخفف التهاب المفاصل مثل (الأندوسيد، والفولتارين، وأشباهها)، كما أن هناك دواء آخر يدعى (Colchicine) يفيد في علاج الهجمة الحادة.

وقد يحتاج الأمر لإعطاء دواء يمنع تشكل حمض البول مثل الـ Allupurinol (Zyloric) مدى الحياة[١].

* * *

(١) عن كتاب هاريسون والموسوعة الطبية للأسرة.

الحُمَّى

في عيون الشعراء وعيادات الأطباء

وصف الحمى شاعران اثنان، كلاهما تعرَّض للحمى التي سلبته متعة الحياة؛ فوصفها وناجاها، وخلَّف شعراً خالداً فيها.

كلاهما مات في العقد السادس من العمر، وكلاهما مات بسبب لسانه وهجائه المقذع؛ فالأول مات مقتولاً بسبب هجائه لوالي البصرة، والثاني مات مقتولاً أيضاً بسبب هجائه.

ففي ديوان عبد الصمد بن المعذِّل قصيدة ومقطوعتان في وصف الحمى، وبلغة الأرقام فقد قال فيها ستة وعشرين بيتاً.

أما المتنبي فقد جاء وصفه للحمى ضمن قصيدة في الشكوى خصَّص منها للحمى ستة وعشرين بيتاً. . ومن هنا فالقصيدتان متساويتان في عدد الأبيات.

يبدأ عبد الصمد قصيدته بالتحسر على حاله وما آل إليه حتى ترك الملذات مجبراً لا مختاراً، مؤكداً أن الذي صدَّه عن الملذات هو المرض، يقول:

هجـرتُ الهـوى أيمـا هجْـره ... وعفـتُ الغـوانـيَ والخمـرهْ
لـوتنـي عـن وصلهـا سكـره ... بكـأس الضَّنـا أيمـا سكـرهْ
إذا وردتْ لـم تـزغْ وردهـا ... عـن القلـب حُجْـبٌ ولا ستـره
كـأن لهـا ضَـرمـاً فـي الحشـى ... وفـي كـلِّ عضـوٍ لهـا جَمْـرَهْ
إذا لـم تـرح أصـلاً فـي العشـى ... فـأقصـى مـواعـدهـا بكـره

لهـا قـدرة فـي جسـوم الأنـام   حبـاهـا بهـا الله ذو القـدره

ويحاول شاعرنا - من باب تجاهل العارف - أن يعطي الحمى أسماء أخرى لعل ذلك يخفف من معاناته، أو لعله يقنع نفسه أن ما به ليس حمى:

تعللـتُ بـاسـمٍ سـواهـا لهـا   كـأن ليـس لـي بـاسمهـا خبـرةْ
فطَـوْراً ألقبهـا (سخنـةٌ)   وطـوراً ألقبهـا فتـرةْ

ويتناول ما تحدثه الحمى من فقدان للشهية إلى الطعام، وما يشعر به المريض من ثقل، فيقول:

وصـرتُ إذا جعـتُ يـومـاً ظللـتُ   كـأن علـى كبـدي شفـره

ويصف ما يصيب المعدة من حرقان حين يتناول الطعام فيقول:

ويـربـو الطحـال إذا مـا شبعـت   فتعلـو التـرائـب والصـدره

إنه في ألم مستمر أكان جائعاً أم شبعان.

ولأنه كان من المقبلين على الطعام قبل مرضه، فهو يتحسَّر عندما يرى إنساناً يأكل بشهية، بينما هو محروم من الأكل، ومن التمتع بالطيبات، فيبكي بكاء الطفل الذي حرمته أمه قطعة الحلوى، فيقول:

إذا مـا رأيـت امـرءاً مطلَقـاً   لـه الأكـلُ تخنقنـي العبـره
وقـالـوا شفـاؤك فـي حِمْيَـةٍ   تعـود عليـك بهـا النضـرهْ(١)

* * *

وهذا الشاعر العظيم «المتنبي» تدهمه الحمى فتسلمه للفراش، وكان لا يعرف السكون.. ويصرخ المتنبي من أعماقه صرخات اليائس الغاضب الذي لم يتخيل أن تُسلِمه أقداره للفراش، وهو الذي لم يكفّ عن الارتحال، فيقول متحدثاً عن الحمى، واصفاً إياها وصفاً رائعاً:

---

(١) «وصف الحمى بين عبد الصمد بن المعذل وأبو الطيب المتنبي» د. نورة الشملان المجلة العربية، شعبان ١٤١٢هـ.

وزائــرتــي كــأنَّ بهــا حيــاءً ... فليــس تــزور إلا فــي الظــلام
بـذلـتُ لهـا المطـارف والحشـايا ... فعـافتهـا وبـاتـت فـي عظـامـي
يضيـق الجلـدُ عـن نفسـي وعنهـا ... فتــوسعــه بــأنــواع السقــامِ
إذا مــا فــارقتنــي غسَّلتنــي ... كــأنـا عــاكفـان علــى حـرام
كـأن الصبـح يطـردهـا فتجـري ... مــدامعهــا بــأربعــة سجــامِ

لقد جرَّد المتنبي من الحمى أنثى خجولاً تختار الليل المظلم ستاراً لزيارتها، وكأنها تخشى العذَّال والرقباء؛ وتنام في عظام الشاعر رافضة ما بذل لها من أنواع الفراش، وهي حريصة على نفسها تحميها من حالة السوء؛ لذا فإنها تغادر حبيبها قبل طلوع الفجر، ولكنها تغادره وهي نادمة على ذلك فتعبر عن ندمها بالدموع .

ولقد استند المتنبي في حديثه الشيق عن الحمى على حقائق معروفة، فكثيراً ما تصيب الحمى الإنسان بالليل وتغادره في الصباح بعد أن يتندّى جسده بالعرق.

وفي الطب فإن من أنواع الحمى ما يسمى بالحمى الدورية، وفيها تحدث هجمة من الحمى ثم تغيب يوماً فأكثر فتعود ثانية أو أكثر، وتصاحب هذه الحمى بعض التقيُّحات، كما تشاهد في الملاريا .

وأغلب الظن أن المتنبي كان مصاباً بالملاريا .

والملاريا مرض طفيلي ينجم عن ولوج طفيلي الملاريا إلى الدم بوخزِ نوعٍ من البعوض الخبيث .

وتتصف الملاريا بِنُوَبٍ حُمَّوِيَّةٍ تنتاب المريض في أوقات معينة؛ وتبدو بثلاثة أدوار: العرواء (النافض)، وارتفاع الحرارة، ثم العرق. فإذا كانت هذه الحمى تأتي كل يوم فهي «حمى الورد»، وإذا كانت تأتي كل يومين (أي تغيب يوماً بين نوبتين) فهي «حمى الغبّ»، وإذا كانت تأتي كل ثلاثة أيام فهي «حمى الربع»، ويفصل بين النوبتين زمن تصبح فيه حرارة المريض طبيعية .

وإذا كانت الحبيبة تَعِدُ وتخلف، فإن الحمى تعد وتفي بوعدها؛ يقول:

أراقب وقتها من غير شوقٍ ... مراقبةَ المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شرٌّ ... إذا ألقاك في الكرب العظامِ

وتزداد الكوارث والهموم على نفس أبي الطيب من تلك الحمى التي دهمته في وقت كان يعدُّ نفسه لمغادرة كافور والخلاص من تحديد الإقامة. ويسأل المتنبي الحمى باستعلائها المشهور كيف استطاعت الوصول إليه مخترقةً كل ما يحيط به من مصائب ونوائب.

أبِنْتَ الدهر عندي كل بنت ... فكيف وصلتِ أنتِ من الزحام

وينهض المتنبي كالأسد الهصور معلناً أن المرض لم ينل من عزيمته وقوته، فيقول:

فإن أَمْرَض فما مَرِضَ اصطباري ... وإن أحمم فما حُمَّ اعتزامي

* * *

وقد تنتاب الحمى المريض بالنهار، وفي ذلك يقول العماد الكاتب:

وزائرة وليس بها حياء ... فليس تزورُ إلا في النهار
أتتْ والقلبُ في وهج اشتياقٍ ... ليظهر ما أُواري من أواري
ولو عرفتْ لظى سطوات عزمي ... لكانت من سَطاي على حذار
تُقيم فحين تُبصر من أَنَاتي ... ثبات الطَّود تُسْرِعُ في الفرار
أيا شمس الملوك بقيتِ شمساً ... تنير على الممالك والديار
أَحُمَّاك استعارت لفح نارٍ ... لعزمكِ لم تزل ذات اسْتِعَارِ

وقد تستمر الحمى بلا انقطاع، وتأتي العرواءات (النوافض) صباحاً ومساءً. يقول أبو هلال العسكري:

تنفضني الحُمَّى ضحًى وعشيَّةً
كما انتفضتْ في الدَّجن[1] قادمتَيْ[2] نَسْرِ

---

(١) الدَّجن: الظلام.

(٢) قوادم الطائر: جمع قادمة وهي إحدى ريشات عشر في مقدمة الجناح.

تذرُّ عليَّ الورْس[1] في وضح الضُّحى
وتبدلُهُ بالزعفران لدى العصر
إذا انصرفتْ جاء الصداعُ مشمِّراً
فأربى[2] عليها في الأذيَّة والشرِّ
وتجعل أعضائي عيوناً دوامعاً
تواصِلُ بين السَّكب[3] والسَّجْم[4] والهمْرِ[5]

وتَحدث الحمَّى حين تزيد درجة حرارة الجسم عن معدَّلها الطبيعي (٣٧ درجة مئوية). وهناك في منطقة ما تحت المهاد (وهي منطقة تقع فوق الغدة النخامية في الدماغ) مركز منظِّم لحرارة الجسم ضمن مستوى معيَّن، رغم تغير حرارة البيئة والنشاط الفيزيائي.

وحين تدخل الجراثيم إلى الجسم، تبدأ هذه الجراثيم بإفراز مواد تسمى التوكسينات (الذيفان الداخلي)، وتدخل مجرى الدم وتحرض كريات الدم البيضاء على إطلاق مواد تدعى «المُحِمَّات» (أي المواد المولدة للحمى)، وهذه تؤثر في مركز تنظيم الحرارة الموجود في الدماغ فترتفع بذلك درجة حرارة الجسم.

والحمى بذاتها ليست مرضاً، بل هي دلالة مرضية على حدوث خللٍ ما في الجسم البشري، وتعالج الحمَّى بمعالجة السبب المحِدث لها، كما تلطف الحمى بإحدى طريقتين: إما بإعطاء خافضات الحرارة الدوائية كالأسبرين والباراسيتامول، وإما بتبريدها بالماء.

وقد نبه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هذه الوسيلة الفيزيائية

---

(١) الورس: نبات ذو ثمار حمراء

(٢) أربى عليها: زاد عليها.

(٣) السكب: هطول المطر.

(٤) سجم المطر: سال قليلاً أو كثيراً.

(٥) الهمر: السكب بقوة.

لتلطيف الحمى حيث قال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»(١).

ويواسي الرسول ﷺ المؤمن المصاب بالحمى فيقول:

«الحمى كير من جهنم فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار»(٢).

كما نهى رسول الله ﷺ عن سبِّ الحمى فقال:

«لا تسبِّي الحمى فإنها تُذهِب خطايا بني آدم كما يُذْهِب الكير خبث الحديد»(٣).

وقال ابن قيم الجوزية: «ذكرت مرة ـ وأنا محموم ـ قول بعض الشعراء يسبّها:

زارت مكفِّرةُ الذنوب، وودَّعتْ تبـاً لهـا مـن زائـرٍ ومـودِّعِ
قالت وقد عزمتْ على ترحالها ماذا تريدُ؟ فقلت أَنْ لا ترجعي

فقلت: تباً له؛ إذ سبَّ ما نهى رسول الله ﷺ عن سبه، ولو قال:

زارت مكفّـرَةُ الـذنـوب لصبِّهـا أهـلاً بهـا: مـن زائـرٍ ومـودِّعِ
قالت ـ وقد عزمتْ على ترحالها ـ: مـاذا تـريـدُ؟ فقلـت أَنْ لا تُقْلعـي

وقال محمد بن زياد الكاتب في تهوين الحمَّى على المحموم:

فلئن حُمِمْتَ فلا حُمِمْتَ فإنَّها داءُ الأسودِ وفي الرجال أُسُودُ

حمَّى الحبيب:

قال أحد الشعراء في إيثار حبيب أصيب بالحمَّى:

قالوا: حبيبكَ محمومٌ فقلتُ لهمْ نفسي الفداءُ له مِنْ كل محذورِ
فليـتَ عِلَّتَـهُ بـي غيـر أنَّ لـه أجْرَ العليلِ وأني غيرُ مأجورِ

وقال ديك الجن وهو يتمنى أن تنتقل الحمَّى من محبوبته إليه ويُشفى محبوبه:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد (صحيح الجامع الصغير ٣١٨٨).

(٣) رواه مسلم.

يا ليتَ حُمَّاه بي كانت مضاعفةً ... يوماً بشهرٍ وأن الله عافاهُ
فيصبحُ السُّقْمُ منقولاً إلى جسدي ... ويجعلُ اللهُ منهُ البرْءَ عُقْباهُ

وقال صفي الدين الحلي يواسي حبيبه عندما أصيب بالحمَّى:

فتورُ نبضكِ من عينيكِ مُسترَقٌ ... وضعفُ جسمك من جفنيك مُقترضُ
لو أستطيع بقلبي عنكِ حملَ أذىً ... جعلْتُهُ في لظى حُمَّاكِ يرتمضُ

وكتب أبو نواس إلى محبوبته عنان الناطفية:

إني حُمِمتُ ولم أشعر بُحمَّاكَ ... حتى تحدَّثَ عوَّادي بشكواكَ
فقلتُ ما كانت الحمّى لتطرقني ... من غير ما سببٍ إلا بحُمَّاكَ
وخصلةٌ كنتُ فيها غير مُتَّهمٍ ... عافاني الله منها حين عافاكَ

وقال البلاط عندما أصيب ابنه بالحمى:

قد كنتُ بالحُمَّى أحقُّ فليتني ... ألقى من الحُمَّى الذي تلقى

وما ألطف قول الشاعر:

قالوا حبيبُكَ محمومٌ فقلتُ لهم ... أنا الذي كنت في حُمَّائِه سببا
قبَّلتُه ولهيبُ النار في كبدي ... فأثَّرتْ فيه تلك النار فالتهبا

* * *

الزكـــام
يزور إمام الأطباء

ينجم الزكام عن نوع من الفيروسات، وهناك في الحقيقة أكثر من ٢٠٠ نوع من الفيروسات التي تسبب الزكام.

وتقول الإحصائيات العلمية أن أكثر من نصف سكان بريطانيا يصابون بالزكام مرة واحدة على الأقل في السنة.

وينتشر الزكام عن طريق الرذاذ (الحامل للفيروس)، والذي يتناثر في الهواء بالسعال أو العطاس، أو بتلامس الأيدي الملوثة بالفيروس.

ولا تحول الصحة الجيدة بالضرورة دون الإصابة بالزكام، هذا على الرغم من أن الاكتئاب والتعب والتوتر العصبي يمكن أن تساعد على استجراره على نحو أسرع بكثير.

ويأتي الزكام عادة بشكل مفاجىء، ويتهيج الحلق في أغلب الأحيان، ويسيل الأنف، ويظهر بعض عطاس، وإحساس بعدم ارتياح، ويحتقن الأنف ويتبعه انسداد في الأنف.

وقد يمتد الالتهاب الناجم عن الزكام من الأنف إلى مناطق مجاورة، فيسبب التهاباً في الحنجرة، أو القصبات الهوائية، أو الجيوب الأنفية أو الأذن الوسطى.

ويصف ابن سينا حاله، وقد أصابه الزكام فيقول:

ونزلةٍ كنتُ أحمي وجه مَوْردها   ففاجأتني على ضربٍ من الحمرِ

سدَّتْ علي طريق الروح مُنْتَشَقاً وأسلمتْني لأيدي الروع والخَدَرَ
ففي شؤوني حريقٌ من تلهُّبه وفي الخياشيم ضيقٌ مُحصدِ المَرَر

ولا يستطيع طبيبٌ أن يشفي زكاماً أو يقصر فترته، ولكنه يمكن أن يساعد على منع حدوث المضاعفات.. والحقيقة أنه ليس هناك علاج حتى الآن يشفي من الزكام، وإلى ذلك أشار ابن سينا قبل أكثر من ألف عام، بعد أن أعيته الحيل في علاج الزكام الذي حلَّ به:

لا الفصد يُغني ولا ماء الشعير ولا طولُ احتماءٍ إذا ما همَّ بالدَّررِ

فلا قيمة للمضادات الحيوية ما لم تكن هنالك مضاعفات جرثومية مرافقة، ولا تُحقِّق مضادات الهيستامين التي تخفف من احتقان الأنف شفاءً كاملاً.

ومعظم حالات الزكام تشفى خلال أسبوع واحد، ويكمن علاج الزكام أساساً في الراحة في السرير، وتناول المسكنات، ومضادات الاحتقان، وشرب عصير الليمون والبرتقال، أو الفيتامين (سي).

وبعد أن يفشل ابن سينا في علاج زكامه، وهو الذي كان يعالج الناس من أشد الأمراض فتكاً، يهدأ باله، ويسكن فؤاده، ويحمد الله، فيقول:

فالحمد لله حمداً لا كفاءَ له على السلامة وقَّاها من الغِيَرِ

* * *

هل سمعتم بمن غصَّ بالماء؟

خصَّ الله سبحانه وتعالى المري بخاصة مطاطية لطيفة، تستطيع بها لمعة المري أن تتمدد إلى قطرٍ يبلغ ٤سم. ويحدث عسر البلع عادة حين يفشل المري في توسيع لمعته إلى ما يزيد عن ٢,٥ سم. أما إذا كان أقصى قطرٍ يستطيع المري أن يبلغه هو ١,٣ سم، فإن عسر البلع حادثٌ لا محالة.

وعسر البلع عَرَضٌ شائع، وله أسباب عديدة، فقد يحدث بصورة عابرة لدى تناول لقمة كبيرة نسبياً، أو عند دخول شوكة سمك (حَسَكة) مثلاً في البلعوم أو المري، وقد ينجم عن عدم إفراز كمية كافية من اللعاب.

وهناك اضطرابات في المري تسبب عسر البلع، ومنها تشنُّج المري، أو التهابه، أو عند وجود تضيُّق فيه، أو في حالة حدوث اضطراب في تقلص عضلات أسفل المري.

وقد يحدث عسر البلع نتيجة مرض في الجهاز العصبي كالسكتة الدماغية (stroke) وغيرها، وقد يكون سببه اضطراباً نفسياً أو حالة من الهيستريا.

كما أن أي ضغط خارجي من ورم أو عقد ليمفاوية أو غيرها، يمكن أن يضيِّق مجرى الطعام (المري).

ويعطي نوع الطعام الذي يسبب الغصص أو عسر البلع الطبيبَ فكرةً

تساعده على التشخيص؛ فعسر البلع الذي يحدث فقط لدى تناول الطعام الصلب يكون سببه عادة اضطراب آلي (ميكانيكي) في البلعوم أو المري. ولكن المريض يشكو من عسر البلع عندما تتقدم الحالة سواء تناول الطعام أم شرب الماء.

أما عسر البلع الناجم عن اضطرابٍ في حركيّة المري أو تشنُّجٍ فيه، فيحدث منذ البداية سواء شرب المريض الماء أو تناول الطعام.

والغَصَصَ يصيب الشعراء مثلما يصيب غيرهم، إلا أن الشعراء يتناولونه تناولاً لطيفاً، فهم يقولون إن المرء ليسعى إلى الماء ليدفع لقمة الطعام الواقفة بالحلق.. ولكن ما السبيل إذا كان الماء هو سبب الغَصَصَ؟

إلى الماء يسعى من يغصُّ بأكلةٍ   فقل: أين يسعى من يغصُّ بماءِ

وقال أبو البغل:

من غصَّ بالزاد ساغ الماءُ غُصَّتَهُ   فكيف يصنع من قد غُصَّ بالماء

وقد تؤدي الانفعالات النفسية الشديدة إلى الغصص، فهذه شاعرتنا العظيمة الخنساء تشكو منه في حزنها على موت أخيها صخر فتقول:

ولكنـي أبيـتُ لـذكـر صخـرٍ   أغَـصُّ بسلسـل المـاء الغَضيـضِ

وأجمل الغصص ما كان برضاب المحبوب، قال البحتري:

تداويتُ من ليلى بليلى فما اشتفىٰ   بماء الربى من بات بالماء يشْرقُ[1]

وقال آخر:

وكنـا نستطِـبُّ إذا مَـرِضنـا   فصـار سقـامنـا بيـد الطبيـبِ

فكيـف تجيـرُ[2] غُصَّتنـا بشـيءٍ   ونحـن نَغَـصُّ بـالمـاء الشـريـبِ

أما التهاب البلعوم فيتظاهر بألم في الحلق (Sore throat)، وأكثر

---

(١) يشرق بالماء: يغص به فيصعب بلعه.

(٢) تُجير: تُنقِذ.

أسبابه شيوعاً هو الالتهاب الفيروسي، وقد يكون سببه جرثوماً أو أنواعاً أخرى من الميكروبات.

وكثيراً ما يكون التهاب الحلق جزءاً من الإصابة بالزكام أو الانفلونزا؛ وهناك أسباب مرضيّة أخرى لالتهاب البلعوم... وقد يكون سببه بلع أطعمة مهيِّجة (كطعام كثير التوابل، أو كحول، أو فلفل أحمر)، أو التدخين، أو استنشاق أدخنة صناعية.. وإضافة إلى الألم في الحلق، فقد يشكو المريض من ألم أثناء البلع، وحمى خفيفة، أو ألم في الأذن، وقد يشعر بألم لدى جسّ العقد البلغمية في رقبته.

وأكثر ما يفيد في علاج التهاب الحلق استعمال الغرغرة بملح مذابٍ بماء دافىء، وتناول المسكنات كالأسبرين أو الباراسيتامول وغيرها.

وعادة ما يشفى التهاب البلعوم ذاتياً.. وإذا ما استمر التهاب البلعوم أو أصبح شديداً، فينبغي استشارة الطبيب، فقد يحتاج إلى مضاد حيوي[1].

يقول ابن سكرة وقد أصابه التهاب البلعوم:

أيهـــا النـــزلـــة سيـــري وانـــزلـــي غيـــر لهـــاتـــي
واتـــركـــي حلقـــي بحقـــي فهـــو دهليـــزُ حيـــاتـــي

* * *

(١) عن كتاب Cecil طبعة ١٩٩٦.

لكيلا تعيش بكبدٍ مقروحة

قال ابن الحجاج يصف ما أصابه من مرض في الكبد والطحال:

وبي مَرَضان مختلفان حالي الـ ـعليلـةُ منهمـا تمسـي بحـالِ
إذا عـالجـتُ هـذا جـفَّ كبـدي وإن عالجتُ ذاكَ ربا[1] طحالي

ويبدو أن الشاعر كان مصاباً بتشمع الكبد، ففي هذه الحالة يتضخم الكبد في البداية، ولكن مع تقدُّم المرض ينكمش الكبد ويصبح صغيراً وصلباً جداً؛ حتى أنه يُنْعَت بـ «كبد نَعْل حذاء الكرة» وذلك لأن سطحه يشبه قليلاً النتوءات الموجودة على نَعْل حذاء كرة القدم.

وفي الوقت الذي ينكمش فيه الكبد ويصفّر، يزداد حجم الطحال ويربو، وقد يصاب المريض حينئذ أيضاً بالحبن (استسقاء البطن)، كما يشكو المريض من فقدان الشهية، ونقص الوزن، والغثيان، واليرقان (اصفرار العينين والجلد)، وتورمٍ في القدمين.

وقد يصاب الكبد بالتشمع، ويظل المريض صابراً لا يئن ولا يشكو. وتستمر رحلة التشمع مع المريض خلال سنوات العمر إلى ما بعد الأربعين أو الخمسين.. إلى أن تفاجئه القشة التي تقصم ظهر البعير، ويكتشف الطبيب حينئذٍ أن المريض يعاني من مرض مزمن بالكبد. ويظهر ذلك في شكل النزف الهضمي (كالقيء الدموي) أو الاستسقاء الشديد في البطن (الحبن)، أو الغيبوبة الكبدية (السبات الكبدي)[2]، وربما كان ولد الشاعر

---

(١) ربَا طِحَالي: كَبُرَ وتَضَخَّم.

(٢) عن كتاب هاريسون الطبي.

ابن الرومي قد أصيب باليرقان والنزف الهضمي، حيث مات ورثاه أبوه فقال:

توخَّى حِمامُ الموتِ أوسطَ صبيتي فلِلَّـهِ كيـف اختـارَ واسطـةَ العِقْـدِ
ألـحَّ عليـه النـزفُ حتـى أحـالَـهُ إلى صفرة الجادي عن حُمرة الورْدِ
وظلَّ على الأيدي تساقَطُ نفسُه ويذوي كما يذوي القضيب من الرندِ

والنزف الهضمي أحد مضاعفات التشمع الكبدي، وينجم عادة عن دوالي المري (وهي تمددات في الأوردة في أسفل المري). وتظل هذه الدوالي صامتة، إلى أن يثيرها مثير على هيئة قرص أسبرين، أو قرص لعلاج الروماتيزم. وهنا تحدث الكارثة وتنفجر الدوالي، ويتقيأ المريض دماً غزيراً.

وفي غياب العلاج تتدهور حالة المريض بسرعة، وقد تؤدي إلى الوفاة.

يصاب مريض التشمع بنقص الوزن والهزال، ولعلَّ هذا ما أشار إليه ابن الرومي حين قال:

وظلَّ على الأيدي تساقَطُ نفسُه ويذوي كما يذوي القضيب من الرندِ

ولربما كان وَلَدُ «ابن الرومي» مصاباً بسرطان في الكبد الذي يصاحبه الهزال وفقدان الوزن والضعف العام وفقدان الشهية واصفرار العينين، وتضخم الكبد.

ولكن ما هي أسباب تشمُّع الكبد؟

ينجم تشمع الكبد عن التهابات الكبد الفيروسية، أو البلهارسيا، أو الإدمان في تعاطي الكحول، أو انسداد طويل المدى للقنوات المرارية وغير ذلك.

وبسبب تشمع الكبد يفقد الآلاف من المصريين أرواحهم في كل عام. وتشير الإحصائيات إلى أن ٢٠٪ من أسباب الوفيات في مصر سببها مرض في الكبد.

وقد يحتاج المريض إلى زرع الكبد، فقد تكون الملاذ الوحيد لنجاة المريض. ولعلَّ الشاعر أشار إلى إمكانية زراعة الكبد منذ قرون عديدة فقال:

ولي كبدٌ مقروحة.. من يبيعني　　بها كبداً ليست بذات قروحِ
أباها عليّ الناس لا يشترونها　　ومَن يشتري ذا علةٍ بصحيح

* * *

حين يمجُّ المسلول دماً

السل مرض رئوي عالمي يصيب حوالي ٣٠ مليون شخص في الوقت الحاضر، ويموت بسببه حوالي ثلاثة ملايين من البشر سنوياً.

ويعتبر جرثوم السل من أشرس أعداء الإنسان، فهو يهاجم كل جزء من أجزاء الجسم، إلا أن قرابة تسعين بالمئة من حالاته تغزو الرئتين بخاصة. وقد فتك السل بعددٍ من الشعراء والأدباء من أمثال «نوفاليس» و«موليير» وغيرهم.

وللأخطل الصغير، في وصف مسلول، قصيدة رائعة نورد منها هذه الأبيات التي تصور مريضاً انتهت به العلة إلى أرحم مصير، يقول:

سنةٌ مضتْ.. فإذا خرجتَ إلى ... ذاك الطريق بظاهر البَلَدِ
ولَفَتَّ وَجْهك يَمنةً فترى ... وجهاً، متى تذكرْهُ تَرتعدِ
هذا الفتى في الأمس صار إلى ... رجلٍ هزيل الجسمِ مُنجردِ
عيناه عالقتان في نفقٍ ... كسراجِ كوخ نصف متقدِ

ثم يقدِّم أروع صورة وأشدها إيلاماً لحالة المَصْدُور[1] وهو ينتظر حتفه المحزن، فيقول:

ويمجُّ أحياناً دماً.. فعلى ... منديله قِطَعٌ من الكبدِ
قِطعٌ تآبينٌ مُفجِّعَةٌ ... مكتوبةٌ بدمٍ.. بغيرِ يدِ
قطعٌ تقول له: تموتُ غداً ... وإذا تَرِقُّ تقولُ بعد غدِ
والموتُ أرحمُ زائرٍ لفتىً ... متزمِّلٍ بالداء مُغْتَمِدِ

---

(١) المصدور: المصاب بداءٍ في صدره.

ورغم أن السلَّ ما زال يفتك بالملايين من البشر إلا أن ضحاياه تكون غالباً في البلدان المتخلفة والفقيرة نتيجة لتأخر التشخيص، أو بسبب العجز عن تعاطي العلاج؛ إما لضيق ذات اليد، أو لغياب الوعي.

وإذا كان السل ما زال يصول ويجول في البلدان المتخلفة التي يسمُّونها تأدباً «البلدان النامية» فقد انخفض حدوثه بشكل كبير في البلدان المتقدمة ومع ذلك فإن حوالي ٦٠٠٠ شخص يصاب بالسل في بريطانيا كل سنة.

والسل ينتشر أكثر ما ينتشر في المناطق الفقيرة، وبين المسنين، وعند الذين هم على التصاق حميم بالمصابين. كما يزداد حدوثه عند المصابين بمرض السكر والإيدز، وعند المدمنين على الخمور.

وأكثر أعراض السل شيوعاً السعال ونفث الدم (القشع الدامي)، والتعب الوخيم وفقدان الشهية والتعرق الليلي، وفقدان الوزن.

أما السل الرئوي المترقي في البالغين فغالباً ما ينسلُّ على نحو غادر بفقدان بطيء للوزن، وتعب تدريجي، ثم ينفجر فجأة فيجعل المريض مهزولاً خلال فترة قصيرة، ويصبح جلده شاحباً، ويعاني من سعال يصحبه القشع الدامي وعرق يبلل فراشه كل ليلة. وقد كان هذا الشكل من السل يقتل ضحيته خلال أسبوع قبل توفر العقاقير المضادة للسل.

ولعلَّ مريض الأخطل الصغير كان مصاباً بمثل تلك الحالة الشديدة.

أما الآن فتستخدم العقاقير الحديثة لمواجهة المرض، فيستعمل ثلاثة عقاقير أو أربعة في البداية، ثم تُخفف بعدها إلى عقارين، ويستمر المريض على العلاج لمدة تتراوح بين ٩ أشهر و١٢ شهراً، وقد يُعطى العلاج لفترة أطول في بعض الحالات.

* * *

الأدرة
وموسى عليه الصلاة والسلام

الأُدْرة (Hydrocele): هي انتفاخ غير مؤلم في كيس الصفن الذي يحيط بالخصية، ويمتلىء عادةً بسائل مائي، وتسمى أيضاً (القَيْلَة المائية).

وتنجم في بعض الأحيان عن التهاب أو رَضّ للخصيتين. وفي معظم الحالات لا يُعرَفُ لها سبب.. ويكثر حدوثها في الرجال في أواسط العمر.

قال جرير بن الخَطَفَى في بني ضرار بن عمر الضَّبي:

لهـم أُدَرٌ[1] تُجلْجِـلُ فـي خُصـاهـمْ
كتصـويـتِ الجـلاجـلِ[2] فـي القطـارِ[3]

«والأُدْرة ـ كما جاء في اللسان ـ: نفخةٌ في الخصية، يقال: رجلٌ آدَرُ، وقيل: هو الذي يصيبه فَتْقٌ في إحدى الخصيتين. ورجل آدر بَيِّنُ الأَدَرَة، وهي بفتح الهمزة والدال، وهي التي يسميها الناس القَيْلَةَ».

ومنه الحديث: إن بني إسرائيل كانوا يقولون إن موسى آدَرُ، من أجل أنه كان لا يغتسل إلا وحده. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ﴾[4].

---

(١) أُدَرٌ: جمع أدرة.

(٢) الجلاجل: جمع جلجل وهو الجرس الصغير، وقد يعلّق في عنق البعير.

(٣) القطار: الإبل مقرَّبة بعضها من بعض تسير في نسق.

(٤) لسان العرب (٤/ ١٥).

روى البخاري ومسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عُراةً، ينظر بعضهم إلى بعضٍ، وكان موسى يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنعُ موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدَرُ. فذهب مَرَّة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففرَّ الحجرُ بثوبه، فخرج موسى في إثره، يقول: ثوبي يا حَجَرُ، حتى نظرت بنو إسرائيلُ إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، فأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً. فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ويروى أن أحدب سقط في بئر فاستوتْ حدبته وصار آدَرَ.. فلما جاء الناس يهنئونه، قال: الذي جاء شرٌ مِنَ الذي ذهب[١].

ويقول طَرْفَةُ بن العبد يصف قوماً أُصيبوا بالأدرة (القيلة المائية):

فما ذنبنا في أن آداءتْ خُصَاكُمُ
وإن كُنتم في قومكم معشراً أُدْرا
إذا جلسوا خُيِّلْتَ تحت ثيابهم
خرانِقَ[٢] تُوفي[٣] بالضغيب[٤] لها نُدرا[٥]

أما عن معالجة القيلة المائية (الأدرة)، فنادراً ما تحتاج إلى علاج؛ أما إذا بلغت من الحجم ما يسبِّب الألمَ والانزعاج للمريض، فتحتاج حينئذٍ إلى سحب السائل بواسطة إبرة معقمة من قبل الطبيب بعد إعطاء التخدير موضعياً. وإذا تكرر الانتفاخ، فقد تكون الجراحة هي الحل الأمثل.

* * *

(١) عيون الأخبار ٣/ ٤٨.
(٢) خرانق: مفردة خرنق وهو الفتى من الأرانب.
(٣) توفي بالشيء: تأتي به أو يصدر عنها.
(٤) الضَّغيب: صوت الأرنب أو الذئب.
(٥) أندر: أتى بنادر من قول أو فعل.

اللَّقْــوة

«شلل الوجه»

اللّقوة كلمة عربية فصيحة فقد جاء في (لسان العرب): «اللقوة داء يكون في الوجه يعوَجُّ منه الشَّدق»[1].

ولقد أثار دهشتي أن المعاجم الطبية هجرتْ استعمال كلمة «اللقوة» إلى تعبير «شلل الوجه (Facial palsy)» !!

والأدهى من ذلك أن بعض المترجمين لكتب طبية انجليزية إلى اللغة العربية قد استخدموا تعبير «شلل بل»، وذلك نسبة إلى الجراح البريطاني «تشارلز بل» (١٧٧٤ ـ ١٨٤٢ م)، والذي يدَّعي الغرب أنه هو الذي وصف هذا المرض.

والحقيقة أن ابن سينا وصفه قبل ذلك بأكثر من تسعمئة عام في «القانون» حين قال: «اللقوة: علة آلية في الوجه ينجذب لها شق من الوجه إلى جهة غير طبيعية، فتتغير هيئته الطبيعية، وتزول جودة التقاء الشفتين والجفنين»[2]. ثم أخذ يشرح في أسبابه وأنواعه.

وقبل ذلك خصص «الجاحظ» (المتوفى عام ٢٥٥ هـ) في كتابه «البرصان والعرجان والعميان والحولان» باباً خاصاً أورد فيه أشعاراً وصفت اللقوة خير وصف.. قال أيوب الوهسلي في الزبير:

مَـنَىٰ[3] الله عينَ ابن الزُّبير بلقْوَةٍ مُميلـةٍ حتـى يطـولَ شهـودُهـا

---

(١) لسان العرب (١٥/ ٢٥٣).

(٢) القانون (٢/ ١٠٣).

(٣) منىٰ: ابتلى.

وعَـلَّ[1] مـآقـي المقلتيـن بحُـمـرةٍ   مشعشعةٍ[2] حمراء باقٍ وقودها

وتنجم اللقوة عن التهاب عصب الوجه الذي يتحكم بالتعابير الوجهية. ويبدأ المرض بألم غامض معتدل قرب الأذن، ثم يُشَلُّ الوجه لساعات أو أيام. وغالباً ما يمتد أسابيع قاتلاً الجانب المتأثر، فلا تستطيع العين إغلاقاً، ويصبح الابتسام صعباً وغير معبِّر، ويُعوّق الكلام، ويصعب تناول الطعام. وفيه ينحرف جانب الفم إلى إحدى الجهتين.

ولا يزال السبب الأساسي لهذا المرض مجهولاً. وقد يحدث مترافقاً بداء المنطقة (Shingles)، كما قد يحدث بعد تخريب جراحي للعصب الوجهي أثناء عملية جراحية في منطقة العصب الوجهي[3].

وقد يحتاج الأمر إلى إغلاق العين في الليل خشية حدوث سحجات في القرنية أو التهاب في الملتحمة فتحمرُّ العين، كما قال الشاعر: «وعلَّ مآقي المقلتين بحُمرةٍ». ولكن هذا المرض يصيب جهة واحدة من الوجه فقط، فلا تصاب العينان معاً.

وممن أصابته اللَّقوة، الحكم بن أبي العاص.. يروى أن ابن عمر قال: رأيتُ النبي ﷺ جالساً والحكم بن أبي العاص خلفه، فجعل يلوي شدقه يهزأ منه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم الوِ وجهه»[4].

* * *

(١) علَّ: أصابها بعلَّةٍ.
(٢) المشعشعة: الطويلة.
(٣) عن كتاب Current، طبعة ١٩٩٧.
(٤) «البرصان والعرجان» ص٢٧٦.

البرص
مرض لا يُخيف

أيشتمني زيدٌ بأن كنتُ أبرصاً فكل كريمٍ لا أباً لكَ أبرصُ

والبرص هو ظهور بقع ناصعة صريحة الحدود في قلب منطقة مفرطة الصباغ. جاء في اللسان: «البرص بياض يقع في الجسد».

ويعرف البرص في الطب بالبَهَق (Vitiligo) والذي يحدث فيه فقدان الانصباغ في بقع من الجلد، يرافقه زيادة تأثُّر الأجزاء المتعرضة لأشعة الشمس، مما يؤدي إلى ازدياد سرعة احتراقه.

وقديماً التبس الأمر على شرّاح الحديث والأطباء الأقدمين، فظنوا أن البرص يُعدي، ولم يستطيعوا التفريق بين «البهق» المعروف، وبين المراحل المبكرة من الجذام، والتي قد تظهر فيها بقع بيضاء في الجلد.

ولا يزال البدو (في بعض الدول العربية) يتخوفون منه ولا يتزوجون من أسرة فيها مصاب بالبرص.

والبهق مرض غير معدٍ يصيب شخصاً من أصل كل مئتي شخص، وهو أكثر وضوحاً عند السُّمْرِ، ويصيب الوجه واليدين والإبطين والمغبن بشكل خاص. ويعتقد أن سبب البهق «اضطراب مناعي ذاتي» مما يسبب فقدان الخلايا الصباغية في الجلد التي تفرز صباغ الجلد المعروف بالميلانين.

ويشاهد البهق في أي سن إلا أنه غالباً ما يظهر في المراحل المبكرة من الشباب، ويختفي البهق ذاتياً عند حوالي ٣٠٪ من الناس بدون أي علاج.

وممن افتخر بالبرص المغيرة بن حبناء الذي يقول:

لا تحسبنَّ بياضاً فيَّ مَنقَصَةً
إن اللهاميمَ[١] في أقرابها[٢] البَلَقُ[٣]

ومِمن فخر بالبرص سُوَيد بن أبي كاهلِ حيث يقول:

نفرَتْ سودةُ مني أن رأتْ صَلَع الرأسِ وفي الجلدِ وضَحْ[٤]
قلتُ يا سودةُ هذا والذي يفرُجُ الكُربَةَ عنّا والكَلَحْ[٥]
هو زينُ الوجه للمرءِ كما زيَّنَ الطرْفَ تحاسينُ القُزَحْ[٦]

يقول الجاحظ:

«والعرب تخاف إعداء الجَرَب، والصَّفَر[٧] والعَدَسة[٨]، والجدري. وهم وإن استعظموا هذه الأشياء ولم يقدِّموا البرص عليها في الشدة، فإن القرآن أصدق منهم، ولولا أن البرص العتيق أشدُّ امتناعاً وأبعد بُرْءاً لما ذكر اللهُ البَرَص دون هذه الأدواء. قال تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فأشار إلى إبراء الأبرص وإلى إبراء الأكمه وهو الأعمى المطموس، ولم يذكر غير ذلك من جميع الأدواء والمفاصل والعلل المؤيسة»[٩].

يروى أن أبا عزَّة الشاعر أصابه برص فسقي بطنه، فأخرجتْهُ قريشُ من مكة مخافة العدوى، وهم يخافون عدوى الجذام والبرَصِ والجَرب

(١) اللهاميم: جمع لهموم، وهو الجواد من الناس والخيل.
(٢) الأقراب: جمع قُرْب وهو الخاصرة.
(٣) البَلَق: البلق في الفرس: ارتفاع التحجيل فيه إلى الفخذين، وفيما عداه: اختلاط السواد بالبياض.
(٤) الوضح: البرص.
(٥) كَلَحَ: عَبَسَ وزاد عبوسة.
(٦) القُزَحَ: قوس قزح.
(٧) الصفر: داء في البطن يصفر منه الوجه.
(٨) العدسة: بثرة تخرج في الجسم.
(٩) «البرصان والعرجان» ص٣٦.

والصَّفر والعَدَسة والجدري؛ وكان إذا جَنَّ عليه الليل أوى إلى شِعابٍ في تلك الجبال، فإذا حميتْ عليه الشمس استظل بظلال الأشجار.. فلما طال عليه البلاءُ أخذ مُديةً فوجأ بها جنبه ليموت فيها، فسال ذلك الماءُ وذهب ما كان به من بَرَص، فأقام أياماً، ثم دخل إلى قريش كما كان يدخل، فقال:

أبــرأتَ منــي وضْحــاً بجلــدي   من بعدِ ما طعنتُ في مَعَدِّي[1]

والوضح كناية عن البياض، والبياض كناية عن البَرَص[2].

ومن البرصان الأشراف من الملوك: جذيمةُ بن مالك صاحبُ الزَّبَّاء.

وربما قيل للأبرص أبرش وأقشر وأرقط وأبقع ومُرقَّع. وبكلّ ذلك جاء الشعر.

* * *

(١) المعد: البطن.

(٢) المرجع السابق، ص٥٢ ـ ٥٣.

لسعات البراغيث خلَّدها الشعر

رغم أن معظم لسعات البراغيث لا تسبب إلا ألماً عابراً، أو حكة موضعية ليومٍ أو يومين، إلا أن بعض الناس يبدي تجاهها ارتكاساً تحسسياً شديداً؛ وقد لُسع عدد من الشعراء ـ ويبدو أنهم كانوا من مفرطي الحساسية ـ فقالوا في البراغيث شعراً وصفوا فيه كيف قضوا «ليل البراغيث» . . قال أحد الأعراب:

ليلُ البراغيث أعياني وأنصبني ... لا بارك اللهُ في ليل البراغيثِ
كأنهنَّ وجلدي إذْ خلوْنَ به ... أيتامُ سَوْءٍ أغاروا في المورايثِ

وقال العماد أبو حامد وقد قرصته البراغيث:

يالَحَا اللهُ ليلةً قرصتني ... في دياجيرها البراغيثُ قَرْصا
شربتْ بفُّها دمي فتغنَّتْ ... وبراغيثها تواجدْن رقصا
قد تعرَّيتُ من ثيابي لقرصي ... غير أني لبستُ منهن قُمصا

والبراغيث تلسع الإنسان لتحصل منه على وجبة غذاء لذيذة من رحيق دمه!! وهي مزودة بجهاز خاص في فمها، تُنفِذُ إبرتَهُ عبر الجلد فتحصل على ما تشاء من الدم. . يقول ابن أبي الصلت وقد نهشتْهُ البراغيثُ في ليلةٍ ليلاء:

أخبثُ خلقٍ للأذى مخلوق ... يرى دمي أشهى من الرحيقِ
يعُبُّ فيه غير مستفيقِ ... لا يترك الصَّبوحَ للغَبوقِ
كعاشقٍ أسرى إلى معشوقِ ... أعلمُ من (بِقراطَ) بالعُروقِ
من خطمِهِ المُذربِ الذليقِ ... فصْدَ الطبيب الحاذقِ الرفيقِ

وقال أحمد شوقي يداعب صديقه الدكتور محجوب ثابت، فيصف

ما يصيبه من لسعات البراغيث وهو في طريقه إلى عيادته:

براغيثُ محجوبَ لم أنْسَها ... ولم أنْسَ ما طَعِمتْ من دمي
تشقُّ خراطيمُها جَوْربي ... وتنفذُ في اللحم والأعْظُمِ
ترحِّبُ بالضيف فوق الطر ... يق فبابَ العيادة فالسُّلَّمِ
قد انتشرتْ جوْقةً جوقةً ... كما رُشَّتِ الأرضُ بالسِّمْسِمِ

وما الارتكاس الحاصل في الجلد بعد لسعة البرغوث وغيره من الحشرات إلا استجابة مناعية تجاه المواد الموجودة في لعاب الحشرة، أو في برازها الذي تخلّفه وراءها مكان اللسعة. ويختلف ذلك الارتكاس من نقطة حمراء صغيرة، إلى انتفاخات مؤلمة، بل وربما إلى طفح جلدي شديد.

وما أصعب البراغيث والهموم إذا اجتمعا، فلا راحة ولا نوم.. يقول محبوب النهشلي:

والليل نصفان: نصفٌ للهمومِ فما ... أقضي الرُّقادَ، ونصفٌ للبراغِيثِ

* * *

حذار . . حذار من الجرب

الجرب داء جلدي شديد العدوى يتسبب عن طفيلي لا يُرى بالعين المجردة. وتحفر الأنثى لنفسها دروباً وقنوات صغيرة في البشرة لتصل إلى طول مقدار سنتميتر واحد، حيث تأوي وتأكل، وتبيض وتتبرز هناك. ومن هنا تميَّز الجرب بحكة شديدة لا ترحم صاحبها.

يقول امرؤ القيس وقد أصابته حكة وقروح من الجرب:

فـإمـا تَـرَيْنـي بـي عُـرَّةٌ[1] كـأنـي نكيـبٌ مـن النقـرس
وصيّـرنـي القـرْحُ فـي جُبَّـةٍ تخـالُ لبيسـاً ولـم تُلبـسِ[2]
تـرى أثـر القـرح فـي جلـدهِ كنقش الخواتم في الجرجس[3]

وقال الصنوبري:

الشيبُ عندي والإفلاسُ والجربُ هـذا هـلاكٌ وذا شـؤمٌ وذا عطـبُ

والجرب مرض معدٍ، ولهذا ينبغي الحذر من حدوث أي احتكاك بدني مع أشخاص لا يغتسلون أو لا يراعون قواعد الصحة، أو حصول تماس مع ثيابهم، قال الشاعر:

الحرب يلحق فيها الكارهونَ كما تدنو الصِّحاح إلى الجرْبى فتعديها

وأما عن العلاج فيشمل القيام بحمَّام حارّ يحك المريض نفسه بفرشاة وصابون، ومن ثم يدهن الجسم بدهان مضاد للجرب. كما ينبغي غسيل

---

(١) العُرة: الجرب.
(٢) أي تفشَّت بثور الجرب في جسمي كأنها ألبستني ثوباً.
(٣) أي ترى أثر القروح في جلده، ويشبه الشاعر نقش الأختام بالجرجس وهي الصحيفة.

جميع الملابس وأغطية الفراش على نحو كامل.

أما الكي الذي يذكره الشاعر فلا دور له في علاج الجرب حالياً:

ليس الرُّقى[1] لجميع الداء شافيةٌ

الكيُّ أشفى لجلد الأجربِ النَّغِلِ[2]

* * *

(١) الرُّقى: جمع رقية، وهي ما يرقى به المريض.

(٢) النغِل: الفاسد.

الدُّمَّل

زائرٌ ثقيـــل

الدُّمَّل[1] التهاب جلدي موضعي على شكل كتلة على الجلد وتحته، وتنجم عادة عن جرثومة عنقودية تقع على الجلد مترقبة لتنتهز فرصة ضعف أو انخفاض مقاومة في الجسم.

وتكون المنطقة الملتهبة قاسية وحمراء قاتمة، ومتورمة وساخنة، وشديدة الإيلام. وإذا لم تعالج تتحول في النهاية إلى رأس وتنفتح ناضخةً قيحاً. وقد يصاب المريض بالحمى الشديدة والإعياء إذا ما حدث تسمم في الدم بالجراثيم العنقودية.

ويصف أحد الشعراء معاناته وقد أصابه الدُّمَّل، فيقول:

وبي دُمَّلٌ في كل يومٍ يزورني ... فيُقلـقُ أحشـائـي ويُسهِـرُ مُقلَتـي
يقـول لـي العـوَّادُ مـالٌ وصِحّـةٌ ... فيـاليتهـم آبـوا بمـالـي وصحتـي

وقال المتنبي يمدح سيف الدولة الحمداني وقد أصابه الدُّمَّل:

وكيــف تُعِلُّــكَ الــدنيـا بشــيء ... وأنــت بعلَّـــةِ الــدنيـا طبيــبُ
مللــتَ مقــام يــوم ليــس فيــه ... طِعـــانٌ صـــادقٌ ودمٌ صبيـــبُ
وأنت المرءُ تمرِضُه الحشايا[2] ... لِهِمَّتـــهِ وتشفيـــه الحـــروبُ

وقال بشار بن برد يصف رجلاً ثقيلاً:

وصـاحـبٌ كـالـدُّمَّـل المُجِـدِّ[3] ... حملْتُـهُ فـي رقعـةٍ مـن جلـدي

* * *

---

(١) الحبّات والجمرات Boils and carbuncles.

(٢) الحشايا: جمع حشاة، وهي الوسادة، ونحوها أو الفراش.

(٣) المُجِدّ: الذي عظم أمره.

الحصبة
هل لها من علاج؟

قال الأخطل:

فلو كنتُ محصوباً[1] بدوْمةَ[2]، مدنفاً[3]
أُسَقى بريقِ من سُعادِ شفاني

فما هي الحصبة التي يذكرها الأخطل؟

الحصبة: مرض شديد العدوى، وسريع الانتقال، يتميز بطفح يغطي الجسم بكامله ويتأثر به الأطفال بشكل رئيسٍ، لكن البالغين يلتقطونه أيضاً، وبنسبة أعلى مما هو شائع عنه.

ورغم أن المرض بذاته ليس شديد الخطورة، إلا أن المريض قد يصبح مستعداً للإصابة بأمراض جرثومية أخرى.

وتبدأ الحصبة كزكامٍ بأنف سيّال ثم تحلّق درجة الحرارة كالصاروخ ويصعب إنزالها، ثم تحتقن العينان وتلتهب الملتحمة.. وفي اليوم الرابع تقريباً تظهر بقع قرنفلية على الفروة والصدغين ثم العنق مع الجسم بكامله. وتتداخل هذه البقع بعضها في بعض، ثم تبدأ بالتلاشي بعد يومين أو ثلاثة.

وليس لهذا المرض علاج معين، ويمكن تخفيض الحمى الشديدة بتناول الباراسيتامول. وتعالج الإنتانات الجرثومية بالمضادات الحيوية إن حدثت.

---

(١) محصوباً: مصاباً بمرض الحصبة.
(٢) دومة: اسم موضع.
(٣) مدنفاً: مثقلاً بالمرض.

الجـــدري

الجدري مرض شديد العدوى، ويمكن أن يحدث كَوَبَاء. وقد قتلت وباءات الجدري ما يعادل ربع سكان أوروبا في العصور الوسطى، إلا أنه أصبح الآن نادراً في أمريكا وأوروبا والدول المتطورة، ومع ذلك ما يزال يشكل تهديداً خطيراً في البلدان المتخلفة.

ويبدأ الجدري على نحو مفاجىء بحمى شديدة وصداع عنيف، وفي اليوم الثالث تظهر تجمعات كبيرة من بقع قرنفلية محمرّة، وتنتشر فوق الوجه والساعدين وما تبقَّى من الجسم. وفي اليوم الخامس تصبح هذه البقع بحجم رؤوس المسامير الصغيرة. وفي اليوم التاسع تصبح على شكل بثْرات ممتلئة بالسائل، ثم تجف بعد ذلك وتتساقط في غضون ثلاثة أسابيع[1].

قال أحدهم في وصف مريض مصاب بالجدري:

وَجْهُـــهُ للحُسْــِرِ معـــدنْ فتـــأمـــل وتبيَّـــنْ
نُقَـــطٌ مـــن جُـــدَري كـــدبـــاقـــيٍّ[2] مُعيَّـــنْ[3]

* * *

(١) الموسوعة الطبية للأسرة، والموسوعة البريطانية لصحة العائلة.
(٢) الدابوق: الشيء اللزج يُصاد به الذباب ونحوه.
(٣) المعيَّن من الثياب: ما كان في وشيه ترابيع صغار تشبه عيون الوحش.

الثآليـــل

قال دعبل يهجو إحدى النساء :

كــأن الثــآليـــل فـــي وجههـــا إذا سَفَـرتْ بِـدَدُ[1] الكشمـشِ[2]

أي قطع العنب الصغير .

والثآليل (Warts) : ناميات صغيرة على الجلد تتفاوت في حجمها بين رأس الدبوس وحجم حبة الفول الصغيرة، ويسببها فيروس شديد العدوى، وتقبع الثآليل بهدوء دون أن تسبب تجعيداً ولا التهاباً حولها، ودورتها غريبة الأطوار، فهي يمكن أن تتلاشى تلقائياً أو تدوم سنين .

* * *

---

(١) بدَد : قطع .

(٢) الكشمش : العنب الصغير .

قروح الفراش

يقول الأخطل:

كـلانـا علـى هـمٍّ يبيـتُ كـأنمـا ... بجنبيـه مـن قـشِّ الفـراشِ قـروح

فكلاهما يتقلَّبُ من ألم الجوى وهمِّ الفراق، لا يهدأ لهما بال، ولا يسكنان على حال، كمن أصيبَ بقروح في جنبيه لا يستريح على جنب حتى يثور الآخر بالألم.

وقروح الفراش مشكلة تصيب المرضى الذين تضطرهم حالتهم للبقاء الطويل في السرير، كما في كسور الحوض والعمود الفقري أو الشلول أو حالات السبات المديدة. ولا وقاية من هذه التقرحات إلا بتقليب المريض المستمر كل ساعتين مثلاً، حيث تبدأ هذه التقرحات بالتشكل إذا استمر المريض دون تقليب أكثر من ١٢ ساعة. وقد تكون هذه هي الحكمة من تقليب الله عز وجل لأهل الكهف لوقايتهم من تلك القروح. قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨].

ولا شك أن هذه القروح مؤلمة جداً للمريض، وخاصة إذا انتشرت في الجنبين:

قـرحٌ علـى قـرحٍ تقـارب عهـدهُ ... إن القروحَ على القروحِ لأوجعُ

* * *

الجذام
يُعدي أم لا يعدي؟

دعا شاعرٌ على التاجر الذي لم يوفّ الكيل حقه بأن يصيب أناملَهُ الجذامُ، فقال:

إذا ما تاجرٌ لم يوفِ كيلاً فَصُبَّ على أنامله الجُذامُ

والجذام مرض جرثومي يخرب الأعصاب في اليدين والقدمين والوجه، كما يمكن أن يؤدي إلى تخريب في الجلد، فتصبح المناطق المصابة به قليلة الإحساس، مما يعرضها للحروق. وقد يصاب المريض بالعمى وضمور العضلات وشلل في عضلات اليدين والقدمين. كما قد تفقد الأصابع تلقائياً[١].

ولا خير في الكف مقطوعةً ولا خير في الساعد الأجْذَمِ[٢]

ويعتبر الجذام من أكثر الأمراض التي ترعب الناس لما يحدثه في كثير من الأحياء من تشوهات في الجسم.

وقد تعاملت البشرية بصورة قاسية في معظم الأحيان مع المجذومين؛ فاليهود كانوا يصفون المصاب به بالنجاسة، ويُخرجونه من البلد.

وقد كان الجذام منتشراً بصورة كبيرة في أوروبا في العصور الوسطى، أما الآن فيقدَّر عدد المصابين به ما بين ١٠ ـ ١٥ مليون شخص يتواجدون في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية وغيرها.

---

(١) عن كتاب هاريسون الطبي، طبعة ١٩٩٧.

(٢) الأجذم: المصاب بالجذام.

ويظهر الجذام بصور متعددة؛ فقد يظهر على صورة بقعة صغيرة لا يلتفت لها المريض، وسرعان ما يتخذ المرض أحد شكلين أساسيين:

الأول: وهو الجذام الدرني؛ ويتميز بظهور بقع جلدية فاقدة للإحساس مع تضخم الأعصاب الطرفية.. والعدوى في هذا النوع نادرة.

والثاني: هو الجذام ذو الورم الوردي؛ وقد تصاب فيه العين بالعمى، وقد يتحطم الحاجز الأنفي ويصاب الوجه بالتشوهات.. وهذا النوع شديد العدوى.

وقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ أرسل المجذوم في وفد ثقيف وقال له: «إنا قد بايعناك فارجع»[١]. ولعلَّ هذا المريض كان ممن يعانون من الجذام ذي الورم الوردي الشديد العدوى.

وقال رسول الله ﷺ: «فرّ من المجذوم فرارك من الأسد»[٢].

وجاء في حديث آخر أن رسول الله ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخله معه في القصعة ثم قال: «كل باسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه»[٣].

ولعل هذا المجذوم من النوع الذي يعاني من مرض الجذام الدرني قليل العدوى.

يقول ابن القيم في «الطب النبوي»:

«وقالت طائفة أخرى: يجوز أن يكون هذا المجذوم الذي أكل معه، به من الجذام أمرٌ يسير لا يعدي مثله. وليس الجَذْمَىٰ كلهم سواءٌ، ولا العدوى حاصلة من جميعهم.. بل منهم: من لا تضر مخالطته ولا تُعدي، وهو: من أصابه من ذلك شيء يسير، ثم وقف واستمر على

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه الترمذي.

حاله، ولم يُعدِ بقية جسمه، فهو أن لا يُعدي غيره أولى وأحرى»[١].

وهكذا يظهر كيف كانت معاملة الرسول عليه الصلاة والسلام للمجذومين معاملة في منتهى الرأفة والرحمة مع المستوى الرفيع من التوافق مع الحقائق العلمية التي تميز «الجذام الورمي المعدي» من «الجذام الدرني» غير المعدي[٢].

* * *

(١) الطب النبوي، لابن قيِّم الحوزية ص١٢٠.

(٢) الإعجاز الطبي في أحاديث الجذام. المجلة العربية، جمادى الآخرة، ١٤١٦هـ. بتصرف.

الكَـلَب

هل يشفى بدم الشريف؟

الكَلَب (Rabies): داء مخيف ينجم عن عضة حيوانٍ كَلِب، وتسبب الكلاب ستين بالمئة من حالاته، أما الباقي فينجم عن الثعالب والخفاش وغيرها من الحيوانات المصابة.

وهو مرض فيروسي حاد يصيب الجهاز العصبي، وكان يُعرف بمرض (الخوف من الماء).

وينتقل الفيروس الموجود في لعاب الحيوان الكَلِب أثناء عضِّه للإنسان إلى الجرح المُحدَث، ومن هناك وعبر الأعصاب إلى الدماغ، حيث يصيبه بالالتهاب الشديد الذي يؤدي إلى الهذيان، وآلام في العضلات، وتشنج في الحلق، إضافة إلى الأعراض الشديدة الأخرى.

ومتى ظهرت أعراض الكَلَب فإن المرض عادة مميتٌ.

وتقدر الإحصائيات عدد حالات الكَلَب في العالم سنوياً بـ ١٥,٠٠٠ حالة. أما في انجلترا مثلاً فلم تشاهد سوى ٣ حالات خلال ٤ سنوات.

وتتروواح فترة حضانة المرض (الفترة من تاريخ عضة الكلب إلى ظهور الأعراض) ما بين ٩ أيام إلى ٣ أشهر.

وتبدأ الأعراض بحمى خفيفة، وصداع، وفقد الشهية، ثم فرط الحركة، وفقدان حس التوجه، وقد تحدث الاختلاجات. ويصاب المريض بالعطش الشديد، ولكن محاولته شرب الماء تترافق بتشنجات شديدة ومؤلمة في الحلق، ومن هنا كانت تسميته بمرض الخوف من

الماء. وقد تُشلُّ عضلات العين والوجه، ويدخل المريض بحالة سبات، ومن ثم تحدث الوفاة بعد ٣ ـ ٢٠ يوماً من ظهور الأعراض.

وقد ينجو عدد قليل جداً من الحالات بالعلاج في العناية المركزة.

من هنا جاء التأكيد على وجوب الوقاية من حدوث هذا المرض الخطير.

فأي جرح من أي حيوان ينبغي أن ينظف بعناية. وإذا حدثت عضة الحيوان في دولة يُعرف فيها داء الكَلَب، فينبغي استشارة الطبيب فوراً، فيما إذا كان ينبغي إعطاء المريض لقاح الكَلَب أم لا. (وتستمر جرعات اللقاح لعدة أسابيع).

كما يُعطى حينئذٍ جرعة من عقار الإميونوغلوبيولين (Rabies Immunoglobulin).

وإذا ما أعطي هذا العلاج مع اللقاح خلال يومين من عضة الكلب، فإن الوقاية من المرض شبه تامة. وكلما تأخر المرء في ذلك، قلّت فرص النجاة منه. ولكن اللقاح يظل فعالاً حتى عند إعطائه بعد عدة أسابيع أو أشهر من عضة الحيوان الكَلِب. وحسب الإحصائيات الحديثة فإن حوالي مليون شخص في العالم يخضعون لسلسلة لقاح الكَلَب كل عام.

والطريف أن الدميري (٧٤٢ ـ ٨٠٨ هـ) وصف في كتابه (حياة الحيوان) داء الكَلَب وصفاً سبق به باستور الذي أعلن أنه أول من اكتشف ووصف اللقاح للتحصين منه، يقول الدميري عن هذا الداء:

«وهو داء يشبه الجنون: وعلامة ذلك أن تحمرَّ عيناه، وتعلوها غشاوة، فتسترخي أذناه، ويندلع لسانه، ويكثر لعابه وسيلان أنفه، ويطأطىء رأسه، ويتحدب ظهره، ويتعوج صلبه إلى جانب، ولا يزال يدخل ذنبه بين رجليه ويمشي خائفاً مضموراً سكراناً؛ فلا يأكل، ويعطش فلا يشرب»[1].

---

(١) حياة الحيوان للدميري.

وهذا وصف دقيق، فالمصاب به كما ذكرنا لا يجرؤ على الشرب لأن ذلك يعرّضه لتشنج شديد في حلقه.

ويذكر الدميري أيضاً أن داء الكَلَب ينتقل من الكلب المصاب إلى الكلاب الصحيحة، وإلى الإنسان، وإلى الذئب، وإلى ابن آوى وابن عرس والثعلب والإبل. . .

ثم يشير إشارة واضحة إلى الأمراض المعدية والسارية. وهذا المرض الذي وصفه الدميري قبل أكثر من ستمئة عام لم يُعرف إلا بعد أن اختُرِع المجهر، وتَمَّ اكتشاف الفيروسات من قِبَل علماء توفرت لهم المختبرات والأساليب الحديثة[1].

وقد ظنَّ الأقدمون أن هذا الداء يشفى ببعضٍ من دمِ رجلٍ شريف، وفي هذا يقول مُرَّة الجعدي وهو يمدح قوماً:

بُناةَ مكارم وأساةُ[2] كَلْمٍ[3] دماؤهمُ من الكَلَب الشفاءُ

وقال الكميت بن ثعلبة يمدح قوماً:

أحلامكم لِسقَامِ الجهلِ شافيةٌ كما دماؤكُمُ يُشْفَى بها الكَلِبُ

وقال ابن فسْوة عندما شُفي من داء الكَلَب على يد الطبيب ابن المُحِلِّ وكان مشهوراً بمداوة الكَلَب:

ولولا دواء ابن المُحِلِّ وعلمِه هررْتُ[4] إذا ما الناس هرَّ كليبها
وأخرَجَ بعد الله أولادَ زارعٍ[5] مُوَلَّعةً أكتافُهَا وجُنوبها

* * *

---

(١) الطب عند العرب والمسلمين، للدكتور محمود الحاج قاسم محمد، نقلاً عن كتاب «لوي باستور» للدكتور مصطفى محمود حافظ.

(٢) أساة: جمع آسٍ وهو الطبيب.

(٣) الكلم: الجرح، وجمعها كلوم.

(٤) هَرَّ الكَلْب: نبح وكَشَّر عن أنيابه. والهرير: صوت الكلب دون النباح.

(٥) أولاد زارع: هي الكلاب، نسبة لكلب يُدعى زراعٌ.

مرضتُ فلم تعـدني

جعل الله الأمراض مكفرات لعظائم الذنوب، وحث المريض على الصبر عليها لينال رضاه وما أعده له من الفضائل التي لا يحيط بها إلا علاَّم الغيوب.

آداب عيادة المريض:

وحثَّ الإسلام المسلمين على عيادة المريض، فهو حق للمسلم على أخيه المسلم. وجعل للعيادة آداباً، فمن آداب العيادة ألا يطيل الجلوس حتى يضجر المريض أو يشق عليه أو على أهله، فإن اقتضت ذلك ضرورة، أو رغب المريض وأهله في الإطالة فلا بأس.

وهذا أبو العلاء المعري يذكر آداب عيادة المريض، فيقول:

إذا عُـدتَ فـي مـرضٍ مُكثـراً ... فخفّـفْ وخَـفْ أن يُمـلَّ العليـلا
وإن كـان ذا فـاقـةٍ مُقتِـراً ... فـأسعـفْ وإن كـان نيـلاً قليـلاً

والتخفيف في عيادة المريض أمر مطلوب شرعاً. يقول البهاء زهير في زائر ثقيل زاره:

وعـائـدٌ هـو سقـمٌ ... بكـلِّ جسـم صحيـح
لا بـالإشـارة يـدري ... ولا الكـلامِ الصـريـحِ
وليـس يخـرج حتـى ... تكـاد تخـرج روحـي

ومن آداب العيادة أن تكون غِبّاً أو يوماً بعد يوم. ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام في الزيارة عموماً: «زر غِبّاً تزدد حُبّاً»[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٣٥٦٨).

ويقول الشاعر:

حقُّ العيادة[1] يومٌ بعد يومين وجِلسةٌ لك مثل اللحظِ بالعينِ
لا تبرمنَّ[2] مريضاً في مُساءلةٍ[3] يكفيك من ذاك تسْآلٌ[4] بحرْفينِ

ويسأل المريضَ عن حاله من غير إكثار ولا إضجار. يقول علي بن الجهم:

لا تُضجرنَّ مريضاً جئتَ عائدَهُ إن العيادةَ يومٌ إثر يومينِ
بل سَلْهُ عن حاله وادعُ الإلٰه له واقعُدْ بقدْرِ فواقٍ بين حَلْبينِ
من زارَ غِبّاً أخاً دامتْ مودَّتُهُ وكان ذاكَ صلاحاً للخليليْنِ

وقد يهيجُ الزائر أحاسيسَ المريض، وفي ذلك يقول عبد بني الحسحاس:

يَعُدْنَ مريضاً هُنَّ هيّجْنَ داءهُ ألا إنما بعضُ العوائدِ دائيا

وربما أتى لزيارة المريض من يُظهر له الشماتة فيزيد من مرضه وأوجاعه:

قال ابن المعتز:

يا عائداً قد جاء يشمتُ بي قد زدْتَ في سُقْمي وأوجاعي

وقد يزور مريضٌ صحيحَ البدن!! يقول العباس بن الأحنف:

قالتْ مَرِضْتُ فَعُدْتُها فتبرَّمتْ وهي الصحيحةُ والمريضُ العائدُ
والله لو أن القلوب كقلْبها ما رقَّ للولدِ الصغيرِ الوالِدُ

ويقول آخر:

إذا مرضْنا أتيناكمْ نعودُكُمُ وتذنبونَ.. فنأتيكمْ فنعتذرُ

---

(١) عيادة المريض: زيارته في مرضه.
(٢) لاتبرمنَّ: لاتضجرنَّ.
(٣) مساءلة: كثرة السؤال.
(٤) تسْآل: سؤالٌ.

لا تحسبوني غنياً عن مودتكمْ   إني إليكم . . وإن أيْسَرْتُ . . مُفتقرُ

وينبغي نقل خبر المريض برفق وعناية .

قال يزيد بن معاوية بن أبي سفيان لما أتاه الرسول ينقل مرض أبيه معاوية :

جاء البريدُ بقرطاسٍ يخبُّ به   فأوجسَ القلبُ من قرطاسهِ جَزَعا
قلنا : لك الويلُ ماذا في صحيفتكم   قال : الخليفة أمسى مثبتاً وَجِعا
فمادتِ الأرض أو كادت تميدُ بنا   كأنَّ أغبرَ مِنْ أركانها انصدعا

تطييب قلب المريض :

وتفريح نفس المريض وتطييب قلبه، وإدخال السرور عليه، له أثر عجيب في شفاء علّته .

قال رسول الله ﷺ : «إذا دخلتم على المريض فنفِّسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يردُّ شيئاً، وهو يطيّبُ نفس المريض»[١] .

وكم شاهدنا من المرضى من انتعشت قواه بزيارة محبّه له ، أو إذا عاده من يجلّه ويعظمه ويحبّه . وكل ذلك بمجرد رؤيته والتحدث إليه .

ولهذا قال الشاعر :

مَرِضَ الحبيبُ فعدتُهُ   فمرضتُ من أسفي عليهِ
شفي الحبيبُ فزارني   فشفيتُ من نظري إليهِ

وقال آخر :

يا طبيباً بالآنْسُون يداوي   داوني يا طبيبُ بالآنَسُوني

ويريد الشاعر بالآنسون الأولى : النبات المعروف بالـ «يانسون»، أما الآنسوني الثانية فبمعنى «الذين آنسوني» .

وهذا صفي الدين الحِلّي يشكر رئيساً زاره في مرضه فيقول :

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي .

أعـدْتَ لـيَ الـروحَ، إذ زرتنـي وقـد يئـس النـاس مـن رجعتـي

وقال ابن النقيب يعتذر عن عدم زيارة المريض، وأن رسالته التي بعث بها لا تكفي:

سمعتُ بما تشكو وما أنتَ واجِدُ فظلَّت دموعُ العينِ في الخَدِّ تُسْفَحُ
وأرسلتُ خطي في العيادة نائباً ومـا كـلُّ خـطٍّ للعيـادة يَصْلُـحُ

ويشكر مهيار الديلمي أبا الحسن الكاتب وقد عاده في مرضه، فيقول:

فكنـتُ لـداءٍ جئتنـي منـه عـائـداً شفـاءً وبعـض العـائـديـنَ طبيـبُ
ولمّا جَلا لي حُسْنُ وجهك بِشْرهُ تبيَّـن فـي وجـهِ السقـام قُطُـوبُ
أَجَبْتَ وقد ناديتُ غيركَ شاكياً وذو المجدِ يُدْعى غَيْرَهُ فيجيبُ

مريضٌ لا يزوره أحد:

لعلَّ من أشق الآلام على المريض أن لا يعوده أحدٌ في مرضه.. وقد مرَّ بهذه المحنة عدد من الشعراء؛ يقول جحظة البرمكي:

مرضتُ فلم يكن في الأرضِ حُرٌّ يُشـرِّفنـي ببـرٍّ أو سـلامِ
وضنُّـوا بـالعيـادةِ وهـي أجـرٌ كـأن عيـادتـي بـذلُ الطعـامِ

ويحزنُ «عائد الكلب» (وهو عبد الله بن مصعب) أن أحداً لم يزره خلال فترة مرضه فيقول:

مالي مرضْتُ فلم يَعُدْني عائدٌ منكـم ويَمـرضُ كلبُكـم فـأعـودُ

ولهذا السببُ كُنِّي هذا الشاعر بعائدِ الكلب.

وبلغ الأمر بالصاحب بن عباد أنه عزم على ألا يحضر أبداً جنازة من لم يزره في مرضه، فقال:

مـن لـم يعـدْنـا إذا مـرِضنـا إن مـاتَ لـم نشهـدِ الجنـازة

أما أبو العلاء المعري فلا يذهب إلى ذاك الحد.. يقول:

فإن عُدتَ فالمجروحُ توسَى جراحُه وإن لـم تعُـدْ مُتنـا ونحـنُ كِـرامُ

وفي مثل هذا يقول ابن الرومي؛ فلا الزيارة تزيد في الأجل، ولا عدمها يُدني الممات:

لا إن جفوتمْ دنا المماتُ ولا إن زرتمْ تُنسئون[1] في أجلهْ
ما ضرَّ مجفوكمْ جفاؤكُمُ بالأمسِ في جسمهِ ولا أملِهْ

ولكن أبا الحسين بن ثابت البغدادي يعتقد أن كل من لم يزرك في مرضك تمنى لك الهلاك!!:

كلُّ مَنْ لم يعُدْكَ في حالة السُّقْم تمنَّى لك الرَّدى والهلاكا
حَذَراً أن يراكَ يوماً صحيحاً في طريقٍ فيستحي أن يراكا
سوف تبرا ويمرضون وتجفوهم فإنْ عاتبوا فقل: ذا بذاكا

الاعتذار عن عدم العيادة:

وقد يبدي الشاعر اعتذاره عن عدم عيادة المريض.. يقول الشاعر:

فوالله ليس انقطاعي جَفاً وفي كبدي منك نارٌ تُشَبُّ
ولكنني قطُّ لا أشتهي أرى من أُحِبُّ كما لا أُحِبُّ

وقال البحتري معتذراً:

فلا تحسَبَا تركَ العيادةِ جفوةً ولا سوءَ عهدٍ جاذبتني جواذبُهْ

وقال ابن زريق الكوفي الكاتب في نفس المعنى:

يا مريضاً لسُقمِهِ مَرِضَ العلم والوَفَا
لم يكنْ تركي العِيا دةَ هجراً ولا جَفَا
لم أَطِقْ أن أراكَ يا أكرمَ الناس مُدْنَفَا
طالَ خوفي عليك والحمدُ للّهِ إذ كفَى

وربما اعتذر أحدهم عن زيارة مريض بسبب ما أصاب المريض من مرضٍ ربما يكون معدياً. قال صفي الدين الحليّ يعتذر عن عيادة مريض مصاب بالرمد:

---

(١) نسأ في أجله: أطال عمره.

إنـي وإن لـم أعُـدْك يـومـاً فلـي علـى وُدّك اعتمـادُ
ومـا تـأخـرتُ عـن قـلالٍ بـل مَـرَض العيـن لا يُعَـادُ

ولا شك أن الإصابة بالرمد ليست من الأمراض المعدية التي ينبغي فيها عزل المريض عن الآخرين في المستشفى.

وقال صفي الدين الحليّ يعتذر عن عيادة مريض مصاب بمرض في عينه:

مـا انقطـاعـي عـن العيـادة كِبـرٌ بـل لأمـرٍ تـداولتـه العبـادُ
مَرَضُ العينِ في القياس كماضي الـ ـقـول كُـلٌّ بيـن الـورى لا يُعَـادُ

ويعتذر كُثيِّر عزة عن عدم زيارته بسبب مرضه في الوقت نفسه:

تقـولُ مـرضـتُ فمـا عـدتنـي فقلـتُ لهـا لا أطيـقُ النهـوضـا
كـلانـا مـريضـان فـي بلـدةٍ وكيـف يعـودُ مـريـضٌ مـريضـا

مشاركـة المريض في آلامـه:

كتب أحمد بن حكيم إلى صديقٍ له أصيب بمرض شديد، يشاركه آلامه:

فديتُكَ، ليلي مُذْ مرضت طويلُ ودمعي لِما لاقيت منكَ هَمُولُ
أأشـربُ كـأسـاً أو أسـرُّ بلـذَّةٍ ويعجبنـي ظبـيٌ وأنـتَ نحيـلُ
ويضحكُ سنِّي أو تجفُّ مدامعي وأصبـو إلـى لهـوٍ وأنـتَ عليـلُ
ثكلتُ إذاً نفسي وقامتْ قيامتي وغـال حيـاتـي عنـد ذلـك غُـولُ

وقال العباس بن الأحنف:

قالوا قد اعتلَّ مَنْ تهوى فقلتُ لهم ويلي إذا لم أجِدْ مثل الذي وجدا
فـإنَّ خـالِقَنـا للحُـبّ مُبتـدعـاً لم يُفردِ الروح لمَّا أفرد الجسدا
فلـن أصِـحَّ إذا مـا كـان ذا سَقَـمٍ ولن أعيشَ إذا ما استودعَ اللحْدَا

تهنئـة المريض بالشفـاء:

وهذا المتنبي يهنىء أحدَهم بشفائه من مرضٍ ألمَّ به:

صحَّتْ بصحتك الغاراتُ وابتهجتْ ... بها المكارمُ وانهلَّتْ بها الدِّيْمُ[1]
وراجع الشمس[2] نورٌ كان فارقها ... كأنما فَقْدُهُ فِي جِسمها سَقمُ

وقال الطاولي يهنىء أحدهم بعد أن شفي من مرضه:

فحمداً ثم حمداً ثم حمداً ... على نِعَمٍ دقائقُها جِسامُ
إعادةُ صحةٍ وزوالُ سَقْمٍ ... وعوْدُ نقاهةٍ فيها دوامُ

التمارض:

قال ابن الدمينة:

تمارضتِ كي أشجى وما بكِ عِلَّةٌ ... تُريدينَ قتلي قد رضيتُ بذلكِ
لئن ساءني أن نلتقي بمساءَةٍ ... لقد سرَّني أني خطَرْتُ ببالكِ
ولو قلتِ: طَأ في النار أعلمُ أنه ... هوىً عنكِ أو مُدْنٍ لنا من وصالِكِ
لقدَّمتُ رجلي نحوها فَوطئتُها ... هوىً منكِ لي أوْ غيةً من ضلالكِ

صبر الأهل على المرض:

يروى أن صخر بن عمر الشريد أخا الخنساء جرح في غزاةٍ وطال مرضه، فكان العُوَّاد يسألون امرأته سلمى عنه فتقول: «لا هو حيٌّ فيُرْجىٰ، ولا مَيْتٌ فيُنْعىٰ» بَرِمَةً به ومالَّةً من صحبته. ويسألون أمه فتقول متفائلة: «أصبح صالحاً بنعمةِ الله». . وكان صخر يسمع قولهما، فعزم على قتل امرأته، وطلب السيف، ولكنه لم يقوَ على حمله، فقال:

أرى أم صخرٍ لا تَمَلُّ عيادتي ... وملَّت سُلَيْمَى مضجعي ومكاني
فأيُّ امرىءٍ ساوى بأمٍّ حَليلةً ... فلا عاشَ إلا في شقاً وهَوانِ
أهُمُّ بأمْرِ الحزمِ لوْ أستطيعُهُ ... وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنَزَوانِ

وقال ابن المعتز:

بَليتُ، وملَّ العائدونَ، ورابني ... تزايُدُ أدوائي، وفقْدُ دوائيا

---

(١) الديم: جمع ديمة وهي المطر.
(٢) راجع الشمس نورٌ: عاد إليها

وعُطِّـلَ مِنْ نفسي مكـانُ رجائها   فإن لم يكنْ موتٌ فكالموتِ مابيا

ويقول أبو العتاهية وقد أنس بالسقم وفرَّ منه أطباؤه وعوَّاده:

قد صار يحسدني من كان يَعذُلني   فيها ويعذرني رهطي وأضدادي

والسقم لا زمني حتى أنِسْتُ به   وفـرَّ منـي أطبـائـي وعـوَّادي

ويقول المتنبي في ذات المعنى:

ألـحَّ علـيَّ السقـمُ حتـى ألِفتُـهُ   ومـلَّ طبيبـي جـانبـي والعـوائـدُ

قال صفي الدين الحلي يرثي السلطان الملك الناصر ابن قلاوون:

أحاط به الآسونَ[1] يبغون طبَّهُ   وقد حارتِ الأفهام واشتغل السّرُّ

وراموا[2] بـأنـواع العقـاقيـر بُـرْءَه   وهل يُصلحُ العطارُ ما أفسد الدهرُ

* * *

(١) الآسون: جمع آس: وهو الطيب.

(٢) راموا: رغبوا.

الشعراء في مواجهة الموت

شعراء ماتوا في ريعان الشباب:

تصادفنا في الأدب العربي، كما في غيره من الآداب الأخرى، شخصيات أدبية كثيرة اختطفها الموت وهي في ريعان الشباب.

والغريب أن أكثر هذه الشخصيات المختطفة لم تغادر هذه الحياة إلا بعد أن ملأتها نتاجاً، وأَثْرَتْها عطاءً؛ وكأنها أرادت في هذه الرحلة القصيرة من العمر أن تعطي الكثير الذي كانت ستعطيه لو امتد بها الأجل.. ومن هؤلاء: طرفة بن العبد، وأبو تمام، وأبو فراس، وابن هانىء الأندلسي - في القدامى -، وفخري أبو السعود، وفوزي المعلوف، ومحمد تيمور، والتيجاني يوسف بشير، وأبو القاسم الشابي، ومحمد عبد المعطي الهمشري - في المحدثين.

ومنهم أيضاً ثلاثة شعراء ماتوا بنفس العلة وهم في أوائل سن الشباب وأول هؤلاء «أديب إسحاق» وهو لبناني الأصل، دمشقي المولد، وهو أديب وصحافي وخطيب متميز.

ويشاء القدر أن يصاب أديب إسحاق بعلة الصدر، وهو في باريس ويموت في سنة ١٨٨٥ بلبنان عن تسعة وعشرين عاماً. ويقول الذاكرون لحسنات الموتى أن علة الصدر جاءته من أثر البرد القارس في باريس. ويقول الصرحاء أن العلة جاءته من (تساهله في طريق معاشرته، وإطلاقه هوى النفس فيما تسوق إليه الشبيبة، حتى أثَّر ذلك في مزاجه، وعجَّل في منيته، فقصفت غصناً رطيباً لم يبلغ ثلاثين ربيعاً) كما يقول جرجي زيدان.

ولم يكن «أديب إسحاق» الوحيد من بين أدباء الشباب الذين أصيبوا بعلة الصدر وماتوا في سن الشباب، فقد كان الشاعر «خليل اليازجي» أحد هذه الأغصان المقصوفة. ويقول في إحدى قصائده:

لابأس من ضنك السقام وبؤسه ... فعسى بسقم الجسم صحة نفسه
لا تكرهوا شيئاً لعل لكم به ... خيراً كيوسف في عواقب حبسه
لا تيأسنَّ من الزمان فربما ... نال الفتى آماله في يأسه

وشاعر ثالث مات بعلَّة الصدر هو الشاعر «نجيب الحداد»، فقد مات عن اثنين وثلاثين عاماً، أي أصغر من خاله «خليل اليازجي» بعام واحد. وقد كان سبَّاقاً في النبوغ المبكر، فقد حرر في صحيفة الأهرام المصرية وهو في الخامسة عشرة من عمره، وظلَّ يحرر فيها اثني عشر عاماً بلا انقطاع. وأنشأ صحيفة «لسان العرب» وسنّه سبعة وعشرون عاماً. وقضى سنوات عمره القصير في التأليف والترجمة ونظم الشعر إلى أن أصيب بذات الرئة.. فلم تمهله العلة طويلاً وانتهت حياته في سنة ١٨٩٩.

ومن الذين اختطفتهم المنية وهم في سن الشباب: الأديب الفلسطيني أحمد شاكر الكرمي الذي توفي عام ١٩٢٧ وهو في سن الثالثة والثلاثين. وأبوه الشيخ سعيد الكرمي، أحد الأعضاء الثمانية المؤسسين للمجمع العلمي العربي بدمشق. وأخوه حسن الكرمي صاحب «قول على قول» في إذاعة لندن، وأخوه الشاعر المشهور «أبو سلمى».

وهذا الشاعر «عبد الباسط الصوفي» الذي ولد في مدينة حمص، وقد مات في سنة ١٩٦٠، ولم يبلغ من العمر ثلاثين عاماً؛ فقد نشأ في حمص ثم ﷺ عُيِّن بقرية في «دير الزور» بسورية، فقضى ثلاث سنوات في رتابة حياة القرية التي لا يقوى عليها صبر شاعر، فذهب إلى غينيا.. وهناك وفي لفح الهجير في شهر يوليو سنة ١٩٦٠ أصيب الشاعر الشاب بضربة شمس شديدة، فطلب من سفارة بلده أن تعيده إلى وطنه، ولكن شركة الطيران لم تأخذ على عاتقها مسؤولية سفره على إحدى طائراتها إلا وفي

رفقة ممرضة، فإن مرضه لم يكن ليسمح له بالسفر وحده . . فلما لم توافق في السفارة على طلب الشركة، آثر شاعرنا المسكين أن يخلص من نزاع الطرفين بأن يتخلص من الحياة جملة، فانتحر . . . ».

الشعراء والموت:

لما مرض معاوية رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه، وفد إليه الناس يعودونه، فقال لأهله: مَهِّدوا لي فراشاً، واسندوني، وأوسعوا رأسي دهاناً، ثم اكحلوا عيني بالإثمد، ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا عليَّ قياماً، ولا تُجلسوا عندي أحداً، ففعلوا، فلما خرجوا من عنده أنشد يقول:

وتجلُّـدي للشـامتيـن أُريهـم ... أنـي لـريـب الـدهـر لا أتضعضـع
وإذا المنيـة أنشبـت أظفـارهـا ... ألفيـتَ كـل تميمـة لا تنفـع

وقيل: إنه لما دنا منه الموت تمثَّل بهذا البيت:

هو الموتُ لا منجى من الموت والذي ... نحاذرُ بعد الموت أدهى وأفظعُ

إنها دعوة لأن يكون المرء على أهبة واستعداد، فليس للموت زمن معلوم.

قيل: بينما حسَّان جالسٌ وفي حجره صبي يطعمه الزبد بالعسل، إذْ شرق الصبي فمات، فقال:

اِعمل وأنت صحيحٌ مطلق فرح ... ما دمتَ ويحك يا مغرور في مهلِ
يرجو الحياة صحيحٌ ربما كمنتْ ... لـه المنيـةُ بيـن الـزبـدِ والعسـلِ

وقد أُثر عن أبي بكر الصديق قوله:

كـل امـرىء مصبَّـح فـي أهلـه ... والمـوت أدنـى مـن شـراكِ نعلـهِ

وما أجمل التقى إذا ما كان للمرء خليلاً عند الرحيل . . قال بشار بن برد:

فعِشْ خائفاً للموتِ أو غيرَ خائفٍ ... علـى كـلِّ نفـسٍ للحِمـامِ دليـلُ

خليلكَ ما قدَّمْتَ من عملِ التقى   وليس لأيام المنونِ خليلُ

والناس جميعاً ماضون إلى المصير المحتوم. . يقول الشريف الرضي:

هي الأيام تأكل كلَّ حيٍّ   وتعصف بالكرام وباللئام
وكلُّ مفارقٍ للعيش يلقى   كما لقيَ الرضيعُ من الفِطام

ويقول عمر بن الوردي:

أين نمرودٌ وكنعانٌ ومَنْ   مَلَكَ الأرضَ وولَّىٰ وعَزَلْ
أين عادٌ أين فرعونَ ومَنْ   رَفَعَ الأهرامَ، مَنْ يسمعْ لَخِلْ
أين من سادوا وشادوا وبنوْا   هلكَ الكلُّ ولم تغنِ الحِيَلْ

ويقول آخر:

أترجو البقاءَ وهذا مُحَالٌ   ولله عزَّ وجلَّ البقاءُ
فلو كان للفضل يبقى كريمٌ   لما مات من خلقه الأنبياء
تموتُ النفوس وتبقى الشُّخوصُ   وعند الحساب يكونُ الجزاءُ

فقيه شاعر يرثي زوجه:

وقد نظم الأستاذ الدكتور مصطفى الزرقا قصيدة رثى فيها زوجته التي توفيت عام ١٩٤٢ م إثر إصابتها ببثرة جرثومية (تسمى: الحمراء) خرجت في طرف أنفها وسمَّمت دمها، وتورَّم وجهها في سبعة أيام، ولم ينفع معها طب ولا علاج، ولم يكن المضاد الحيوي (البنسلين) قد اكتُشف، فقد ظهر بعد سنتين من وفاتها رحمها الله، وكانت حاملاً في الشهر الثامن، فذهب حملها معها:

يا أختَ روحي، أين منك انطوى   بالأمس أُنسٌ مَرِحٌ لاعبُ؟
إن أنسَ لا أنسَ لها ساعةً   يذوب تحناناً لها الراقبُ
تلفظ أنفاساً على وجنتي   وصوْبُ دمعي فوقها ساكبُ
حيالَها الآسي(١) غدا واجماً   كأنما الطبُّ هو الناكبُ

---

(١) الآسي: الطبيب.

قـد جَمَـدتْ أطـرافهـا فـي يـدي وقـد وهـي قلـبٌ لهـا واجـبُ
جنينُهـا فـي جـوفهـا خـابـطٌ فهل درى أنْ قد أتى السائبُ(١)

ويصف تلك البثرة التي أودت بحياتها، فيقول:

يـا بثـرةً، أحقـر شـيء يُـرى أيُّ عظيـمٍ بـأسُـكِ الـراعـبُ؟!
من ذا الذي يدري، وقد جئتها أنـك يـومـاً للـردَى قـالـبُ!!
صيّـرتِ فيهـا دمَهـا سُمَّهـا كـأمَّـةٍ قـد خـانهـا النـائبُ!!
جـرثـومـةٌ فـي فيـكِ منهـومـةٌ ليسـتْ تُـرى، أم أسَـدٌ واثـبُ؟
مـا حيلتـي إن عجـزتْ عنـدنـا عنـكِ الأطبـاء، وقـاربـوا
أهكـذا جُنـدُ المنـايـا، وإن حَقُـرن، لـم ينـج لهـا هـاربُ؟

ومن المصادفات المحزنة أن تتوفى زوجته الثانية ـ وقد قضى معها أربعين عاماً ـ بسرطان الأمعاء.. حيث ذهبت إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨١ للعلاج، ومكثت هناك أربعة أشهر، ثم عادت إلى الأردن لمتابعة العلاج. وكان السرطان قد انتشر من أمعائها حتى الكبد، وبعد سنتين من العلاج توفيت إلى رحمة الله تعالى.. فكتب زوجها الحزين قصيدة رثاء صوّر فيها أثر المصيبة في حياته، فقال:

بقيتُ وغبتِ؟؟ بعدكِ ما البقاءُ؟ فـديتـكِ لـو يُتـاح لـي الفـداءُ
وددتُ لـو أنَّ يـومـي قبـل يـومٍ فقـدتُـك فيـه وانقطـع الـرجـاء
شقيقـةَ روحـيَ استمعـي وردِّي فمـا عهـدي بشيمتـك الجفـاءُ
رثيـتُ سـواكِ يـا فخـر الغـوالي فـأمـا أنـتِ فـاستعصىٰ الـرثـاءُ
تلجلـج بـي لسـانٌ لـم يخنِّـي ولـم يَـكُ قـطُّ يُعييـه الأداءُ
ولكـن بفقـدك عـدت طفـلاً أضـاعَ البيـتَ إذ حـلَّ المسـاءُ

ثم يقول واصفاً جبروت داء السرطان:

طغى السَّرطانُ واستشرى ونادى أنـا الجبّـار مـا منِّـي نجـاءُ
فـلا تبْغُـنَّ مـن بـأسـي فـراراً فهـاربُكـم وثـابتُكـم سـواءُ

---

(١) سَأَبَهُ: خنقه.

ومـن أنشبـتُ فيـه شَبـاةَ ظُفـري فقـومـوا ودِّعـوه، ولا رجـاءُ
قهرتُ على العصور الطبَّ حتى لتَـرهبُنـي الملـوكُ الأقـويـاءُ
فجـالينـوسُ والـرازيُّ قِـدْمـاً ومن في الطبِّ قد نبغوا وضاؤوا
ومن نطحوا السحاب اليوم حتى بسحـر كشـوفهـم غُـزيَ الفضـاءُ
أقـرّوا عجـزَهـم عنـي وخـابـوا وسِـرِّي عـن مـداركهـم خفـاءُ(١)

شعراء رثوا أبناءهم:

ويجمع الناس والشعراء بخاصة على أن الحزن لفقد الولد لا يدانيه حزن. يقول إبراهيم الصابي:

يـؤلـمُ القلـبَ كـلُّ فقـدٍ ولا مثـ ـل افتقـادِ الآبـاء لـلأبنـاءِ

ويقول أبو الحسن الحصري القيرواني:

كبـدُ المـرءِ ابنـهُ فـإذا كُـبَّ أمسـى ومـالَـهُ كَبِـدُ

ويقول الصنوبري في رثائه لوحيدته ليلى:

ألقتنـي الأحـداثُ مـن كيـدهـا مـا بيـن أنيـابٍ وأظفـارِ
وألبسـتْ جسمـي ثيـاب الضَّنـا فـالجسـم مـن غيـر الضَّنـا عـار

ويذكر الشعراء كيف انقلبت أيامهم ولياليهم ـ بعد فقدان الأبناء ـ نكداً وحزناً، يقول عبد الله بن الأهتم يرثي ابناً له:

دعـوتُـك يـا بُنـيَّ فلـم تُجبنـي فـرُدَّت دعـوتـي بـأسـاً عليَّـا
بمـوتِـك مـاتـت اللـذاتُ منـي وكـانـت جنَّـة مـا دمـتَ حيَّـا

ونجد عبد الله بن ثعلبة يحرِّم على نفسه الطيب والزينة بسبب وفاة ابنه فيقول:

أألخضبُ رأسي أم أطيِّب مِفْرقي ورأسُك مرموسٌ وأنتَ سليبُ(٢)

---

(١) ديوان قوس قزح (شعر مصطفى الزرقا): وقد نشره عام ١٩٩٦ معالي الشيخ الأديب عبد المقصود خوجة، جزاه الله خيراً، ضمن سلسلة كتاب الإثنينيّة.

(٢) «رثاء الأبناء في الشعر العربي» للدكتور مخيمر صالح موسى يحيى، الزرقاء ـ مكتبة المنار.

طبيب يرثي طبيباً:

وقال الطبيب الشاعر طارق محمد شقران في رثاء طبيب شاب وافته المنية في ربيع العمر:

رحل الشبابُ عن الحياة ولم يكنْ   قد حان في الحُسبان وقتُ رحيلهِ
وأتى الخريف على الربيع مبكِّراً   من قبلِ أن تؤتى ثمارُ خميلهِ
وقضى النهارُ وكان عند مقيلهِ   يا ليت شعري أين شمسُ أصيلهِ
سبحانك اللهم تفعلُ ما تشا   لا يُرفَعُ المقدوُر بعد نزوله
أنا لستُ أنكرُ ما قضيتَ وإنما   فقد الخليلِ فجيعةٌ لخليلهِ
ما زلتُ أسمعُ في «العنابرِ» صوتَه   ويطيب في أذنيَّ عذْبُ هديلهِ
وأراهُ فينا عالماً ومعلِّماً   يصفُ الدواء مؤيَّداً بدليلهِ
ويغالبُ الدَّاءَ العنيدَ بقلبه   فيخالُ صحوَ القلب غيرَ عليلهِ
من كان يحسبُ أنَّ ذيَّاك الفتى   قذفَ السَّقامُ فؤادَه بنصولهِ
للّه نجمٌ تستضيء به النُّهى   ويحلُّ نورُ العلمِ حيثُ حلولهِ
ما كان يلمع في سمانا ساعةً   حتى خبا وأناخ ليلُ أفولِه[1]

مأساة الملوك الشعراء:

ملوك كثيرون كانت لهم مآسيهم الفاجعة ونسيهم الناس.

الخليفة الأمين قُتل في مَذَلَّة.. ملك الفاندال الأخير سيق مع حاشيته إلى القسطنطينية فذُبح بعضٌ منهم وبيع بعضٌ عبيداً..

الزباء ملكة تدمر سيقت مقيدة في موكب النصر في روما..

الخليفة المقتدر سُمِلَ وسالت عيناه على خديه، وكان يستعطي الناس في المسجد الجامع ببغداد..

الخليفة المستعصم آخر العباسيين وضع في كيسٍ ومات ركلاً بالأقدام.

مآسٍ دهرية ما استوقفت أحداً.. ثلاثة ملوك فقط وقفتْ مآسيهم في

(١) «الطبّية» العدد ٨٥، ص٧١.

الحلوق لأنهم شعراء: الملك الضليل امرؤ القيس الذي يقولون إنه قضى في حِلَّةٍ مسمومة في بيزنطة، وابن المعتز خليفة يوم لم يطلع صباحه، والملك العاشق المعتمد بن عباد الذي كان ملكاً في الأندلس ومات ذليلاً فقيراً في أغمات في أرض المغرب(١).

بيت شعر يكشف القاتل:

مثلما يستفاد في الطب الشرعي اليوم من وجود البقع الدموية أو البقع المنوية أو الأشعار التابعة للقاتل في يد القتيل، أو وجود سلاح ناري عليه بصمات الجاني، في التعرف على القاتل، فقد استطاعت «دعد» ـ وهي ابنة أحد أمراء نجد ـ التعرف على الجاني من خلال بيت شعر واحد!!.

وتذكر كتب الأدب أن «دعداً» كانت بارعة الحسن والجمال، وشاعرة بليغة، خطبها إلى أبيها جماعة كبيرة من الأمراء، فأبت الزواج إلا برجل أشعر منها.. وذاع ذلك في الصحراء، فاستحث الشعراء قرائحهم، ونظموا القصائد؛ لكنها لم تُعْجَب بما نظموا.

ونظم الشاعر «دوقلة المنبجي» ـ وهو من تهامة ـ قصيدة ذهب بها إلى نجد. وفي الطريق التقى بشاعر آخر، وباح التهامي لصاحبه بغرضه وقرأ له قصيدته. ولما كان للآخر نفس الغرض والقصد، وقد رأىٰ أن قصيدة التهامي أعلى طبقة من قصيدته، وسوس له الشيطان أن يقتل صاحبه وينتحل قصيدته.. ففعل.

وأخذ القصيدة إلى ذلك الأمير، فدعا الأمير ابنته، فجلست بحيث تسمع وترى وتقرر؛ فأخذ الشاعر المزيف يلقي القصيدة، وقال فيها:

لهفي على دعد وما حفلت ... بالاً بِحَرِّ تلهفي «دعدُ»
بيضاء قد لبس الأديم بها ... ء الحسن، فهو لجلدها جلدُ
ويزين فوديها إذا حسرتْ ... صافي الغدائر فاحمٌ جعدُ

(١) مأساة الملك العاشق، د. شاكر مصطفى، العربي، العدد ٤٤٩، ص٩٣ ـ ٩٩.

فـالـوجـه مثـل الصبـح مبيـضٌّ والشَّعـر مثـل الليـل مسـودُّ
ضـدان لمَّـا استجمعـا حَسُنـا والضـد يُظهـرُ حسنـه الضـدُّ
وكـأنهـا وسَنـى إذا نظـرت أو مُـدنَـفٍ لمـا يفـقْ بعـدُ

واستمر الشاعر في إلقاء قصيدته أمامها إلى أن وصل إلى قوله:

إنْ تُتهمـي فتهـامـةٌ وطنـي أو تنجـدي، إنَّ الهـوى نجـدُ

وهنا بدأت الدماء تفور وتغلي في عروق المحبوبة، فقد أدركت بقوة ذكائها وحسها الشعري واستنتاجها الدقيق من لهجة الشاعر أولاً ومن هذا البيت ثانياً الخدعة الخبيثة.. فأيقنت رحيل عاشقها الحقيقي على يد هذا المحب المحتال.

وما إن فرغ الشاعر من إلقائه حتى ثارت «دعد» منادية «اقتلوا قاتل بعلي».

وبعد هذه الحادثة توقفت الأميرة عن قبول قصائد المتوددين، وأقسمت أن لا تتزوج أبداً، واعتبرت أن زوجها هو الشاعر المغدور، وبقيت أرملة طوال حياتها، وسُمِّيت «الأرملة البكر»، وسميت القصيدة تلك «القصيدة اليتيمة»أما الشاعر المغدور فكان بلا شك الزوج الذي لم يتزوج(١).

شاعرة تسلِّم على ميِّت:

ليلى الأخيلية، أحبها توبة بن الحُمير، فشبَّب بها، ثم خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه بها. ثم زوَّجها رجلاً من بني الأدلع شديد الغيرة عليها. إلا أن توبة لم ينقطع عن زيارتها، فغضب قوم زوجها وأرادوا قتله، فعلمت ليلى بالأمر، ولما جاء لزيارتها خرجت إليه سافرة عابسة، فعلم

---

(١) «الشاعر المنسي دَوْقَـلَة المنجي ويتيمته» فاتنة الحرفوش. مجلة الكويت، العدد ١٣٦. ص٥٨ ـ ٦١، بتصرف.
وينبغي التنويه إلى أن الأخ الصديق الدكتور صلاح الدين المنجد قد قام بتحقيق هذه القصيدة أجمل تحقيق وأخرجها في كتاب مستقل.

بالمكيدة، فرجع إلى رحلته وهرب. ومات توبة في إحدى غاراته، فرثته ليلى.

روي أنها مرت بقبر توبة وهي في هودجها، يرافقها زوجها، فأرادت أن تسلِّم على توبة فرفض زوجها، ولكنها صعدت وهي في الهودج إلى أكمة فيها قبر توبة. فقالت: «السلام عليك يا توبة»، فلم تسمع جواباً، ثم حولت وجهها نحوالقوم وقالت: «ما عرفت له كذبة قط قبل هذه»، قالوا: «كيف؟»، قالت: «أليس هو القائل:

ولـو أن ليلـى الأخيلية سلَّمـت ... علـيَّ ودُونـي قـربـةٌ وصفـائـحُ
لسلَّمـتُ تسليـم البشـاشـة أو زقـا ... إليها صدىً من جانب القبر صائح

فما باله لا يسلِّم عليَّ كما قال؟». فما أتمت كلامها حتى ثارت من جانب القبر بومة كامنة أخافها الهودج، فنفر الجمل، ووقعت ليلى على رأسها وماتت من وقعتها، فدفنوها إلى جانب توبة، وذلك في عام ٧٥ هـ.

وقد رثت ليلى توبةَ بشعر هو أرق ما نظمت وأجمل ما قالت، وفيه:

فآليتُ لا أنفكُّ أبكيكَ ما دعتْ ... علـى فَنَـنٍ ورْقـاءُ أو طـار طـائـرُ

من غرائب الوفيات:

في تاريخ البشرية أحداث غريبة وأعلام ماتوا في ظروف غير مألوفة ومن هؤلاء أعلام ماتوا من الضحك:

ومنهم بيترو آرتينو (١٤٩٢ ـ ١٥٥٦ م) وهو كاتب إيطالي مات وهو يضحك في غمرة سرده لأفضل النكات التي تمتلىء بها جعبته.

وكذلك مات القنصل الروماني كراكوس، والشاعر فيليمون الشاب.. جميعهم ماتوا من الضحك، وهذا الأخير استغرق في الضحك وهو يتأمل إحدى لوحاته بعد الانتهاء من رسمها.. فمات!!

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «لا تكثروا من الضحك فإن الضحك يميت القلب».

ومن الأعلام من مات بضربة من السماء، فتروي كتب التاريخ أن اخيليوس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق.م) والذي كتب حوالي ٧٠ مسرحية، مات عندما سقطت على رأسه سلحفاة أفلتها نسرٌ في السماء، ربما لتحطيمها على رأس الشاعر الأصلع الذي قد يكون الطائر الجارح حسبه حجراً. . !!

ومات بنيامين فرانكلين مخترع «المضاد للصواعق» إثر سقوط صاعقة عليه. . وأما أديب نظمي الكاتب السوري (ت ١٩١٨ م) فقد أقعده المرض في أواخر حياته، وعندما دخلت طلائع العرب والانجليز دمشق، خرج على كرسي متحرك إلى صحن داره فحامت طائرة عثمانية وألقت قنبلة أصابته شظاياه فقتلته، وكانت القنبلة الفريدة التي ألقيت طوال مدة الحرب!.

وعلي الجارم (١٨٨١ ـ ١٩٤٩ م) الكاتب المصري المعروف توفي وهو يستمع إلى قصيدة من نظمه يلقيها نيابة عنه أحد أبنائه في حفل تأبين لمحمود فهمي النقراشي باشا.

وأما إبراهيم ناجي الطبيب والشاعر المصري المعروف فقد توفي عام ١٩٥٣م حين كان يكشف على قلب مريضٍ في عيادته، فتوقف قلبه فجأة، ومال رأسه على كتف المريض، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة.

ومن غريب ما يُروى أن الطبيب دافولينو جنتيله (ت ١٤٣٨ م) الذي عاش في مدينة بادوا الإيطالية، ألَّف كتاباً بعنوان «نصائح لمقاومة الطاعون». . ولكن الطاعون فتك به فقضى عليه.

وأما الطبيب مايكل سرفتوس (١٥١١ ـ ١٥٥٣ م) فقد قيل إنه سبق (هارفي) بقرن من الزمن في اكتشافه الدورة الدموية (وقد تناسى الجميع أن ابن النفيس سبق الاثنين في ذلك بقرون) وكان قد رفض عقيدة التثليث، فقبض عليه في جنيف تنفيذاً لأوامر (كلفن)، وحوكم وأحرق على الخازوق بتهمة الهرطقة[1].

---

(١) «غرائب وفيات الأعلام» مأمون صافيا. الفيصل، العدد (٢٠٩) ص١٠١ـ١٠٣. بتصرف.

ولسوف يعطيك ربك فترضى

يقول وليم شكسبير في «هنري السادس»[1]:

«ليس تاجي فوق رأسي . . بل هو فوق قلبي . .

تاجي ليس مرصَّعاً بالجواهر والحجارة الكريمة . .

وليس عليه شيء من ذلك . .

إن تاجي يسمى الرضى . .

إنه فرحي ورضاي عن نفسي . .

وهذا يجعلني ملكاً بحق . . » .

ويقول علماء النفس إن كثيراً من الهموم والضغوط النفسية سببه عدم الرضى، فقد لا نحصل على ما نريد، وحتى لو حصلنا على ما نريد فقد لا يعطينا ذلك الرضى التام الذي كنا نأمله، فالصورة التي كنا نتخيلها قبل الإنجاز كانت أبهى من الواقع.

وحتى بعد حصولنا على ما نريد فإننا نظل نعاني من قلق وشدة خوفاً من زوال النعم. ومن هنا كان الدعاء المأثور «اللهم عرفنا نعمك بدوامها لا بزوالها»، وقد خلق الإنسان . . وخلق معه القلق . . أو خلق القلق ثم خلق له الإنسان ليكابده.

والقلق هو أن تكون توقعاتك غير مؤكدة وغير مضمونة النتائج الحسنة. وهناك نوعان من القلق: القلق الطبيعي، والقلق المَرَضي.

---

(١) «هنري السادس» الفصل الثالث.

والقلق الطبيعي هو الذي يمكن أن نطلق عليه القلق الصحي، أو القلق الذي لا حياة بدونه، أو الذي لا معنى للحياة بدونه. وإذا اختفى أصبح الإنسان مريضاً متبلِّد الوجدان، وهو القلق الذي لا غنى للأديب والفنان والمبدع عنه. وكلنا نقلق.. نقلق من أجل الامتحان.. مشاكل متوقعة في العمل.. احتمال فشل لمشروع.. خلافات زوجية.. مرض الأبناء.. ضائقة مادية.. ديون متراكمة.. كلها حالات من القلق المؤقت المرتبط بضغوط معينة. حين تكون هناك مشكلة نقف أمامها حائرين، وقد نأرق، نفقد شهيتنا للطعام، وقد نفقد السيطرة على أعصابنا لأقل سبب، نتعذب بالانتظار والترقب والحيرة.. ويمر أسبوع أو أسبوعان أو ربما شهر، وتنقشع الظلمة تدريجياً كاشفة عن حل للمشكلة، أو نيأس تماماً من أي حل، ونقبل الأمر الواقع وبذلك يختفي القلق، وننعم بفترة هدوء وراحة.. ثم تمر بنا مشكلة جديدة.

وفي كل مرة نكتسب خبرة جديدة، وقدرة على معالجة الأمور بموضوعية أكثر وهدوء أكبر نسبياً. ولكن ما أن تنتهي المشكلة وننعم بالهدوء حتى تمر بنا مشكلة أخرى.. وهكذا حياة الإنسان»[(١)].

أما القلق المَرَضي فهو إحساس غامض غير سارٍّ يلازم الإنسان.

وأساس هذا الإحساس هو الخوف.. الخوف من لا شيء، الخوف من مجهول.. من شيء مبهم. وليس هذا فحسب، بل يصاحب ذلك التوقع السيِّىء.

وفي حالات القلق يزداد نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي بنوعيه «الودي» و«نظير الودي»، وتفرز مادة الأدرينالين في الدم، وهذه المادة هي المسؤولة عن كثير من الأعراض التي يشعر بها المصاب بالقلق.. فمادة الأدرينالين ترفع ضغط الدم، وتسبب زيادة العَرَق، وتؤدي إلى

---

(١) «في بيتنا مريض نفسي» للدكتور عادل صادق.

ارتعاش الأطراف وجفاف الحلق وشحوب الجلد. ومن أكثر الأجهزة حساسية وتأثراً بحالة القلق: القلب، فتزيد سرعة دقات القلب، فيشعر الإنسان كأن شيئاً يسحب إلى أسفل داخل صدره كما يشعر بنبضات قلبه[١].

«ومريض القلق النفسي يضع يده على قلبه.. يظنّ بقلبه الظنون.. يتصور أن لديه مرضاً في القلب.. ويهرع إلى طبيب القلب.. ومن طبيب إلى طبيب، وفحص القلب يؤكد سلامته، إلا أن الضربات سريعة وقوية، وربما غير منتظمة.

وقد يشكو المريض من معدته وأمعائه، فيضطرب الهضم، ويعاني من الحموضة الزائدة والغثيان وربما القيء، وآلام البطن والإسهال أو الإمساك والانتفاخ وكثرة الغازات والتجشؤ المستمر، واضطرابات البول أو الاضطرابات التناسلية»[٢].

يقول ديل كارنجي: «عشتُ في نيويورك أكثر من سبع وثلاثين سنة، فلم يحدث أن طرق أحد بابي ليحذرني من مرض يدعى (القلق)، هذا المرض الذي سبَّبَ في الأعوام السبعة والثلاثين الماضية من الخسائر أكثر مما سبَّبه الجدري بعشرة آلاف ضعف. نعم لم يطرق أحدٌ بابي ليحذرني أن شخصاً من كل عشرة أشخاص من سكان أمريكا معرَّض للإصابة بانهيار عصبي مرجعه في أغلب الأحوال إلى القلق!.

ويقرر الأطباء أن واحداً من كل عشرين أمريكياً سوف يقضي جانباً من حياته في مصحٍّ للأمراض العقلية.

ويتابع كارنجي القول: «لو أن أحداً ملك الدنيا كلها ما استطاع أن ينام إلا على سرير واحد، وما وسعه أن يأكل أكثر من ثلاث وجبات في اليوم،

---

(١) «الطب النفسي» للدكتور عادل صادق، بتصرف.
(٢) «في بيتنا مريض نفسي» للدكتور عادل صادق، بتصرف.

فما الفرق بينه وبين الفاعل الذي يحفر الأرض؟ لعلَّ الفاعل (العامل) أشد استغراقاً في النوم، وأكثر استمتاعاً بطعامه من رجل الأعمال ذي الجاه والسطوة.

ويقول الدكتور الفاريز: لقد اتضح أن أربعة من كل خمسة مرضى ليس لعلتهم أساس عضوي البتة، بل مرضهم ناشىء من الخوف، والقلق، والبغضاء والأَثَرَة المستحكمة، وعجز الشخص عن الملاءمة بين نفسه والحياة»[1].

قال المنصور:

كن موسراً إن شئت أو معسراً ... لا بدَّ في الدنيا من الغمِّ
وكلما زادك من نعمةٍ ... زاد الذي زادك في الهمِّ

والهموم تفتك بالجسم وتهرمه. قال المتنبي:

والهمُّ يخترم الجسيم نحافةً ... ويُشيب ناصية الصبي ويُهْرِمِ

وقد قرأنا كيف أن بكاء يعقوب على ابنه أفقده بصره، وكيف أن الغمَّ بلغ مداه بالسيدة عائشة عندما تطاول عليها الأفَّاكون ـ فظلَّت تبكي حتى قالت: «ظننتُ أن الحزن فالق كبدي».

وترى المهموم حزيناً مكتئباً. قال أحمد بن يوسف:

كثيرُ هُموم القلبِ حتى كأنما ... عليه سرورُ العالمين حرامُ
إذا قيل: ما أضناك؟ أسبل دمعه ... فأخبرَ ما يلقى وليس كلامُ

ومن الناس من يستطيع كتمان همومه، ويبدي لله نفساً راضية.. قال أسامة بن منقذ:

انظر إلى حُسْنِ صبر الشمع يظهر ... للرائين نوراً وفيه النار تستعرُ
كذا الكريم تراه ضاحكاً جذلاً ... وقلبه بدخيل الهمِّ منفطرُ

---

(١) «دع القلق وابدأ الحياة» لديل كارنجي.

ولربما ضحك المهموم وأخفى همومه، وفي أحشائه النيران تضطرم.. قال الشاعر:

وربما ضحك المهموم من عجبٍ السِّن تضحكُ والأحشاء تضطرمُ

وقد ذمَّ الرسول ﷺ التكالب على دنيا الهموم، فقال: «من جعل الهمَّ هماً واحداً كفاه الله همَّ دنياه، ومن تشعَّبتْهُ الهمومُ لم يُبال الله في أي أودية الدنيا هلك»[١].

ويهدف من هذا التوجيه النبوي إلى بثِّ السكينة في الأفئدة، واستئصال شأفة الطمع والتكالب على الدنيا.

في ذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

«من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدِّر له»[٢].

وقال أيضاً: «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبر همِّه أفشى الله ضيعته، وجعل فقره بين عينيه؛ ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أموره، وجعل غناه في قلبه؛ وما أقبل عبدٌ بقلبه على الله عز وجل إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفدُ إليه بالودِّ والرحمة، وكان الله إليه بكل خير أسرع»[٣].

وسمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهم إني أسألك الصبر، فقال: «سألت الله البلاءَ فسلْهُ العافية»[٤].

ولا شك أن علاج الهموم يكمن في الرضا بما قدَّر الله، والصبر على

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه البيهقي.

(٤) رواه الترمذي.

الابتلاء واحتساب ذلك عند الله: فإن الفَرَجَ لا بدَّ آتٍ. قال الشاعر:

روِّح فــؤادك بــالــرِّضــا ... تــرجــع إلــى روحٍ وطيــبْ
لا تيــأســنَّ وإن ألــحَّ ... الــدهــرُ مــن فــرجٍ قــريــب

وتذكَّر قصة موسى عليه السلام كما يصفها الشاعر:

كن لِما لا ترجو من الأمر أرجى ... منك يــومــاً لمــا لــه أنــتَ راجِ
إن مــوســى مضــى ليطلــب نــاراً ... مــن ضيــاءٍ رآه والليــل داجِ
فــأتــى أهلَــهُ وقــد كلَّــم الله ... ونــاجــاهُ وهــو خيــرُ مُنــاجِ
وكــذا الأمــر كلمــا ضــاق بــالنــا ... س أتىٰ الله فيــه ســاعــةً بــانفــراج

وقال أبو العتاهية:

اصبــرْ لكــل مصيبــةٍ وتجلّــد ... واعلــم بــأن المــرءَ غيــرُ مُخلَّــدِ
أوَ مَــا تــرىٰ أن المصــائــبَ جَمَّــةٌ ... وتــرى المنيــةَ للعبــاد بمــرصــدِ
من لم يُصَبْ مِمَّنْ ترى بمصيبةٍ؟ ... هــذا سبيــلٌ لســتَ فيــه بمفــرد
وإذا أتتــكَ مصيبــةٌ تَشجَــىٰ بهــا ... فــاذكــرْ مُصَــابَــكَ بــالنبــي محمَّــدِ

وتذكر قول الإمام الشافعي في قصيدة من أجمل قصائده:

ولا تجــزعْ لحــادثــةِ الليــالــي ... فمــا لحــوادث الــدنيــا بقــاءُ
فــلا حــزنٌ يــدومُ ولا ســرورٌ ... ولا عســرٌ عليــكَ ولا رخــاءُ

وقول أبي العلاء المعري:

قضى الله فينا بالذي هو كائنٌ ... فتمَّ، وضاعتْ حكمةُ الحكماءِ
وهل يأبقُ الإنسان من ملك ربِّه ... فيخــرج مــن أرضٍ لــه وسمــاءِ

فما من شدّة إلا وبعدها فرج قريب، كما يقول أبو تمام:

ومــا مــن شــدَّةٍ إلا سيــأتــي ... لهــا مــن بعــد شــدَّتهــا رخــاءُ

وقال آخر:

دع المقــاديــر تجــري فــي أعنّتهــا ... ولا تبيتــنَّ إلا خــالــيَ البــال
مــا بيــن غفــوة عيــن وانتبــاهتهــا ... يُغيِّــرُ الله مــن حــالٍ إلــى حــالِ

والساخطون والشاكون لا يذوقون للسرور طعماً، فحياتهم كلها سواد دامس، وليل حالك.

أما الرضا فهو نعمة روحية عظيمة لا يصل إليها إلا من قوي بالله إيمانه، وحَسُنَ به اتصاله.

والمؤمن راضٍ، عن نفسه، وراضٍ عن ربه لأنه آمن بكماله وجماله، وأيقن بعدله ورحمته.

ويعلم أن ما أصابه من مصيبة إلاّ بإذن الله.. وحسبه أن يتلو قول الله تعالى:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

قال صفي الدين الحليّ:

كُنْ عن همومكَ مُعرضَا وكِلِ الأمورَ إلى القَضَا
أَبشرْ بخيرٍ عاجلٍ تنسى به ما قد مضى
فَلَرُبَّ أمرٍ مُسخطٍ ولربَّما ضاقَ الفضَا
الله يفعلُ ما يشاءُ فلا تكُنْ متعرِّضا
الله عوَّدك الجميلَ فقسْ على ما قد مضى

والمؤمن يوقن تمام اليقين أن تدبير الله له أفضل من تدبيره لنفسه، فيناجي ربه ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المَـــرَاجع

أ ـ مراجع عربية:

١ ـ الحصري القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب. تحقيق الدكتور زكي مبارك، بيروت، دار الجيل.

٢ ـ القالي: الأمالي وذيل الأمالي. بيروت، دار الكتب العلمية.

٣ ـ الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الفكر.

٤ ـ الأصبهاني: الزهرة. بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين.

٥ ـ المبرِّد: الكامل في الأدب. بيروت، دار الفكر.

٦ ـ الجاحظ: المحاسن والأضداد. بيروت، دار إحياء العلوم.

٧ ـ الثعالبي: خاص الخاص. بيروت، دار مكتبة الحياة.

٨ ـ الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. بيروت، دار الكتب العلمية.

٩ ـ ابن قتيبة: عيون الأخبار. بيروت، دار الكتاب العربي.

١٠ ـ ابن عبد ربه: العقد الفريد. بيروت، دار الكتب العلمية.

١١ ـ الأبشيهي: المستطرف من كل فنّ مستظرف. بيروت، دار الندوة الجديدة.

١٢ ـ الجاحظ: البخلاء. بيروت، دار الكتب العلمية.

١٣ ـ التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة. بيروت، المكتبة العصرية.

١٤ ـ النمري القرطبي: بهجة المجالس وأُنس المُجالس. تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت، دار الكتب العلمية.
١٥ ـ محمد أحمد جاد المولى، علي البيجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم: قصص العرب، بيروت، دار الجيل (٤ مجلدات).
١٦ ـ ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفَّلين، بيروت، دار الكتب العلمية.
١٧ ـ الجاحظ: «البرصان والعرجان والعميان والحولان». تحقيق د. محمد مرسي الخولي، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٩٢.
١٨ ـ الزَّجَّاج: الأمالي في المشكلات القرآنية والحكم والأحاديث النبوية. بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٨٣.
١٩ ـ الثعالبي: لطائف المعارف، القاهرة، دار الطلائع.
٢٠ ـ الراغب الأصبهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء.
٢١ ـ الشريف الرضي: طيف الخيال. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.
٢٢ ـ ابن منظور: لسان العرب. بيروت، دار صادر.
٢٣ ـ الزبيدي: تاج العروس شرح القاموس. بيروت، دار الفكر.
٢٤ ـ الزمخشري: أساس البلاغة. بيروت، دار المعرفة.
٢٥ ـ مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط. القاهرة.
٢٦ ـ الدميري: حياة الحيوان. بيروت، دار الفكر.
٢٧ ـ السيوطي: فاكهة الصيف وأنيس الضيف. الرياض، مكتبة الساعي.
٢٨ ـ السيوطي: نزهة الجلساء في أشعار النساء. القاهرة، مكتبة القرآن.
٢٩ ـ الأصمعي: الأصمعيات. القاهرة، دار المعارف.
٣٠ ـ أحمد الإسكندري، أحمد أمين، علي الجارم، عبد العزيز البشري، أحمد ضيف: المنتخب من أدب العرب. طهران، مؤسسة الصادق.
٣١ ـ خير الدين شمسي باشا: المنتخب من ديوان العرب (تحت الطبع ٣ مجلدات).
٣٢ ـ أحمد الهاشمي: جواهر الأدب. بيروت، مؤسسة المعارف.

٣٣ ـ د. محمد أحمد الغرباوي: المرض والشفاء في أغاني الشعراء. الزقازيق، هديل للنشر والتوزيع ١٩٩٣.
٣٤ ـ شرح العكبري لديوان أبي الطيب المتنبي (أربعة أجزاء في مجلدين)، بيروت.
٣٥ ـ أبو العلاء المعري: لزوم ما لا يلزم (اللزوميات). بيروت، دار بيروت للنشر.
٣٦ ـ ديوان الشريف الرضي. بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر.
٣٧ ـ ديوان البهاء زهير. القاهرة، دار المعارف.
٣٨ ـ ديوان الخنساء. بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر.
٣٩ ـ ديوان أحمد شوقي (الشوقيات) ٤ أجزاء. بيروت، دار العودة.
٤٠ ـ ديوان حافظ ابراهيم. بيروت، دار العوة.
٤١ ـ ديوان صفي الدين الحلي. بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر.
٤٢ ـ ديوان ابن الرومي. تحقيق حسين نصار، القاهرة، مطبعة دار الكتب.
٤٣ ـ عزت شندي موسى: مع الله ورسوله (ديوان شعر). القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٤٤ ـ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. بيروت، دار مكتبة الحياة.
٤٥ ـ الرهاوي: أدب الطبيب. الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية ١٩٩٢.
٤٦ ـ ابن زهر الأندلسي: التيسير في المداواة والتدبير. تحقيق د. ميشيل الخوري، دمشق، دار الفكر.
٤٧ ـ أبو العلاء صاعد بن الحسن: التشويق الطبي. تحقيق د. مريزن عسيري، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٩٩٦.
٤٨ ـ د. زهير السباعي، د. محمد علي البار: الطبيب أدبه وفقهه. دمشق، دار القلم ١٩٩٢.

٤٩ ـ ابن سينا: القانون في الطب. بيروت، دار الفكر.
٥٠ ـ د. محمد علي البار: الخمر بين الطب والفقه. جدة. الدار السعودية.
٥١ ـ د. محمد علي البار: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، جدة، الدار السعودية.
٥٢ ـ د. محمد علي البار: السواك. دار المنارة، جدة ١٩٩٤.
٥٣ ـ د. حامد أحمد حامد: رحلة الإيمان في جسم الإنسان. دمشق، دار القلم ١٩٩١.
٥٤ ـ د. عبد الرزاق الكيلاني: الوقاية خير من العلاج. دمشق، دار القلم، ١٩٩٥.
٥٥ ـ د. خالص جلبي: الطب محراب الإيمان. بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٨٧.
٥٦ ـ د. محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين. جدة، الدار السعودية ١٩٨٧.
٥٧ ـ ديل كارنجي: دع القلق وابدأ الحياة. القاهرة، مكتبة الخانجي.
٥٨ ـ سيجمندلمر: الموسوعة الطبية للأسرة. ترجمة الأستاذ أنس الرفاعي، قطر، دار الثقافة.
٥٩ ـ د. عادل صادق: الطب النفسي. جدة، الدار السعودية ١٩٨٨.
٦٠ ـ د. عادل صادق: في بيتنا مريض نفسي. جدة، الدار السعودية ١٩٩٠
٦١ ـ د. مختار حمزة: سيكولوجية ذوي العاهات. جدة، دار المجمع العلمي ١٩٧٩.
٦٢ ـ علي الطنطاوي: رجال من التاريخ. جدة، دار المنار في ١٩٩٠.
٦٣ ـ علي الطنطاوي: صور وخواطر. جدة، دار المنار في ١٩٩١.
٦٤ ـ محمد الفضل ابن عاشور: ومضات فكر. تونس، الدار العربية للكتاب ١٩٨١.
٦٤ ـ د. سعد إسماعيل شلبي: الشعر العباسي ـ التيار الشعبي. القاهرة، مكتبة غريب.

٦٦ ـ سامي الكيالي: من خيوط الحياة. حلب، المطبعة التجارية ١٩٦٣.
٦٧ ـ محمد طاهر الكردي: أدبيات الشاي والقهوة والدخان. جدة، الدار السعودية للنشر ١٩٦٧.
٦٨ ـ د. علي شلق: الطعم في الشعر العربي. بيروت، دار الأندلس ١٩٨٤.
٦٩ ـ محمد عبد الغني حسن: في صحبة الشعر والشعراء. القاهرة، عالم الكتب.
٧٠ ـ نجيب البعيني: طرائف الشعراء في مجالس الأدباء. بيروت، دار المناهل ١٩٩٤.
٧١ ـ د. نايف معروف: طرائف ونوادر. بيروت، دار النفائس.
٧٢ ـ د. حسن البنا عز الدين: الطيف والخيال في الشعر العربي القديم. بيروت. دار المناهل ١٩٩٤.
٧٣ ـ أحمد سويلم: مسلمون هزموا العجز. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية ١٩٩١.
٧٤ ـ الألباني: صحيح الجامع الصغير. دمشق، المكتب الإسلامي ١٩٨٦.
٧٥ ـ المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير. بيروت، دار الفكر.
٧٦ ـ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد. مؤسسة الرسالة، بيروت.
٧٧ ـ هيكل نعمة الله، إلياس مليحة: موسوعة علماء الطب. بيروت، دار الكتب العلمية.
٧٨ ـ د. مخيمر صالح موسى يحيى: رثاء الأبناء في الشعر العربي. الزرقاء، مكتبة المنار.

ب ـ مراجع أجنبية :

1-Current Medical diagnosis and treatment
Newyork, Appleton and lange 1997.

2 - Harrison's principles of internal Medicine
Newyork, Mc Graw Hill co 1997.

3 - Cecil's textbook of Medicine
Newyork,Saunders 1996.

4 - University of california
The wellness Encyclopedia 1995.

5 - Braunwald E.
Heart Diseases.
Newyork, Saunders, 1996

6 - Guyton textbook of physiology
Newyork, Saunders 1992

7 - Laurence clinical pharmacology 1995.

8 - British Mediacl Association.
Family Health Encyclopedia
London Dorling Kinedrsley 1995.

9 - Guniess Book of Records 1997.

10 - The oxford Medical companion
OXford universtiy Press 1995

11- The American Medical Association Family Guide1995.

كتب للمؤلف

١) وصايا طبيب، دار القلم دمشق، دار البشير جدة (الطبعة الثانية).
٢) كيف تقي نفسك من أمراض القلب: دار القلم دمشق، دار البشير جدة الطبعة الثانية.
٣) ارتفاع ضغط الدم: دار القلم دمشق، دار البشير جدة (الطبعة الثانية). ؟
٤) الدهون.. والكولستول.. والقلب: دار القلم دمشق، دار البشير ومكتبة البشير ومكتبة السوادي بجدة (الطبعة الثالثة).
٥) دليلك إلى عمليات القلب الجراحية (بالاشتراك مع الدكتور عبد الله عشميق) الخدمات الطبية للقوات المسلحة بالرياض.
٦) دليلك إلى القثطرة القلبية: الخدمات الطبية للقوات المسلحة بالرياض.
٧) كيف تتخلص من الصداع: دار المنارة جدة.
٨) كيف تتخلص من الإمساك: دار القلم دمشق، دار البشير جدة.
٩) الميلاتونين: هل هو الدواء السحري؟ دار المنارة جدة.
١٠) قبسات من الطب النبوي والأدلة العملية الحديثة: مكتبة السوادي جدة (الطبعة الثانية).
١١) زيت الزيتون بين الطب والقرآن: دار المنارة جدة (الطبعة الرابعة).
١٢) الأسرار الطبية الحديثة في السمك والحوت: دار المنارة جدة (الطبعة الثالثة).
١٣) القهوة والشاي: فوائدها وأضرارها: دار القلم دمشق، دار البشير جدة (الطبعة الثانية).

١٤) الدليل الطبي والفقهي للمريض في شهر الصيام: مكتبة السوادي جدة (الطبعة الثانية).
١٥) النوم والأرق والأحلام بين الطب والقرآن: دار المنارة جدة (الطبعة الثالثة).
١٦) الأسودان: التمر والماء: دار المنارة جدة (الطبعة الثالثة).
١٧) الأسرار الطبية الحديثة في الثوم والبصل: دار القلم دمشق، دار البشير ومكتبة السوادي جدة.
١٨) معجزة الاستشفاء بالعسل والغذاء الملكي: دار القلم دمشق، دار البشير ومكتبة السوادي جدة (الطبعة الخامسة).
١٩) الشفاء بالحبة السوداء بين الإعجاز النبوي والطب الحديث: دار القلم دمشق، ودار البشير ومكتبة السوادي جدة (الطبعة الخامسة).
٢٠) أطباء الغرب يحذِّرون من شرب الخمر: دار القلم دمشق، دار البشير جدة.
٢١) حذار حذار من هذه الكتب: دار القلم دمشق، دار البشير جدة.
٢٢) الرضاعة من لبن الأم: مكتبة السوادي جدة (الطبعة الثانية).
٢٣) أسرار الختان تتجلى في الطب الحديث: مكتبة السوادي جدة (الطبعة الثاينة).
٢٤) الداء والدواء بين الأطباء والأدباء: دار القلم دمشق، دار البشير جدة.
٢٥) كيف تربي أبناءك في هذا الزمان: دار القلم دمشق، دار البشير جدة.
٢٦) قلبك بين الصحة والمرض: دار القلم دمشق، دار البشير جدة.
٢٧) طريقك إلى السعادة والنجاح (قيد الإعداد): دار القلم دمشق، دار البشير جدة.
٢٨) Hope heartcare handbook, Manchestar Freepress 1987, Mancheser

Handbook of coronary care Blackwell Scientific is(٢٩
Publication 1990, London
Patient's Guide to heart disease, Dar Al-Manara,(٣٠
Jeddah 1997.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *

هذا الكتاب

أول كتاب يجمع بين الطب والأدب، ويسير متنقلاً بين رياحين الأدب، ورياض الطب الحديث.

يحكي قصة القلب المعذّب في الطب والأدب، والسواك الذي يغار منه الشعراء، ويروي حكاية الأسنان والرضاب، وينقلك إلى مجالس القهوة والشاي، ويحذر من المدامة وطاعون العصر، ويرصد بمقياس الجمال البدينين والنحفاء، ثم يجول في عالم الأسرة والزواج والعقم، ويسرح بك في عالم النوم والأرق، ويعود بعدها إلى الجلد والشيب والصلع وما تنكره الحِسان.

ومن ثم يوغل في عالم المرض، فيذكر الحمى وما قيل فيها من شعر، ويُعَرّج على التدرن الرئوي، وما صنع الزكام بإمام الأطباء.

ومن الغصص بالماء إلى الكبد المقروحة، وما عاناه الشعراء من آلام؛ وفي كل ذلك يورد المؤلف أحدث الآراء الطبية والحقائق العلمية.

إنّه كتاب يجمع بين طرافة الأدب ولذة المعرفة الطبية في العديد من الموضوعات التي تهم كل إنسان.

الناشر

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق: ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب: ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة: ٢١٤٦١ - ص.ب: ٢٨٩٥

ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١